رواية

الحب والزمن

سعيد سالم

أثار قرارى المفاجيء بشراء المقهى فى أرجاء حياتى العائلية والاجتماعية زوابع عاصفة بين الاستنكار والدهشة والإعجاب والرفض والغضب والقبول المتحفظ..

– مهندس محترم مثلك يقبل على نفسه أن يتحول الى معلم..قهوجى؟!..

– كيف تواجه الأهل والجيران والأصدقاء والأصهار بهذا الوضع المزرى؟

–والله رجل جدع..جابها من الآخر وأراح دماغه

–هذا أشرف من مجالس النميمة مع أرباب المعاشات

–هل أنفق عليك أهلك وربوك وعلموك ليكون هذا مصيرك؟

– المقاهى مكسبها هائل ومضمون.كل رأسمالها الماء وبعض الكراسى وكم باكو شاى وقهوة

– أنت عار على المتعلمين والمثقفين من أمثالك

كانت لدى ردود جاهزة على كل هذه التساؤلات والتعقيبات.لكنى لم أعلق ولم أعقب ، لأننى كنت راضيا عن قرارى كل الرضا ، فلم أشأ لمخلوق مهما بلغ شأنه عندى أن يراجعنى أو يثنينى عن عزمى.أصبح هذا الشأن عندى أمرا مصيريا بين يوم وليلة.

احتل المقهى مركز دائرة اهتماماتى الحياتية الموزعة بين البيت والبار والشاطيء والمسجد.وجدته أنسب مكان أمارس فيه متعتى الأزلية فى القراءة بتركيز شديد يزداد بازدياد صخب الناس وضجيجهم.أورثنى أبى تلك المتعة وزرعها فى عقلى ووجدانى ثم زهد فيها وعاش فى عزلة صامتة عن الحياة.

يقع مقهى الشعب فى حى سيدى جابر على بعد قليل من الشاطيء، فى منتصف المسافة بين المسجد الشهير وأحد البارات الصغيرة المرخصة.اشتريته بعد إحالتى الى التقاعد بأشهر قليلة. باعه صاحبه لى – حسب قوله– برخص التراب فى ظروف قاسية ألمت به وأحوجته الى المال والسفر.كانت قيمة هذا التراب الرخيص تعادل على وجه التقريب إجمالى ما تقاضيته من مكافآت نهاية الخدمة والتأمينات الاجتماعية وصندوق الزمالة وصندوق تكافل نقابة المهندسين ، ومقابل الإجازات المتأخرة الذى يساوى أجر ثلاثة أشهر ، فضلا عن كل ما استطعت ادخاره خلال حياتى الوظيفية باكملها.

لم يكن للمقهى عنوان من قبل.أسميته مقهى الشعب مكتفيا بذلك بعد طول تردد ، إذ كانت تراودنى فكرة أن أضيف الى العنوان عبارة:"لصاحبه الحاج مراد عامر".

أصبحت جارا لسباك يقول لى فى الصباح:

– نهاره قشطه ياحاج

ونجار موبيليا يودعنى فى المساء وهو يغلق دكانه:

– تصبح على خير يامعلم

أستشعر متعة خبيثة لذيذة ترضيني وتسعدني حين أستمع الى مثل هذه الكلمات الخالية من التكلف..أخيرا جاء اليوم الذى أتحرر فيه من ملالة الواقع الذى ظل يعذبنى ويقتلنى ببطء كل يوم حتى بلغت الستين.نفس الوجوه فى كل مكان. كما الحمار أسير نفس المسافة مارا بنفس الأماكن التى حفظت تفاصيلها الدقيقة عن ظهر قلب.نفس الوجوه فى المصنع ونفس الماكينات بضجيجها المزعج الذى أتلف أعصابى.نفس الوجوه على صفحات الجرائد القومية تذكرنى دوما بالجمود والكذب والفشل.حياة بلاحيوية تخلو من اللون والطعم والرائحة ، كلها تكرار فى تكرار ، دينها الملل وعبادتها السأم.

ودعت المهندس مراد عامر ، موظف القطاع العام المطيع المنضبط الذى يتحاشى بكل السبل غضب رؤسائه ، وينتظر كل عام فى صبر الإبل علاوته الدورية ، وكل عدة أعوام علاوة الترقية الى الوظيفة الأعلى. ودعته وداعا نهائيا الى غير رجعة وكسرت وراءه قلة. كانت فرحتى بالتخلص منه لايعادلها فى الوجود فرحة.

هأنا أتجرأ على حياتى الرخوة لأول مرة فأرتكب مغامرة مثيرة لأصبح المعلم مراد ، منذ لحظة جلوسى الى منصة المقهى. لاهندسة اليوم ولا مشروعات سبق أن عاشت فى أحلامى عمرا طويلا ، فقد وضعت لنفسى حدا نهائيا فاصلا بين حياتين ، بدأت الثانية بانتهاء الأولى.

كلما جاء محيى عبد الحميد لزيارتى بالمقهى فإنه لا يستطيع أن يكف عن الضحك ، لأنه غير قادر على أن يصدق مايراه ويلمسه أمامه من واقع حقيقى بدد آماله فى حلمنا القديم.

اليوم تتغير الوجوه وتتجدد فى كل لحظة.أصوات زهر النرد وقرقرة الشيش وحوارات الزبائن وشجارات الأدباء تشعرنى بنشوة لم أعرفها من قبل.لعلها الحرية تهفهف على حياتى بنسماتها العطرة من بعد عمر قضيته ماشيا فى صمت بجوار الحائط ، مقيدا اليه بسلسلة من فولاذ ، لاملاذ لى من شر الناس وخيرهم سوى الكتب والجرائد والمجلات. غير أننى منذ اشتريت المقهى امتنعت عن شراء جرائد الحكومة ولم أعد أقرأ إلاجرائد المعارضة والجرائد المستقلة.

خصصت بالمقهى ركنا معينا لتجمع الأدباء ، اعتادوا اللجوء اليه بعد خروجهم من قصر ثقافة سيدى جابر لقربه منه ، ولكون أسعاره فى متناول جيوبهم التى تشكو دائما من الإفلاس ،فى تناسب عكسى مع ارتفاع أصواتهم. أقدم لهم المشروبات بنفسى بسعر منخفض أخصهم به ، فأنا أحب هؤلاء المجانين ، وأشعر بانتماء قوى الي عالمهم الذى أرى فيه سحرا حلالا. كثيرا ما أجلس بينهم لأشاركهم النقاش فى موضوعاتهم الخلافية التى لابد أن تنتهى فى كل مرة بمشادة تتفاوت حدتها من حين الى آخر.

أنا لا أتبع طريقة استخدام" الماركات" للحساب مع النادل ، لأنها ستربطنى بمقعدى أمام الخزانة ، وإنما أتبع طريقة أخرى يتسلم فيها عددا معينا من أكياس الشاى والسكر متفق على أنها تعادل عدة أكواب محددة من المشروب ، ونفس الحال مع البن والمشروبات الأخرى ، وفى نهاية الوردية تتم المحاسبة مرة واحدة. صحيح أن هذا الأسلوب قد يعطى الفرصة للنادل أن يغالطنى فى بعض من الأحيان بشكل أو بآخر، ولكنى راض كل الرضا عن هذه الطريقة على عيوبها ، فالدنيا لن تهتز لها شعرة لو نقص مالى أو زاد مال النادل بضعة جنيهات قليلة.. المهم أن أحظى بحريتى فى التنقل بين المقهى والبيت والبار والشاطىء والمسجد..أما الهندسة فعليها السلام ورحمة الله وبركاته ، أو عليها العنة!!..المهم أن تحل عن سماواتى.

******

الكتاب الذى أقرأه الآن عليكم أيها الأخوات والإخوة ، هو مذكرات شرعت فى كتابتها منذ حوالى أربعين عاما بدأت بنكسة١٩٦٧ وانتهت بحادث المنصة عام١٩٨١ وعنونتها آنذاك بالشرخ. كنت أيامها أحاول أن أشبع حاجة ملحة فى نفسى بأن أكتب ما يحدث من حولى لمجرد الكتابة ، فأتنفس بعمق وأشعر براحة من يتخلص من حمل ثقيل على كتفيه. كانت هذه الكتابة بالنسبة لى بمثابة العلاج الطبيعى لمريض عصابى دائم القلق والتوتر.

والحق أننى قد مللت من كثرة قراءة هذه المذكرات عديدا من المرات على مدى الأعوام الطويلة الماضية. فى كل مرة أقرر ألا أعاود قراءتها مرة ثانية حتى لايصيبنى مايصيبنى من شعور مكثف بالخوف الشديد من مجهول قادم يكتسح الأخضر واليابس، لكنى أعاود قراءتها من جديد تحت وطأة ذلك الشعور الغامض ، محاولا التأكد فى كل مرة إن كان هذا الخوف قائما على حقيقة أو على وهم.

فى النهاية لم أجد بدا من أن تشاركونى أيها الناس فى أمرى من هذه المذكرات، لابدافع سادى حتى تتعذبوا مثلما تعذبت كلما عاودت قراءتها، ولكن لكى تدلونى إن كنت مبالغا حتى أطمئن ، أو كنت عاجزا عن قراءة الواقع فتحذرونى من الشطط والمغالاة ، أو ان كنت محقا فيكون لنا معا شأن آخر.

إننى أرجو من كل من يقرأ مذكراتى القديمة التى أشرت اليها ، ومذكراتى الحديثة التى تخللتها مع الزمن وتعقيباتى عليها ، أن يتفضل مشكورا بالاتصال بى ، ولا عليه أن يتحاشى الحديث عن النذر التى تتعلق بشخصى فهذا أمر يخصنى وحدى ..قد يرى فى بعض الرجال ومعظم النساء نذلا كبيرا، خائنا للعشرة، أسيرا لهواه، فلا بأس ، لأننى قادر على أن أتحمل تبعات مواقفى وأفعالى الانقلابية التى بدأت منذ أن أحلت الى المعاش..لكن علي القارىء أن يطمئننى إن كان يشاركنى

نبوءتى الغامضة ، أم يتهمنى بأننى أهلوس لكثرة ما أتعاطاه من حشيش.. وإنى لأعد كـــل مـــن يتفضل بالاتصال بى من المهتمين بأمر هذا الوطن أن أقدم له الملفات الكاملة التى جمعتها على مدى العامين الأخيرين من جرائد المعارضة،والتى عرضت نماذج مختصرة منها فى هذه المذكرات.الملفات معنونة عندى ومرقمة على طريقة البحث العلمى لمن يريد الرجوع اليهاومعرفة مصادرها..عددها عشرة،وهناك ملف آخر لم أشر اليه فى مذكراتى وذلك نظرا لشدة حساسيته وخطورته، ولكـــنى لن أبخل به على من يريد الاطلاع عليه فى بيتى.. أما أن يعتقد أحدكم أننى أمثل حالة مرضية من حالات ازدواج الشخصية، فلقد بادرت من فورى بزيارة طبيب نفسانى عرضت عليـــه حـــالتى ،حيث أكد لى أننى سليم نفسيا ، باستثناء حالة العصاب التى أصبح معظم الـــشعب المـــصرى المضغوط يعانى منها.

******

هنا القاهـــــــــــرة...أيها المواطنون..بعد ساعات تقترب جحافل الجيش المصرى الظافر مـــن مشارف تل أبيب..الله أكبر والنصر للعرب.

هنا صوت أميريكا...

اكتسحت قوات جيش الدفاع الإسرائيلى القـــوات المـــسلحة المـــصرية فى ســـيناء واحتلـــت الشاطىءالشرقى لقناة السويس.

مالت الشمس نحو الغروب وتناجت أمواج البحر فى هسيس حنون تطرب له الآذان العاشـــقة.

قالت لى سميره وأنا أنظر فى الندبة الرقيقة أسفل ذقنها بعينين عاشقتين:

....

-أنت لاتستطيع أن تتصور مدى حبى لك قلت لها وعيناى ذائبتان فى الندبة:

– وأنت أجمل فتاة فى العالم

وقال عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فى رسالة بعث له بها بعد أن فتح مصر:

"مصر قرية غبراء وشجرة خضراء.طولها شهر وعرضها عشر.يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر. يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات. تجرى فيه الزيادة والنقصان كجـــرى الـــشمس والقمر.".. ثم قال:"فبينما مصر لؤلؤة بيضاء إذا بها عنبرة سوداء، فإذا هى زمردة خضراء، فإذا بها ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء"..

وقال المذيع الأمريكى بلهجة تخلو من الانفعال:

“Cairo accepted fire ceasing”..-

حفرت العبارة فى ذاكرتى. مازلت أعيها بتفاصيلها اللحظية كماسمعتها بأذنى وتعاملت معها بكل حواسى.."كايرو"عاصمة القرية الغبراء والشجرة الخضراء أعلنت تخاذلهارسميا وقبلــت وقــف إطلاق النار. أنا لاأصدق ما نسب الى عمرو بن العاص عن نساء مصر العجب ورجالها العبيد لمن غلب ، لأن مثل هذا الكلام لايصدر–فى رأيى– عن صحابى .

تقلصت معدتى بشدة فلم تسمح ببقاء طعام بين جدرالها لعدة أيام متتالية ، وأنا أحب الطعــام وأحترمه وأعزه وأجله. قال لى الدكتور مدحت العيسوى إنه عصب المعدة الحائر ، والذى يسميه البعض بالعصب العاطفى.. ونحن نشرب الشاى معا لم يبادلنى الحديث عن الهزيمة،وكأنها لحقــت ببلد آخر.أكد لى أن سبب المرض كامن فى شدة قلقى وتفكيرى المتواصل فى عجزى عن تــدبير مايلزمه زواجى من نفقات تفوق طاقتى وقدراتى المالية المتواضعة. نظرت فى شــرود الى وجهــه المتورد بدماء العز والرفاهية ، واللهم لاحسد فأنا أحبه.فتحت فمى كى أتكلم،لكنى تكاســلت فعاودت إغلاقه.لم أحاول أن أسفه من تجاهله للصاعقة التى ألمت بنا أو أتهمه بالانفصال عن واقعنا المخيف ، وإنمارحت أسائل نفسى عن الأسباب الحقيقية التى رفضت معدتى الطعام لأجلها.أهــو الإفلاس العظيم، أم الصدمة القاتلة فى جيشنا المنهزم بجدارة ، أم أن قلقى منصب على شــقيقتى نبيله التى توشك على وضع مولودها الثالث..لو كان مدحت مصيبا فى تشخيصه الذى أشار اليه ببساطة شديدة فالعلاج هو:

- أن أحصل على مال وفير يحقق أمنيتى وأمنية حبيبتى التى طال انتظارها لى بلا همــسة تــذمر أو إمارة قلق.
- أن تتحول هزيمة الجيش المصرى–ولو بمعجزة سماوية–الى انتصار حاسم ليس بالضرورة أن تكون نهايته احتلال تل أبيب.
- أن يعود الرائد ابراهيم النحراوى من المعركة ليشهد مولد طفله الثالث.

أغلقت على نفسى باب حجرتى. تجردت من كل ملابسى وجلست عريانا كعادتى حين أريد أن أفكر فى صفاء.رؤيتى لمسألة المال رؤية ضبابية لم تتضح معالمها بعد ، وحتى لو لم تتضح الى نهاية العمر فلا بأس،لأننى أعتقد كثيرا فى لاجدوى أى شىء ، رغم أننى غارق حتى أذنى فى الكثير من الأشياء.

أجمل ما حدث فى حياتى الجوفاء حتى الآن أننى أحببت سميرة وأحبتنى. تنتظرنى منذ صبانا فقد اخترتها واختارتنى وانتهى الأمر وليس لدى تفسير له سوى أنه الحب.

زملائى الذين يعملون فى البلاد العربية يتقاضون أضعافا مضاعفة لراتبى الذى ينفــد فى الثلــث الأخير من كل شهر.

أنا لا أحب مغادرة مدينتى إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد.عمرها ثلاثة وعشرون قرنا من الزمان وأعجب ما يعجبنى فيها أن الذى بناها ذو قرنين..وقد طاب هواؤها ونقى جوها وخف حرها وبردها وسلم أهلها من مشاتى الجبال ومصائف عمان وصواعق تهامه ودماميل الجزيرة وجرب اليمن وطواعين الشام وغيلان العراق وعقارب خوزستان.أحب حارتنا الضيقة المواجهة للبحر،حيث البيوت الواطئة المتعانقة فى ود قديم والتى تشربت أحجارها العجوز برحيق زمان طويل،والمداخل ذات الأبواب الخشبية العتيقة التى لم يفقدها التآكل روعة تصميمها الفنى الأصيل،و"السلالم"التى استسلمت فى صمت لوطء أجيال تعاقبت وراء أجيال.هنا أسكن ومن هنا أحببت، وفى صمت الليل صرخت نبيله من شدة الألم والرعب معا.كذلك صرخ وليدها مستقبلا الحياة،فيا أهلا بك أيها القادم المسكين.لست أدرى لماذا جئت فى هذا التوقيت السخيف لمجرد عبور لحظة حب غير مسئولة بين أمك وأبيك.لو كنت ولدا فاعلم أن طريق الحياة الكريمة لم تعد ممهدة إلا للسفهاء.سوف ترى أوضاعا مقلوبة تصيبك بالشك فى عقلك.الناس أيها القادم المجهول يرتدون دروعا تخفى كذبهم وأنانيتهم ونفاقهم وجشعهم..ثعالب وأفاع ونمور.. ستعانى الأمرين فى المعيشة بينهم.

ولو كنت بنتا فلن تجدى الخلاص هنا فى شيء حتى لو امتلكت مواهب الدنيا.لو صرت عالمة فى الذرة فلن تستطيعى مواصلة أبحاثك فى مناخ من الحقد وتثبيط الهمم وتسلط الذكر على الأنثى،وحتى لو استطعت فيا حسرتك عندما تجدين أن راقصة تهز مؤخرتها العارية وصدرها الرجراج تستطيع أن تحصل فى دقائق على ماتحصلين عليه من أجر فى عدة أشهر.الرجل عندنا – مهما بلغ غباؤه وانحطاطه– هو السيد الآمر الناهى بلا مبرر.ستتحولين الى مازوكية شرقية تستعذب العذاب وتستمرئه..ما أتعس أن تأتى الى الدنيا لتعيشى حياتك مقهورة حتى الموت.

على أية حال تعال أيها القادم المجهول–أيا كنت–لتخوض معنا غمار تجربة مكررة منذ الأزل،معلومة البداية والنهاية،مجهول كل مابينهما من مسرات وأحزان ومفاجآت ونوائب يشيب لهولها الشبان.

على باب المنزل تبادلنا نوبتجيات الحراسة انتظارا لحضور مندوبى القوات المسلحةومعهم النبأ الحزين،حتى نحجبه عن نبيله فلا تفجع به.تلقينا منهم العزاء فى الشهيد ابراهيم النحراوى أمام البيت،وعندما صعدنا أبلغناها أنه فى عداد المفقودين–فأعور أحسن من أعمى–وأن هناك أمل فى عودته بعد انتهاء الحرب وتبادل الأسرى.يبدو أننى كنت ميالا لتصديق هذه الأكذوبة،إذ تتبعت وحدى فى الخفاء أنباء العائدين من زملائه لأعرف منهم الحقيقة.لم يؤكد أحدهم أنه رآه قتيلا.أقسم البعض أنه أسير حرب ولابد عائد بإذن الله.تعذبت روحى بين تعاقب اليأس

والأمل.صرخت نبيلة وصرخ الوليد،أما أنا فأجهشت بالبكاء فى حنايا السلم بعد إعلان النبأ واستشاعته. انسلخت من سرادق العزاء حتى أستشعر لذة البكاء الحارق على عزيز دون أن يرانى أحد، مع أنه كان من حقى أن أبكى أمام الناس.ضاع الرجل الطيب الوديع.كانت أمى تشبهه بالبنت لفرط حيائه وشدة تأدبه.حصدته رشاشات طائرة هليوكوبتر اسرائيلية فى باب زويله.لم يكن جسده العملاق بحاجة الى كل تلك الطلقات.كان سيموت من تلقاء نفسه إذ أصيب أثناء المعركة فى بطنه وفى نفس المكان الذى سبق أن أجرى به عملية"فتق"جراحية.لابد أن الموت فيه راحة عن القتل،إذيتم فيه زوال الإنسان والأشياء عن بعضهما فى سلام ودون دماء..ويسير صاحب الجسد العملاق منحنيا على نفسه مع المنسحبين ضاغطا بيديه على أمعائه حتى لاتبرز من بطنه فتسقط على الأرض.أراحته طلقات الرصاص فأعفاه الزوال من عبء التشبث بالبقاء.آه من الموت..وآه من الحياة.

رثيت لحال مدحت المسكين.لو لم أتكاسل عن مواصلة الحديث معه لقلت له ان المال لن يجىء،وإن النصر أيضا–كما يبدو– لن يجىء، وإن ابراهيم النحراوى قد مات شهيدا ولن يعود.

******

أنا لاأسمح فى مقهاى بلعب القمار أو تعاطى المخدرات،بل أحافظ على المستوى اللائق به وبى وبروادى الذين لايعرفون الأندية الاجتماعية الراقية،ولايقدرون على تكاليف المقاهى السياحية التى تحتل الكورنيش،والتى صار معظمها يحمل أسماء أجنبية..لهذا لايفكر"وائل"ضابط مباحث المنطقة أو أحد من رجاله فى اقتحام مقهاى مثلما يحدث مع معظم المقاهى الأخرى،حيث يصول وائل ويجول هو ورجاله كيفما يشاءون.يظل جالسا فى عربته ويبعث بمخبريه لاستدعاء ضحيته ممن يشاء من الجالسين على أى مقهى يختاره،قائلا:

–هات لى الولد ده

حتى لو كان هذا الولد فى عمر أبيه..ويسارع المخبر الى هذا الولد منتزعا إياه بفظاظة من على مقعده:

–تعال كلم الباشا

ولامانع بين إطلاق الأسئلة الوهمية والاطلاع على بطاقة الهوية أن يلطع الولد على قفاه مرتين أو ثلاثا على الأقل..اعتاد المصريون هذا الأمر منذ مئات السنين وألفوه.

عندى يختلف الأمر.لايجرؤ وائل ولا غيره على تجاوز حدوده،لابسبب حسن سمعة مقهاى وتربعى على إدارته فقط،ولكن–والحق يقال–لأنه يعمل فى نفس المنطقة تحت رئاسة ابنى المقدم عادل مراد.

أصبحت مدمنا لقراءة جرائد المعارضة التى تبرز فى صفحاتها الأولى أنباء مثيرة لاتجرؤ الجرائد القومية على نشرها من عينة:"بتعليمات من مبارك منعت مناقشة اتفاقية الكويز مع العدو الصهيونى فى مجلس الشعب" ، أو "للمرة الثانية تطالب محكمة الجنايات باتخاذ إجراءات ضد يوسف والى المسئول الأول عن إغراق مصر بالأسمدة المسرطنة"..ويسيح بصرى بين رواد المقهى فأرى فيهم تمثيلا حيا للعديد من فئات وطبقات الشعب بأعمار مختلفة.ولاعجب فى ذلك،ففضلا عن رخص أسعار المشروبات، يتسم المكان بطابع جمالى شيمته البساطة فى كل شىء.المقاعد والموائد ملونة بألوان اخترتها بنفسى،ليست بالفاقعة الزاهية وليست بالداكنة الكئيبة،المفارش نظيفة على الدوام.الإضاءة ليست كثيفة وليست خافتة وإنما بين بين.تنبيهاتى لاتنقطع عن كل نادل يعمل معى أن يخدم الزبائن بمحبة ورضا وإخلاص،ليعود ذلك بالخير عليه وعلى المقهى وعلى.

سبحان الله.إن دخلى اليومى من المقهى يعادل أحيانا راتبى الشهرى الذى كنت أتقاضاه من وظيفتى.لامتعة ولا طمأنينة فى هذه الدنيا تعادل شعورى اليوم بالاكتفاء والفائض،أنفق منه بسخاء على أسرتى وعلى كل محتاج أعرفه أو أسمع عن أحد يعرفه،فتزداد متعتى وتتضاعف طمأنينتى للأيام وأزداد حمدا لله وشكرا على محبته لى وتجليه على بكرمه وحنانه.

******

كان من العبث أن أعتمد على راتبى الشهرى حتى أحصل على قسيمة زواجى من سميرة.فى الجنة ارتبط آدم وحواء دون خاتم ذهبى أو"شبكة"،وكانا يلتهمان فاكهتها بلا مقابل.ولما تجاوزا حدودهما دفعا الثمن غاليا،وأنا ليس لدى ما أدفعه.

قادتنى قدماى الى صديقى محيى عبد الحميد المهندس بالقوات المسلحة لنصل ما انقطع بيننا من أحلام الشباب الخضراء.ذهبت لتهنئته بسلامة العودة من الأراضى السوفيتية المثلجة.كان يدرس عندهم الصواريخ المتطورة التى ابتكرها أحفاد نوح. حين جاءه النبأ الأسود هناك،أغلق على نفسه باب غرفته وظل أياما يعب الفودكا فى جوفه بلا وعى.امتنع عن حضور الحفل الختامى لوداع المبعوثين وعاد الى مصر مصابا بقرحة فى المعدة.

قال لى بعد أن تبادلنا سكب أحزاننا فى أكواب البيرة وأطباق الجندوفلى،إن العقاقير الطبية لم تعد تجدى نفعا معنا وقد أصبح الحال من بعضه،وإن الحل الأمثل الذى يمكن أن يقودنا الى الشفاء هو الانطلاق وتكبير الدماغ ومحاولة النسيان.سهى عليه أننى رجل مفلس وأن الإفلاس قرين العبودية وعدو الانطلاق.أبرز لى بطاقة دعوة شخصين لقضاء ليلة رأس سنة١٩٦٨الميلادية فى أحد الملاهى الليلية الواقعة على كورنيش البحر.اتفقنا على أن ننسى– فى هذه الليلة على الأقل–

هزيمة الجيش والشعب والوطن،وهزيمة كل منا أمام نفسه والآخرين والحياة..قررنا أن نشرب ونضحك فى هذه الليلة حتى الموت.

******

يوم افتتاح المقهى كنت غارقا فى مقام الشكر مستغرقا فيه.سكن الله قلبى وهرب منه الشيطان.عشت بطول عمرى قلقا متوترا .ألجأ الى الحشيش كحل وقتى لامتصاص قلقى وتوترى،وللهروب الى أجل مسمى من مسببات العجز والفشل والإحباط،لشعورى بأننى مواطن ضعيف يعيش فى وطن أضعف،فى قلب عالم تسوده القوة.

استكانت نفسى لهذا المكان وهدأت خواطرى بفتح صفحة جديدة من حياتى،تخلصت فيها نهائيا من كينونتى السابقة،وتعمق شكرى لله الذى منحنى راحة البال بعد طول انتظار.

فى شبابى لم أرتكب إلا القليل من الخطايا،ولأنى كنت أخاف الحرام فقد كان يعقب كل خطيئة أقترفها شعور ثقيل بالذنب.دائما تقترن اللذة بالألم..لكنى مازلت حتى يومنا هذا أحب مجالسة الندمان وأنتشى بأحاديثهم الشيقة عن شئون الحياة والموت ، ولكن من منظور كحولى.لا أحب أن أنقطع عن مجلسهم ولكن دون أن أشرب غير فنجان أو فنجانين من القهوة وأدخن السجائر. فى البداية اتهمونى بالتخلف وثقل الظل وعدم القدرة على التجانس مع عالمهم والانصهار فيه،لكنهم مع الوقت اعتادوا ذلك وظلت محبتى لهم شيئا جوهريا فى حياتى.

ليلة الافتتاح سخروا منى بمحبة وهم يشربون:

-يبدو أن أم فؤاد أرادت أن تكافأه بهذا المقهى عرفانا لتوضيحه لها كيفية انشطار الذرة

-لابد أنها فهمت النظرية واستوعبتها تماما

-وكيف عرفت ذلك؟

-لأنها نجحت فى أن تشطر حياته بالفعل

وقلت لهم:

-لكنى سعيد بهذا الانشطار..إنه الحياة المتجددة وقد تولدت عنه.

******

بكينامن شدة الضحك ليلة رأس السنة ولكننا لم نمت،بل عقدنا جلسة عمل جادة للحديث عن المستقبل.

ورث صديقى عن أبيه ثروة كبيرة.لماذا لم يفعل أبى مثلما فعل أبوه واختار الموت فقرا؟..تساؤل غير برىء أعرف ألا لزوم له.يفكر محيى فى استغلال جزء من ثروته فى عمل يكرس له حياته بعد أن قرر الاستقالة من القوات المسلحة،إذ تبين له أن العمل بها لايحقق ذاته كما يريد.

منذ زمالتنا فى المدرسة الابتدائية وحتى تخرجنا فى الجامعة،يجمع بيننا تفـاهم صـامت ومحبـة راسخة.يعتقد محيى–وكل إنسان حر فيمايعتقد–أننى "حمار شغل"،لهذا اختارنى منفـذا لمـشروعه مشاركا بجهدى خاصة وأنه غير مختص بالكيمياء،فضلا عن علمه باحتياجى الملح الى المال حـتى أحفظ ماء وجهى أمام صهرى الطيب الذى كان خجلا منى يوم طلبت منه يد ابنته. ربما كان محيى محقا فى اعتقاده،لكنه كان يجهل أن هناك شرخا غائرا قد حدث فى صلب إرادتى منذ سمعت الخبر الأول بصوت المذيع الأمريكى،ومن بعده الخبر الثانى باستشهاد زوج شقيقتى نبيلة.ومـن سـوء الأمر أننى لم أكن أتصور فى ذلك الوقت أن هذا الشرخ سوف يتسع بمرور الـسنوات اتـساعا ينذر بالخطر. سألته ببراءة:

–قل لى بامانة..ماهى أهدافك من هذا المشروع؟

قال بوقار أكبر من عمره:

–أن يسد حاجة الاسكندرية على الأقل،ويحقق لنا ربحا لابأس به،ويفتح أبواب رزق للآخرين.

كان لابد أن أصدقه حتى أستطيع أن أعيش على أى أمـل فى أى شـىء قـد يجـىء وقـد لايجىء.لكن محيى لم يوفق فى الاستقالة من الجيش رغم سعيه الدؤوب لذلك بشتى السبل.لـذلك قرر أن يجمع بين عمله والمشروع.استأجر مكانا منعزلا فى منطقة شبه زراعية كى نجرى به تجاربنا التمهيدية لإنتاج مادة كيمائية ناقصة فى السوق.أعجبنى المكان لهدوئه وشاعريته إذ امتزجـت فى طبيعته الخضرة بالصحراء بالماء الذى ينساب أمامه فى جدول صغير.شحنت عزيمتى واسـتنفرت إرادتى للعمل بحماس فربما نجحت فى أن أضرب عصفورين بحجر واحد..أتوجه مـن عملـى الى أرض المشروع رأسا.غدائى الخفيف أتناوله أثناء قيـامى بالتجـارب لاختيـار أوفـر الحلـول الاقتصادية.بعد ذلك أتوجه الى معملى بالكلية حيث تجارب الدراسات العليا.فى الساعات الأولى من الفجر أنام كالقتيل..شىء رائع ، لو دام وأثمر لالتأم شرخى فالفراغ يقتل الرجـل والإنجـاز يطيل عمره.

أكدت كل المحاولات فشل المشروع ولاجدواه.خاب أمل محيى أما أملى فضاع.توترت أعصابى وقلت ساخطا:

–اللعنة على حظى التعس

وقال محيى:

–لامبرر لليأس..فلنعمل على مادة أخرى

استعدت صبرى ومثابرتى وبدأت جولات تجريبية جديدة.لكن يبدو أن شيطانا عنيدا كان يقف لى فى كل خطوة أخطوها مع محيى حتى تبدد أملى فى تحقيق أى نجاح معه.انتهت جهودى الى فـشل

محقق. تشاءمت من مجيى وساورتنى ظنون ووساوس جعلتنى أبتعد عنه.هناك أشياء غريبة تحدث فى هذه الدنيا لا أفهم لها سببا.انها تتسم بالنذالة أحيانا.فى البداية تذكرت قول"التوحيدى":ما أشبه الدنيا وخداعها إلا بقحبة حسناء تظل تناديك وتناجيك حتى إذا أقبلت عليها صاحت بالوالى وصرخت بالناس ففضحتك وأورثتك الندامة وعض الأنامل من الغيظ."..ولكنى قلت لنفسى مواسيا:

–وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم

ثم قلت ربما كان النحس قابعا فى المكان الجميل،فنقلت أدواتى الى بدروم البيت وبدأت العمل بتجهيز مادة كيمائية تطلى بها قيعان المراكب البحرية. حدث انفجار مروع أعقبه اشتعال حريق هدد البيت بأكمله.تعالت صرخات النسوة من الجيران معلنة فضيحتى وفشلى.أخذ السكان يقذفون على مصدر الحريق بصفائح الماء والسجاد القديم لإطفاء النار.التصقت ملابسى بجسدى من شدة العرق.احترقت كفى اليمنى أثناء محاولتى إطفاء موقد الكيروسين الكبير.جاءنى خاطر آمر ملح تحت"دوش"الحمام البارد.لا تعمل منذ الآن مع هذا الرجل..وبينما استقر عزمى بالفعل على ذلك،كنت أكتم ضحكات مجنونة تنبعث من أعماقى والماء يتساقط بغزارة على جسدى الملتهب.لم أعرف إن كانت تلك الضحكات فرحة بنجاتى أم سخرية من خيبتى أم انعكاسا جوهريا لشعورى بعبثية أى شيء.ما أن خرجت من الحمام واقتربت من باب غرفتى حتى قرأت إعلانا كبيرا مثبتا بمسمار فى منتصف الباب:"لاتنس إخراج البوتقة من الفرن الكهربائى"!!

ألبسنى عفريت من الجن ملابسى فى طرفة عين.هرولت الى الخارج متخذا طريقى الى الكلية..ابراهيم النحراوى لن يعود فالميت لايجى مرة أخرى إلا يوم القيامة.طيب..هل يسترد الجيش سيناء ويثأر للعشرين ألف شهيد؟..الأولى أن تفكر فيما يمكن أن يحدث لو اشتعل ماس كهربائى بالفرن فيشتعل المعمل بأكمله وتندلع النيران بالكلية العريقة،أو فيما كان يمكن أن يحدث لو أن الحريق الذى شب فى المترل لم يطفأ قبل امتداده وتوغله.لماذا تحاول ابتلاع الدنيا بأكملها فى بطنك دفعة واحدة؟..تجرى تجربتين فى وقت واحد وفى مكانين متباعدين.الأولى بالبيت للحصول على المال والثانية بالكلية للحصول على الماجستير.قد لايكفى العمر للحصول على المال والعلم معا،أو على أى شيء بالمرة..تدخل التعديلات على الآلات القديمة بالشركة لتحصل على مكافأة أو ترقية استثنائية.تقحم نفسك فى الأنشطة النقابية والعمالية وكأنك تحمل مسئولية الشعب كله على كاهلك.. فى المساء تقارن على صفحات الكتب بين الفلسفة المثالية والفلسفة المادية ، أو تسبح فى محيط الفن والجمال.تتغزل فى عينى حبيبتك الخضراوين وفى نظراتها التى تصهر الحزن فى الفرح وتذيب الموت فى الحياة.تغذى توليفتك النفسية والوجدانية بكل شتات متناثر من

المتناقضات.عاشق أنت لكل برزخ يصل ويفصل بين نقيضين.انه ليس بوسط ذهبى بقدر ما هـــو عذاب وجدانى مستحب.لو خرجت منه تموت..أما من برزخ بين الوجود والعـــدم أذوب فيـــه انتظارا للمشيئة الإلهية بكن فيكون؟!..

ربما كان حبى لسميرة هو حافزى الجوهرى الى اقتحام أسوار الحياة والغوص فى أعماقها طولا وعرضا، محاولا كشف غموضها والنفاذ الى مجاهيل أسرارها الساحرة رغم ما يخالجنى دائما مـــن شعور بأنها عبث فى عبث.

ذات ليلة عدت الى البيت وصورة الفراش تداعب خيالى لشدة اشتياقى واحتياجى الى النوم.لو صادفت مارلين مونرو فى طريقى لما أوليتها ما تستحقه من اهتمام رجال الأرض قاطبة.وجـــدت محيى فى انتظارى.جاء ينبهنى أن على مواليد١٩٤٥ التقدم الآن لتأديـــة الخدمـــة العـــسكرية.ألا يأتـــينى من هذا الصديق خير أبدا؟!..لاجدوى من وفرة الحظ أو ندرته.جاء المعوق من خـــارجى فلا أنا بقادر على مقاومته ولا أنا براغب من الأصل فى المقاومة،وما عليك ياسميره الا مواصـــلة الانتظار..شرس هذا الذى نسميه الحب،باهظ الأعباء،ولافرق اليوم بين إرادة حديدية وأخـــرى صفيحية،فيبدو أنه مكتوب على أن أعيش ماشيا جنب الحائط مقيدا اليه،راضيا قانعا مـــستكينا لاأستطيع حتى المطالبة بحقوقى المشروعة فى العمل.لهذا يتندر خبثـــاء الـــشركة بطـــاعتى وأدبى وانضباطى ويندهشون لسلبيتى فى السعى للحصول على مقابل لما أقدمه للشركة من جهد غـــير عادى أبذله فى صمت القديسين.هؤلاء المساكين لايعرفون أننى أتندر بنفسى أكثر منهم .حين يز ع المدير الجديد فى وجهى أمام عمالى لسبب تافه لاشأن لى به،ويغلظ لى فى القول فأحتمله ولا أدافع عن نفسى –وأنا صاحب حق–لأوقفه عند حده حتى لايتمادى فى طغيانه نتيجة لصمتى وسكوتى على الظلم.يعتقدون أن هذا ضعفا منى ،والحق أنه ليس كذلك،وإنما هو ناموس اخترته لنفسى أن أكون صفريا قدر المستطاع خاصة فى علاقتى بالرؤساء.لاأقترب منهم ولا أتـــيح لهـــم الفرصـــة ليقتربوا منى.لاأنتظر منهم كلمة شكر أو تقدير على ما أبذله من جهد، لا لوجه الله فحسب، وإنما إرضاء لذاتى بالدرجة الأولى،ولا بأس إن عاد على بخير،ولو أن هذا لم يحدث إلا نادرا.من المؤكد أنه لو كان لوجه الله فقط لاختلف الأمر كثيرا، ولكنى أقول الحقيقة.

كان المدير السابق يعاملنى معاملة طيبة من باب الصدقة فقط،مكتفيـــا بـــذلك تفـــضلا منـــه وكرما.كنت أتقزز من هذه المعاملة الطيبة ولكن فى صمت.لم يعطنى حقـــى فى الترقيـــة وقـــت استحقاقها.كان واثقا أننى لن أشكو اليه راجيا أو ملتمسا،فتجرأ بترقية قريب له على الدرجة التى أستحقها عن جدارة بحكم لوائح الشركة.تعجب الزملاء من خيبتى وصمتى.البعض نـــصحنى أن أتقدم اليه بشكوى–أى أشكوه اليه–والبعض نصحنى بأن أشكوه لرئيسه فى المؤسسة الأم الـــتى

تتبعها شركتنا.قلت لهم انى لن أفعل هذا ولاذاك،مكتفيـا بقـولى:"منـه لله" حـتى أشـترى سكوهم،فهذه العبارة كفيلة بذلك،كما أن فتاويهم–حسب اعتقادى–لم تكن فى كل الأحـوال صادرة عن محبة لشخـصى..لكـن أحـدا منـهم لم يعلـم حقيقـة ماحـدث حـتى الآن. راقبت مكتبه جيدا بمعاونة أحد كارهيه من السعاة الذين يعملون معه.انتهز الساعى فرصة ذهاب سكرتيره لصلاة الظهر وأعطانى الإشارة.اقتحمت عليه خلوته دون أن يرانى أحد من الموظفين.فى لحظة خاطفة كنت واقفا أمام الرجل الذى يرتعد الجميع خوفا من بطشه وجبروته وسلاطة لسانه ورغبته السادية فى الإيذاء.فى دهشة قوية سألنى باستعلاء:

–من سمح لك بالدخول دون إذن منى؟

–أنا الذى سمحت لنفسى ياظالم يابن الكلب!

هب واقفا وهو يضغط جرسا على مكتبه بيد،ويرفع سماعة التليفون باليد الأخرى، وقد اصـفر وجهه وازرق واحمر..صاح فى ذعر:

–أنت مجنون..سأفصلك فورا

–يمكنك هذا لو كان أبوك يملك المصنع،لكنه مصنع الحكومة ياروح امك

هجمت عليه فجأة قبل أن يستجيب أحد لجرسه أو أن يجد فرصة للاستنجاد بـالتليفون.أطـل الفزع من عينيه كما لو كان عزرائيل سينقض عليه ليقبض روحه.صرخ مناديا السكرتير–الذى يبدو أنه كان مستغرقا فى صلاته أكثر من أى يوم–وأنا قابض على رقبته متعمدا شد ربطة عنقـه بقوة حتى كادت أنفاسه أن تزهق اختناقا.قلت له:

–اعمل حسابك..إما حقى وإما روحك

ثم تركته مذهولا منهارا وقد تهالك على مكتبه،وغادرت الغرفة كما دخلتها فى صـمت دون أن يشعرىي أحد، وقد اجتمعت عندى الجرأة بالحذر–على تناقضهما البين– فى توافق عجيب.

عدت الى مكتبى وأنا لاأصدق أن ماحدث منى قد حدث.لقد كان شيئا منافيا لطباعى تماما لأنى من عشاق السلام .كنت أنتظر رنين جرس التليفون بين لحظة وأخرى لاستدعائى الى النيابـة أو على الأقل للشئون القانونية للشركة.انقضى اليوم على خير ولم يحدث شىء.مرت أيـام أخـرى وكأنها دهر ولكنى انتزعت حقى فى الترقية.

ولما تحرش بى المدير الجديد يوما حين عارضت رأيه فى حل مشكلة فنية،تذكرت سلفه الراحـل واستعذت بالله أن يجنبنى شر نفسى،وأن يجنبه شرى الذى تبين أنه يحضرنى فجأة وعلى غير رغبة منى أو استئذان أو توقع، خاصة وأننى أكرهه بشدة لأنه من ذلك الصنف من الناس الذين ينامون ويقومون وهم لايفكرون فى شىء من الحياة إلا العمل والنجاح والعلو فى الأرض ، ولو خـصما

من أى قيمة انسانية أخرى بما فيها سعادة أبنائهم وذويهم.حب المنافسة يحيلهم الى حشرات سامة.هم قوم بلا قلوب أو مشاعر، ومهما حققوا للإنسانية من تقدم فى مجالاتهم العملية ، فإنهم ملفوظون من الحياة لأنهم لايعطون لها إلا عن حب لأنفسهم دونه الردى.هذا الرجل تستفزنى معالم وجهه العصبية وتوتره الدائم وتعامله مع العمال والموظفين كأدوات مسخرة لتحقيق أهدافه المتصاعدة فحسب، دونما اعتبار لكونهم كيانات انسانية ذات لحم ودم وأعصاب..مثل هذا الرجل لايعرف كيف يأكل أو يلبس ،ولا كيف يشبع زوجته أو يربى أولاده.لاتعنيه الموسيقا فى شىء،ولايرى فى حديقة ورد مايشد انتباهه،ولايهتز وجدانه لغروب الشمس أو لابتسامة طفل أو لانعكاس ضوء القمر على صفحة نهر أو بحر أو بحيرة، وإنى لأحمد الله كثيرا أن مرت أيامى معه على خير..بل ومن الغريب أننى لم أحصل على حقوق وامتيازات طوال عهدى بالشركة مثلما حصلت عليه فى عهد ذلك الرجل المقيت،ومن الأغرب أننى لاأستطيع أن أجزم الآن كيف كان حالى سيكون لو أننى بلغت سنه ومركزه.

من اليوم ينبغى أن أستعد لمواجهة مدير من نوع جديد، لأنه سيكون ضابطا أو صف ضابط،وربما يكون شاويشا بثلاث شرائط أو عريفا بشريطين،أو حتى جنديا عاديا ولكنه سبقنى الى الجيش بيوم أو يومين.إننى أشعر بشىء من الحسد تجاه أى فنان أو أديب ،لأنه لايرأسه مدير ولايملك أحد أو قانون أن يحيله الى التقاعد حتى لو بلغ من العمر أرذله،فهو الذى يرأس نفسه ،وهو الوحيد الذى يملك إصدار قرار بإحالة نفسه الى التقاعد،حين يدرك عن يقين أن معينه قد نضب تماما.

******

من الطبيعى أن أزهد فى الطعام حين أشبع،وفى المال حين أكتفى،وفى الجنس حين أشيخ ..وربما أزهد يوما فى المعرفة حين أعجز عن ملاحقتها والتواصل المتجدد معها بحكم الزمن، لكن شلة البار لاتعرف الزهد الا من باب التندر والسخرية.يقول عبد الله السعيد رجل الأعمال المغامر:

-لو أراد الله لنا الزهد فى الدنيا لما خلقها لنا

عاش المهندس مراد زاهدا فى الكثير رغم أنفه..أما المعلم مراد فكيف له أن يزهد فى دنيا تبتسم له وترق وتلين؟..

فاديه السبع ممثلة نصف مشهورة.هى فاكهة المجلس.يطرى وجودها من جفاف قعدة الرجال،خاصة حين تلعب الخمر برؤوسهم.لست أعرف الكثير عن حياتها..ربما كانت من أنصاف الحرائر اللاتى لاتتناقض فضيلتهن مع ممارسة القليل من الرذيلة، وربما كانت عابدة زاهدة ارتدت الى الدنيا.

مجموعة من السكارى والمساطيل يتحدثون في الزهد بإخلاص مدهش يجد فى نفسى قبولا شديدا..فليس يعقل أن يهبنا الله الحياة لنلفظها وننكرها ونزهد فيها طمعا فى الآخرة.إن من يرفض نعمة الله يغضب الله عليه..لا شك عندى فى ذلك.الله أعطانا الدنيا لنغترف من نعيمها وحذرنا من حساب الآخرة،فماذا يضير أن نسعد بالأولى ونحذر من الثانية؟.. تقول فاديه:

–أمنيتى أن أزهد فى الناس جميعا،فقد تبين لى أن مانلته منهم من الأذى يفوق بكثير ما نلته من الخير.

ويقول رفعت عبد الفتاح مدير مصلحة الآثار المتقاعد:

–ليتنى أزهد فى النساء مثلما زهدت فى العمل وتخلصت من رذالته

جاءه الرد على الفور:

–قصر ذيل يا ازعر

أشعلت سيجارة وقد التزمت الصمت فسألتنى فادية:

–وأنت يابشمهندس..لم لاتتكلم؟

–بصراحة:أنا لاأريد ولا أستطيع أن أزهد فى الدنيا ماحييت لأنى أحبها بكل عهرها ورهبانيتها..

طالت السهرة حتى الثانية صباحا،حين أمسك رفعت بكأسه وراح يتأملها بشغف وهو يقول:

رقّ الزجاج وراقت الخمر وتشاكلا فاختلط الأمر

فكأنما خمر ولا كأس وكأنما كأس ولا خمر

قالت فاديه:

–أقطع ذراعى لو كان يفهم مايقول

أطفأ رفعت سيجارته فى الكأس معتقدا أنها المنفضة المجاورة..قال وهو يرفع الكأس الى فمه:

–المسألة لاتحتاج مفهومية.. أصل الحكاية كلها سايحه فى بعضها

–ألم أقل لكم؟

قال لها رفعت متحديا وهو يترنح مستعدا للانصراف:

–منك نستفيد يافنانه

–هذا شعر صوفى يا أستاذ يتكلم عن التوحد بين المحب والمحبوب وفناء الأول فى الثانى بعد امتلائه به

انفجر رفعت ضاحكا وقد انفلت عياره تماما وقال لها:

–علىّ النعمة انت مرة مجنونة

قامت فاديه وعلى فمها ابتسامة من لم تغضب وقالت لى وهى واقفة فى ثبات رغم أنها شربت أضعاف ماشرب رفعت :

-تعال معى أوصلك بعربتى

الجميع يعرفون أننى لا أمتلك عربة.عندما كنت أريدها لم يكن معى ثمنها.عندما أصبحت قادرا على شرائها لم أعد أريدها، لازهدا وإنما جبنا ورغبة فى التحرر من المسئولية..كنت مشروخا من رأسى الى قدمى فى كل شيء، حتى فى اتخاذ قرار بشراء عربة..فى الطريق قلت لها صادقا:

- لقد تأثرت كثيرا عندما تحدثت عن الأذى الذى لحق بك من الناس

تجاهلت تعليقى وقالت:

- مارأيك لو أخذنا جولة بالعربة على طول الكورنيش؟..الجو بديع
- فكرة جميلة

فى الطريق قالت لى:

- ان كمّ الأذى الذى لحق بى يتناسب طرديا مع رغبتى فى أن أحيا كما أريد وأفعل ما أحب، دون أن أضر أحدا

وكأنها ضغطت بقوة على بؤرة صديدية فى نفسى.طول عمرى أكره الصناعة ورغم ذلك عشته كله أرتزق منها.ما أتعس أن يعمل الإنسان فيما لايحب.ضجيج الماكينات ظل يقتلنى عاما وراء عام.الأبخرة الساخنة والغازات الكيمائية النفاذة تخنقنى فى صمت.أرى فى تلك القطع الحديدية الضخمة مردة وشياطين تفتك بأعصابى كل يوم..لكنى تعايشت مع مالم أحبه حتى اللحظة الأخيرة بنجاح نسبى وأنا مشروخ..أفلا يحق لى-وقد التأم شرخى أو كاد- أن أتعايش بعد ذلك مع ما أحب بنجاح مطلق؟!..

قالت انها طلقت من زوجها الأول بسبب حبها للتمثيل ،ثم من زوجها الثانى بسبب حبها للخمر.

-لكن لماذا تشربين؟

-هل تريد الإجابة الحقيقية؟

-طبعا

-لاأعرف

-قد أصدقك فيما تقولين،لكن كيف ومتى لجأت الى الخمر؟

-أنا لم ألجا اليها..زوجى الأول هو الذى علمنى..كانت متعته فى الدنيا أن يضاجعنى وأنا سكرانة

-وهــو؟؟

-لم يكن يسكر ولو شرب المحيط

رأيت شرخها بعيني..يبدو أنه عصى على الالتئام..

******

تركني محيي لوحدتي، لماذا لاترقص الدنيا وتنطلق الضحكات بين أرجاء الطرقــات وجــدران المساكن وعلى شرفاها ، وما أشد مرارة طعم الحياة فى غياب أمسيات الحب الدافئة....

زقزقة العصافير تملأ سماء حديقة أنطونيادس بفرحة الحياة. نجلس معا على مقعد خشبى أخضر ، صنع من جذوع الأشجار. نأكل ساندوتشات الجبن الرومى والخرشوف المملح.أناصاحب بــراءة تمليح الخرشوف،كنا فى خصام جميل،نستمتع بعذوبته.قدمت لى الورقة التى كانت تغلف مأكولاتنا وقالت بعبوس طفل مشاكس:

-مراد..أكتب لى الآن أى كلام يخطر ببالك

تركتنى فى جنة الخلد على الأرض وراحت عنى الى الأشجار والورود والعصافير وجداول الماء، ثم أتانى صوها الرقيق من البعد:

-هاه؟..خلاص؟

وأنا أعطيها الورقة شددت بقبضتى على يدها وقلت لها:

– حذار أن تقرأى كلماتى قبل أن تكتبى لى أنت الأخرى

أشرق وجهها الندى بنظرة تساؤل بريئة أعادتنى الى طفولتها كما يراها خيالى، ثم أصدرت الطفلة أمرها كما لو كانت تتدلل على أبيها:

– طيب..رح لبعيد

ابتعدت عنها قليلا بينما غاصت روحى فى سر الحياة.قالت وقد احمرت وجنتاها الرقيقتان:

-إبعد..إبعد أكثر

عدت اليها بعد قليل.كانت منهمكة فى قراءة كلماتى بجدية شديدة وقد استبد بوجهها انفعــال عميق كشف عن شدة حساسيتها ورقة وجداها. خطفت منها الورقة لاعتقادى بأها نقضت مــا اتفقنا عليه :أن نقرأ معا وفى نفس الوقت ما كتبه كل منا للآخر.نكست رأسها وراحت تعبث فى النجيل الأخضر الداكن بأناملها الوردية المرهفة.قلبت الورقة وقرأت ما كتبت عليها فانبعثــت تغاريد الحب فى رياض قلبى و رقص طربا.

******

فى تلك الأيام، ووسط ذلك الخضم العاتى من العواطف الساخنة والمشاعر البريئة، ونبضات القلب الدافقة بالنشوة،وطيران الجسد الى السماوات العلا، لم يخطر ببالى لحظة واحدة أننى سوف أنشغل يوما بغير سميرة.كانت عندى هى المبدأ والمنتهى..ولكن كيف يطيب العيش لصاحب وجدان شقى مثلى لايبقى على حال؟..

فى بداية نهاية رحلة العمر غرقت فى غصون.بدون مقدمات وجدت نفسى فى موقف وحال وزمان ومكان بغير حيلة من جانبى أو سعى.حياة كلها أغيار فى أغيار.لاثابت فيها إلا التغير.كل شيء فيها يتحول ويتبدل أو يزول،متحديا غطرسة الإنسان وكبره وتعاظمه.رغم ذلك فنظامنا السياسى يكاد يكون هو الاستثناء الوحيد الذى لم يخضع لهذه القاعدة الدنيوية حتى الآن.تجمده وتحجره يقودان مصر الى الموت، وأنا أتفرج عليها كما يتفرج الآخرون..هذا عن بلدى التى لاأستطيع أن أفعل لها شيئا يساهم فى الحيلولة دون موتها..أما عن نفسى فقد عزمت على ألا أتركها هى الأخرى ساكنة حتى أموت وأنا اتفرج عليها، بل أبحث لها عن خلاص ولقد وجدته.

تتحدث عن الوطن يارجل وتبحث عن خلاصك فى امرأة ومقهى !!..نعم هى حقيقة، فلو وجد كل رجل خلاصه لخلص الوطن كله من الجمود الذى يقتله كل يوم.

رأيت أنه من الأفضل أن أحترم نفسى بألا أضعها فى مقارنة مع الوطن ، رغم أن كلا منا بحاجة الى معجزة لتنقذه.أنا وجدت معجزتى فى غصون.معجزة تحدى الزمن..لو نجح الجزء نجح الكل، وليس بالضرورة أن تكون خاتمة تحدى الزمن خاتمة تراجيدية. ثم رأيت أن أحترم الوطن الذى أحبه بألا أضعه فى مقارنة معى ، فعلى المستوى النسبى أنا زائل لكنه باق..أقول هذا حتى أنفى عن نفسى لكل من يقرأ مذكراتى القديمة والجديدة صفة انتفاخ الذات والتمركز حولها، فأنا أومن بأن الذئب لايأكل الا الغنم القاصية.

******

لم يعد هناك وقت لاجترار أيام السعادة البكر. حتى لو كنت قد توصلت الى نتائج مبشرة مع محيى فما جدواها الآن؟..هناك غول صهيونى يهدد بلادك المقهورة بالاحتلال. رفاقك مزقت أشلاؤهم فى الصحراء وجاست الكلاب والذئاب فى لحومهم.الذين عادوا إنما بأجسامهم فحسب..بقايا أرواح مهترئة.قال لى ابراهيم النحراوى منذ أسابيع قليلة:

–لن أعود اليكم قبل إزالة اسرائيل من الوجود،فلن تحسم القضية إلا بهذا الحل

بعد قوله بعدة أعوام تساءل مناحم بيجين ساخرا:

–ما معنى كلمة فلسطين؟!..

قبل ذلك بعدة أعوام قال حكام العرب:

-لاصلح ولا مفاوضات ولا اعتراف بإسرائيل

أضافوا بقرارهم الى معجمنا العربى الثورى الضخم اصطلاحا جديدا هو"اللاءات الثلاث"..أما أنا فظللت فى برزخى المعتاد أتأرجح كالبندول عن يمين الصفر ويساره،وحين أستقر فأنا صفرى يقبع فى جحر واحد من بين خمسين مليون جحرا،لايشكل سكانهم شعبا واحدا،وإنما يشكلون خمسين مليون شعبا كل يعيش فى عالمه الجحرى الخاص به.لم يفكر أحد فى دق طريق يصل ما بين الجحور،كما لم يحاول أحد أن يجمع بين أصحاب الجحور المتقوقعين فى مصالحهم ليتفاهموا جميعا ويلتفوا حول هدف مشترك..لهذا سوف تبقى اللاءات الثلاث قولا بلا فعل، وهذا هو أغلب ظنى.

****

أكثر من سنوات ثلاث مضت على مبادرة تسول السلام العربية فى مارس٢٠٠٢، والتى هى فى مجملها"النعم الثلاث":نعم للصلح.نعم للاعتراف.نعم للمفاوضات.

لم يلتفت أحد فى العالم كله الى المبادرة وأولهم اسرائيل.عندما قال العرب"لا" لم يعرهم أحد اهتماما.عندما قالوا"نعم"لم يعبأ بهم أحد.غارقون هم فى ثقافة لفظ ، بينما الدنيا بأسرها طائرة بسرعة الصاروخ فى ثقافة أداء وفعل وإنجاز..وعندما تواجه الأفعال بالكلمات يحق للمرء أن يخاف.

على غير المعتاد سيطر الهدوء على مجموعة الأدباء وهو يستقبلون يوما من أيام الأسابيع الأولى من عام٢٠٠٥.

عبد القادر حسن وحلمى سليم ونوفل حسنى وتحيه بسيونى هم عمد المجلس الأدبى الذى ينعقد فى مقهاى مساء كل أربعاء بعد خروجهم من ندوة قصر ثقافة سيدى جابر الأسبوعية.يقول عبد القادر:

-لقد تحولت مصر بالتدريج من طرف الى صديق الى وسيط الى داعم لإسرائيل

عبد القادر ناصرى حتى الثمالة،وهو رئيس مكتب فرعى بالاسكندرية لإحدى جرائد المعارضة.

يرد نوفل وهو على غير يقين مما يقول:

- احمدوا ربنا..مبارك جنبكم أهوال الحرب لمدة ربع قرن

ونوفل حسنى المحامى متلون كالحرباء.لامانع لديه أن يمتدح الحزب الوطنى ورئيسه مبارك فى مجلس، ثم يذهب الى النقيض فى مجلس آخر.

يرد حلمى سليم قائلا:

- قلنا مصر أولا ومصر ثانيا ومصر أخيرا،حتى أصبحت مصر أخيرا فقط!

وبصوت كحفيف الأفعى يتساءل نوفل:

–لماذا تجلدون وطنكم وحده؟..لماذا لاتتكلمون مثلا عن الملك عبد الله المذعور–ياولداه– من الخطر النووى الإيرانى دون أن يذكر الخطر الاسرائيلى ولو بالتلميح؟..

قالت تحية بحرقة:

–حكومتنا ياجماعة تحولت الى سمسار تطبيع من خلال السنترال التليفونى للسيد الرئيس!

لو استمعت الى مثل هذا الحديث الممل غير المثمر منذ عام واحد لنفرت منه على الفور لأنه لايأتى بجديد ولا يطرح أفكارا.مجرد تنفيس عن مكبوتات فى النفس يمارسه مجموعة من الحالمين..لكنى أستمع اليهم اليوم باهتمام،كثيرا ما يدفعنى الى مشاركتهم الحوار..كسر عبد القادر حدة الحوار قائلا:

– سأسافر الى القاهرة غدا لزيارة معرض الكتاب..من منكم يسافر معى؟

التزم الجميع الصمت.

قليلا ما قلت "لا" فى حياتى الطويلة الماضية عديمة العمق.كل مافعلته كان انصياعا إراديا ولاإراديا لكلمة"نعم".كل الجالسين على هذا المقهى عاشوا طيلة عمرهم فى ذل"نعم"،ولم يعرفوا عزة"لا"..اعتادوها واستمرءوها فى السر،وسبوها وسخروا منها فى العلن..ولاخير فى قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود.

فى صدارة المقهى نظرت الى صورة حسنى مبارك المعلقة.اسودّ اطارها وغام زجاجها بفعل الزمن ودخان المعسل وأبخرة الشاى والقهوة وأنفاس المستسلمين.معالم وجهه كادت تختفى تماما. فى البداية نزعتها وتركت مكانها خاليا.بعد أيام استمعت الى مأساة أحد ضحايا الخصخصة وقدأصبح عاطلا وهو فى السادسة والأربعين،يعيش مع أسرته على معاش ضئيل بعد أن أنفق مكافأة المعاش المبكر على زواج ابنته الكبرى.ترحمت على أيام عبد الناصر وفكرت أن أستبدل صورة له بالصورة المنزوعة ، ولكنى سهيت زمنا بقيت فيه صدارة المقهى عارية..فيما بعد علقت مكانها صورة السيد حسن نصر الله الفارس العربى الأصيل،وقد لاقت فعلتى الاستحسان من الجميع.لم أجد فى ذلك غرابة،فأغلب ظنى أن الناس فى بلادى متحرقون لظهور زعيم من هذا الطراز النبيل من الرجال.

******

ذهابك لتأدية الخدمة العسكرية لايعفيك من التزامك المصيرى.بحاجة أنت الى عزم لايهتز بهز النهود والمؤخرات أمام حضرات الضباط فى أمسية ٤يونيو،حتى تستطيع أن تفعل شيئا.أصابت النكسة حبك فى مقتل فأصبح لزاما عليك أن تترك حديقة أنطونيادس وتذهب الى سيناء.انتهت

القصة فى ساعات ست واعتقل صديقى فاروق النجار ووصلنى خطاب من صديق آخر بالجبهة يقول بحماس:

– سندمرهم!!

وقيل لى ان أم فاروق أطلقت "زغرودة" طويلة ملحنة ذات جرس خاص تعبيرا عن شدة فرحها عندما حضر مندوب التجنيد لاستدعاء ابنها المعتقل كى يساهم فى مشروع الوصول الى تل أبيب،فلم يجده بالطبع. دعت أمه من قلبها بطول العمر للذين اعتقلوه،وكأنها أدركت بالفطرة أن ابنها قد أفلت بمعجزة من مذبحة..وارتفع صوت المذيع وهو يتحدث ببلاغة وفصاحة عن انسحاب أكبر قوة ضاربة فى الشرق الأوسط الى خط الدفاع الثانى وقال مهندس ذو ساق خشبية بعد عودته من شركة سينا للمناجم "إن مدير الشركة كان لصا كبيرا وكان يعتقد بشدة أن الانسحاب خطة موضوعة بإحكام حتى رأينا اليهود أمام أعيننا فهربنا فى مركب تموين المدينة وقد تخلينا عن أمتعتنا ومعها اللص وبعض من أعوانه المخلصين "..وقال لهم المهندس انها ليست فى الغالب خطة والله أعلم أو كما قيل وقال ومجمل القول انها سميت بالنكسة حين انفجرت فى أفق لغتنا الجميلة عبارات ضخمة كما الديناصورات لم تكن قد استخدمت من قبل فى الأزمنة الأثيرية الغابرة فقيل إنه الرعيل الثورى وانها ثورية الصبر أو صبرية الثور فقالوا الصمود وقيل الردع ونطقها بعض العامة بالرضع واشتبك عسكرى مع شبان يرقصون على الشاطىء باستخدام الطبل والعصى غير مبالين بشىء لكن كثيرا من مومسات الاسكندرية توقفن عن ممارسة نشاطهن الليلى لفترة طويلة فيما يشبه الاحتجاج على ماحدث وكان طريق الكورنيش غارقا فى الظلام حين قال جزار عجوز انه يشم رائحة دم فى البلد أما أنا فقد أصبحت عاجزا عن تناول الطعام دون تقيؤ،أو على الأقل دون رغبة فى التقيؤ،ولما ركب ضابط الترام بزيه العسكرى أطلق عليه أحد الركاب نكتة مهينة عن الانسحاب فضحكوا جميعا ولكنى لم أضحك وإنما ذهبت فى المساء الى نادى الشركة بعد انصراف معظم رواده لأستمع الى موسيقا صديقى الفنان أحمد قمر وهو يعزف بهدوء قاتل على آلة القانون ذات المليون وتر فى ركن قصى بحديقة النادى وبيده سيجارة ملفوفة بالحشيش ينيمها بمهارة وحذق بين خنصره وبنصره كى لاتعوقه عن العزف حتى لتكاد تحرق نهايتها اصبعيه دون أن يتألم وبعد ذلك ذهبت الى "شاليه العائلات" فى لوران على الكورنيش وكانت أمواج البحر ساكنة كالموت حين عبر الممر جارنا الخواجه ميناس مصطحبا امرأة فى ضعف حجمه الى أحد الشاليهات ثم خرج بعد دخولهما بثلث ساعة لم تزد فأعطاها أجرها على الباب وراح يعدل من ملابسه ويمسح أنفه فى كم سترته وهو ينظر الى بابتسامة تتمم معالم البلاهة على وجهه المجدور وصرخ الناس فى الشوارع بالروح والدم وبالدم والروح وأنكس رأسى أمام

خطيبتى كطفل يشعر بالذنب أمام أمه فتقدم لى كوبا من الشاى ولاتنطق ولا انظر اليها وتـــضع شقيقتى مولودها الحزين اليتيم فتتجمد المشاعر لحظة امتزاج الموت بالحياة ويسود الخوف ويعـــم الكدر وأبقى غارقا فى صفريتى البرزخية وقد أصبحت فلسفتى المثلى للتعـــايش فى ظـــل المكـــان والزمان بظروفهما الراهنة..إن اتخاذ موقف محدد عن يمين الصفر أو عن يساره قد أصبح مستحيلا فى هذه الظروف المظلمة ..ولأننى صفرى بطبعى فأنا لست صاحب موقف أو قرار مهما ادعيت بغير ذلك..هذا ماتبين لى بعد أن تفحصت نفسى جيدا..كانت ذريعتى انه كلما اتسعت دائـــرة رؤيتى لما حولى، استحالت الفرصة أو القدرة على القطع والحسم والتحديد..ويبقى القرار الحقيقى هو اللاقرار .

أن يكون هذا هو موقفى تجاه الأحداث فأنا حر طالما قبلت تحمل النتائج المترتبة عليه، أما أن يقف حكامنا موقفا مماثلا أمام الغول المتربص بنا ، فذلك أمر يصيبنى بالرعب والفزع ، ويدفعنى دفعـــا الى التوسل إليكم أن تقرأوا الملفات.

******

●من الملف الصهيونى:

حين قرر السادات وقف نزيف الدم المصرى، طلب من الفلسطينيين المشاركة فى توقيع اتفاقية السلام.وصفوه بالخائن صائحين فى إذاعتهم التى تمولها مصر:

–شلت يداك ياسادات

ثم تركوا شارون ينفذ حرفيا مافعله بهم يوشع بن نون "سفر التكوين ٣٤/٢٥"الذى أعمل القتل والحرق والتدمير فى الانسان والحيوان والنبات والجماد بلا استثناء غير راحاب الزانية التى آوت جواسيسه.راح شارون يصول ويجول بدباباته وطائراته وصواريخه وقنابله فى الأراضـــى العربيـــة المحتلة بعد أن تم عزل مصر وتكتيفها بجنازير اتفاقية السلام،الأمر الذى لم يلتفت لـــه المتفـــائلون للاتفاقية فى حينها وأنا اولهم..الآن أعترف أننى حمار.معها حق أمى حين كانت تقول لى دائما ان سلامة نيتى تصل أحيانا الى حد السذاجة،وفيما بعد راحت سميرة تؤكد على القول نفسه..ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيرى ان الاحتلال الاستيطانى الإحلالى الصهيونى–القائم على الفكـــر الاسترجاعى– هو استعمار عميل ليس له دينامية مستقلة عن الدولة العظمى التى تتبناه.ويعـــود الفكر الاسترجاعى الى الأسطورة المسيحية عن عودة المسيح المخلص فى آخر الأيام ليحكم العالم هو والقديسين لمدة ألف عام يسود فيها العدل والسلام..وحسبما جاء فى هذه الأســـطورة فـــإن الخلاص لن يتحقق ولن يتم إلا باسترجاع اليهود لفلسطين ليتم تنصيرهم.. وفيما يلى بيان بأشهر مذابح بنى صهيون منذ زرعهم الغرب فى فلسطين:

١–بن جوريـــــون : مذبحة كفر قاسم
٢–جولدا مائـــــير : مذبحة بحر البقـــر
٣–مناحم بيجـــين : مذبحة خان يونس
٤–اسحاق شاميـــــر : مذبحة دير ياسين
٥–اسحاق رابـــين : مذبحة الأسرى المصريين
٦–شيمون بيريـــــز : مذبحة قانا الأولى
٧–ايريل شـــــارون : مذبحة صابرا وشاتيلا
٨–ايهـــود اولمرت : مذبحة قانا الثانية

******

نصف قرن مضى مابين المذبحتين الأولى والأخيرة.حدثت مذبحة قانا الثانية عندما أعلنت اســرائيل الحرب السادسة على العرب .قال المحللون السياسيون ان هذه الحرب كانت معـــدة ســلفا وتم تخطيطها بالاتفاق بين الأمريكان والصهاينة.تعلل اليهود بأسر جنديين لهما بواسطة رجال المقاومة اللبنانيين للمطالبة بمبادلتهم بأسرى لبنانيين وفلسطينيين فى اسرائيل.عندما طالب العـــالم بوقـــف اطلاق النار التى انصبت كالجحيم فوق منازل المدنيين ،اعترض بوش قائلا بوضوح ودون حيـــاء ان الوقت لم يحن بعد.كان واثقا أن اسرائيل ستكسر شوكة المقاومة وتحتل جنوب لبنان خلال أيام قلائل ثم تفرض شروطها.امتدت الحرب لأكثر من شهر دون أن تتحقق رغبته.خلال هذا الشهر شرب بنو اسرائيل من نفس الكأس التى أذاقوها للعرب.نزلت عليهم صواريخ نصر الله فعرفـــوا الاختفاء بالمخابىء لأسابيع عديدة.حطمت قذائفه بوارجهم ودباباتهم فراحوا يصرخون ويولولون على قتلاهم ومصابيهم.انقسم المجتمع الاسرائيلى على نفسه بين مناصر للحرب ومعارض لهـــا.فى بداية الحرب اجتمع رؤساء وملوك مصر والأردن والسعودية متهمين زعيم المقاومة بأنـــه رجـــل مغامر يعرض الأمة لمخاطر الجيش الذى لايقهر..وقال شوبنهاور إن ذوى النفوس الدنيئة يجدون المتعة فى البحث عن أخطاء رجل عظيم..وعندما انتهت الحرب طالب الاســـرائيليون بمحاكمـــة جنرالاتهم الفاشلين الذين اعترفوا بالهزيمة،حتى أن وزيرة خارجيتهم صرحت قائلة:

–ليس هناك جيش فى العالم يستطيع نزع سلاح حزب الله

"هوجو شافيز"رئيس فنزويلا –المنتخب من شعبه– طرد السفير الاسرائيلى من بلاده احتجاجـــا على تدمير منازل الشعب اللبنانى بوحشية وباستخدام القنابل المحرمة دوليا.قال نصر الله مخاطبـــا الحكام العرب:

–لانريد سيوفكم ولا اموالكم.كونوا رجالاولو ليوم واحد.فكّوا عنا يعطيكم العافية

عندما انتصر"المغامر" أرسلت الحكومة المصرية طائرة بها مجموعة مـــن الحـــزبيين والـــصحافيين القوميين ومعهم جمال مبارك لمواساة الشعب اللبنانى بالكلام،ومع ذلك لم ينطق جمال بكلمة واحدة أمام رؤساء لبنان حتى لايناقض كلام أبيه عن "المغامر"،ولم يفهم أحد لماذا حضر إذن؟!..

أثناء اشتعال الحرب قال حسنى مبارك فى تصريح له:

-إن مايحدث فى لبنان خسارة على اسرائيل وعلى"البتاع ده"..

وكذلك لم يفهم أحد ما هو هذا "البتاع"حتى الآن..

بعد انتهاء الحرب طولب أولمرت بالاستقالة بسبب الهزيمة،بينما صرح مبارك بأنه لامغلوب ولا منتصر..وقال حكيم قديم إن الجبل لايستطيع أن يمنع الجرذ من أن يثقبه ليتخذ به مسكنا.

******

كانت محاولتى الأخيرة قبل أن أتوجه الى ادارة التجنيد،حاملا على كتفى وصية الحكـــيم"بتـــاح حتب" الذى قال لتلميذه منذ مايقرب من ستة وأربعين قرنا من الزمان:

"إذا كنت رجلا ذا مترلة فاتخذ لك مترلا وأحبب قرينتك الحب الجميل وأطعمها واكسها وطيب أوصالها وأدخل السرور على قلبها طيلة حياتها".

أنا لا أحب محمد النجار ولكنى مضطر الى التعامل معه.عجيب أن البطن التى أنجبـــت محمـــدا وفاروقا بطن واحدة.كثيرا ماحثنى محمد على ترك عملى بالقطاع العام كى أعمل معـــه.أغـــرانى براتب كبير وعمولات أكبر.تستفزنى معالم وجهه بشدة.بقدر حبى لفاروق أنفر منه.الوقت ضيق ولا مفر من محاولة أخيرة قد تسفر عن انفراجة عاجلة. بعد عدة أشهر سأرتدى الزى العسكرى وأذهب الى المجهول.أنا الذى يخاف من ذبح دجاجة سأكون مدفوعا بالفطرة وغريزة البقـــاء الى القتل والنسف والتدمير.أدركت الآن موقع الشرخ فى إرادتى ولن أستطيع علاجه مالم أتعلم كيف أقتل. حتى لو قتلت، فالموت ليس أصيلا فى الكون لأنه عابر،أما الحياة فهى الأصيلة لأنها مستمرة وخالدة.

مشكلة محمد النجار التى طرحها على،أنه ينتج طلاء حراريا أسود يصنعه مـــن القطران،يريـــد تبييضه حتى يضاهى نظيره المستورد فيتمكن من مضاعفة سعره.أغرانى بالمال وراح يطاردنى بعربته فى كل مكان ويدعونى الى سهراته وولائمه كل يوم حتى يدفعنى الى البدء فى تنفيذ مشروعه.

مثلما نجحت فى التهرب من محيى كان يجب أن أهرب من أستاذى الدكتور المشرف على أبحاثى بالكلية حتى أتفرغ لمشروع النجار،فربما فزت بربح سريع يرفع رأسى قليلا أمام سميرة.

******

اكتشف ضابط الحرس الجامعى أننى أبيت فى معملى حتى الصباح.حذرنى من تكرار ذلك ما لم أحصل على تصريح رسمى من ادارة الجامعة.خشيت أن يعلم الأستاذ–خاصة وأنه يسمينى مراد المجنون– أننى أستغل معمل الكلية لأغراض لا علاقة لها بموضوع البحث الذى يشرف عليه.لاحظت أن بصوت الضابط بحة مميزة وحشرجة غليظة يتميز بها الحشاشون،وأن عينيه حمراوان منتفختان متورمتان على الدوام، ففهمت كيف أنفذ اليه حتى يحل عنى ويتركنى لحالى أبيت فى المعمل كيفما أشاء.لاحظت أنه يحوم دوما حول قارورة زجاجية ذات فتحة جانبية موضوعة على أحد الأرفف يخرج منها خرطوم أنيق،ولها فتحة علوية مثبت بها سدادة من الفلين المستورد ذات ثقبين..عز الطلب وعين المراد لحشاش أصيل.

دون أن يجرؤ على أن يطلبها منى قلت له بمنطق الذى لايملك حين يتنازل لمن لايستحق:

– لو كنت تريدها خذها

وكان انقضاضه عليها بمثابة تصريح لى بالسهر والمبيت كيفما أشاء دون علم الجامعة أو الأستاذ،فهنيئا له بجوزة معملية زجاجية يدخن فيها الحشيش تدخينا علميا راقيا يجمع بين الأصالة والمعاصرة.

على وجه محمد النجار–الذى يحمل دفتر شيكات فى جيبه–قرأت علامات صدمة وإمارات دهشة وفى عينيه نظرة حسد لاتطاق،وقرأت على لسانه كلمات لم ينطق بها،تقول وهى تقطر الحقد الأسود:

–كيف يستطيع ولد هلفوت كهذا أن يتوصل الى سر تبييض الطلاء؟!

–هل يصبح لهذا الولد الحق فى مناصفتى الأرباح بعد مضاعفة السعر؟

وأنا الذى كنت متلهفا من أعماق قلبى الغرير أن أزف اليه النبأ فيطير بى من شدة الفرح ويحضننى ويقبلنى ثم يكافئنى على جهدى وعرقى وسهرى وصبرى ومثابرتى.كنت أنتظر أن يدعونى الى توقيع اتفاق معه يحفظ لى حقى،لكنه بدأ باللف والدوران حول اسم المادة الأساسية التى غيرت لون الطلاء،وحول نسبتها وطريقة مزجها،ثم عن مدى فعاليتها وأثرها على خواص الطلاء.

تأكدت ساعتها أننى أتمتع بقسط وافر من الغباء الاجتماعى الذى يسمونه غالبا بحسن النية،وأدركت صدق الفطرة عند أمى.

أمشى بلا سروال ولا أسمح للنجار أبدا أن يستغفلنى.أتجاهل شرخى وأفكر فى بديل للاستفادة من نجاحى.أبحث تحت"طقاطيق" الأرض عن تلك المادة التى حولت الأسود الى أبيض.أشتريها وأبيعها وآخذ الربح لنفسى وأهرب من حقد النجار الذى فاق سواده سواد طلائه الكريه.

التقيت بصبحى اسماعيل زميل دفعتى الدراسية.علمت منه أن هذه المادة متوفرة بمخازن الشركة الحربية التى يعمل بها،والتى تقع فى ضاحية صحراوية من ضواحى القاهرة.فاجأنى بـــالقول انهـــا راكدة مهملة لاتجد من يشتريها.

ذهبت الى "القططى"سمسار الكيماويات العجوز الذى عرفتـــه عـــن طريـــق أحـــد زملائـــى بالشركة.أكد لى القططى ان هذه المادة مختفية تماما من السوق،وأن الاتجار فيها مربح للغاية.قلت له هامسا بثقة مصطنعة:

– عندى صنف ممتاز من هذا المسحوق

فتح فمه على اتساعه ونظر الى بعينى محمد النجار وقال متوجسا:

–غير معقول

– لماذا؟

–من أين حصلت عليها وكيف؟

آن الأوان كى أحدد موعد عقد القران..

–سر المهنة يامعلم

–مصرى أم مستورد؟

للمغامرة مقتضياتها.أكمل مسيرتك ولاتتراجع.إكذب.قل أى شىء،فمن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب.

–مستورد

–عجيبة !!

العجيب أننى انقطعت عن الصلاة تماما بعد انقطاع محدود بدأ منذ ليلة المذيع الأمريكـــى.تتـــابع الانقطاع بعد احتساب الرائد ابراهيم النحراوى فى عداد الشهداء دون إزالة اسرائيل من الوجود أو حتى احتلال تل أبيب..ثم لفترة أخرى بعد فشلى مع محيى وتشاؤمى منه..ثم لفترة أخيرة بعـــد أن كشف لى محمد النجار عن نواياه الخسيسة.العلاقة بين الفشل والانقطاع عن الصلاة تؤكـــد أننى بحاجة ماسة الى جرعة دسمة تنقصنى من الإيمان،حتى لا أحتسب ضمن ذلك الصنف من الناس الذين يعبدون الله على حرف.

دفع لى القططى "العربون" مقدما لشراء كمية من المسحوق.أصبح فى جيبى مئات من الجنيهات لأول مرة فى حياتى.أمضيت فى القاهرة ليلتين حافلتين.سينيما.مسرح.ملهى ليلى.مقام الـــسيدة زينب.المركز القومى للبحوث.شقة صبحى اسماعيل التى تعج بالساقطات.فى الليلة التالية شعرت بالندم فتوجهت الى مسجد سيدنا الحسين لأصلى العشاء وأستغفر الله.

دخلت المسجد بصدر منشرح وقلب مفعم بالنوايا الحسنة.رأيت مجموعة من الشباب والشيوخ متحلقة حول جهاز تسجيل يذيع تلاوة قرآنية بصوت غاية فى الجمال والجلال والعذوبة.كانت جلستهم أمام القبلة.أوليتهم ظهرى دون أن أدرى ونويت الصلاة.قيل لى ان الدعاء هنا مستحب ومقبول.فوجئت بيد حانية تستقر فى لطف على كتفى،وشيخ يقف من خلفى:

–ماذا تفعل يابنى؟

– كما ترى..أصلى

كانت دهشة الشيخ منى تفوق الوصف وأنا لا أفهم سببا لها،حين اقترب بأنفه من فمى متوجسا:

– انك تعطى ظهرك للقبلة !

أفقت على جرمى. عدت الى الوضوء من جديد وقد استبد بى شعور طاغ بالخوف من مجهول لابد واقع على رأسى.أنا موظف حكومى لا تحق له المتاجرة فى شيء،فمابالك وأنت تتاجر فى مادة حربية!..سأكذب على رئيس الشركة المنتجة للمسحوق وأدعى الشراء بغرض الأبحاث العلمية.أنا ممنوع بالطبع من دخول المصنع لأنه حربى ولأننى لاأعمل به..كيف أجرؤ بعد هذا كله أن أقابل الله فى بيت من بيوته؟..لهذا رفض مقابلتى حين أوليت ظهرى للقبلة.

كررت الوضوء عدة مرات حتى أفقت تماما.دعوت الله من قلبى أن يغفر لى ويوفقنى فى مسعاى وينجينى من خطورة نفسى الأمارة.

فى الصباح جلست بجوار صبحى فى عربة المصنع الحربى.اعتقد السائق والموظفون أننى مستخدم جديد عندما رأونى أبادل صبحى الحديث.قدمنى صبحى الى مدير المصنع بصفتى زميلا له أعمل فى بحث للحصول على الماجستير فى هذا المسحوق.طلبت شراء نصف طن.أبدى الرجل دهشته الشديدة،فالمادة بطبيعتها هشة للغاية،تشغل عبواتها حجما كبيرا مهما صغر وزنها.تساءل عما سأفعله بكل هذه الكمية،لكنه فى النهاية لم يبد اعتراضا على البيع فهو الكسبان بترويج بضاعته الراكدة.

كان سر دهشة القططى واستغرابه للأمر أننى لم أدله على مصدرى للحصول على المسحوق.كل ماقلته له أنه وارد من الخارج.سارعت بمجرد استلامى الصفائح الكثيرة المحتوية على المادة بإزالة الورق الملصق عليها والذى يعلن أنها من إنتاج أحد المصانع الحربية المصرية،وما أقبح الحياة حين تخلو من مغامرة.

فى الموعد المضروب وفى المكان المتفق عليه حضر القططى ومعه بقية المبلغ.كانت هذه البقية تعادل صافى مكسبى من الصفقة.أحصيت الأوراق المالية بسرعة ووضعتها فى جيبى بفرحة،ثم قلت له مقلدا رجال الأعمال:

– تفضل..استلم

اختفت دهشته وبدا هذه المرة أكثر ثقة بنفسه.قبل إحضار البضاعة كان يخاطبنى بأدب مبالغ فيه دون أن يخفى دهشته من قدرتى على الحصول على هذا الشيء النادر.الآن يخاطبنى بلهجة ضباط المباحث:

– قل لى يابشمهندس..من أين جبتها؟

أجبته بغضب حقيقى،بينما كان يتفحص عينة منها بانبهار شديد:

– وما شأنك؟..لك أن تتسلمها أو ترفضها

راح يتباطأ فى الحركة بين الصفائح،يتحسسها ويتلمسها،ملتفتا من حوله بين الحين والآخر فى توجس حيرنى وإن لم يدفعنى الى الارتياب فى نواياه على الإطلاق.

كالقضاء العاجل مرقت من حولنا عربات ثلاث،ثم توقفت فجأة بعد حركة التفاف وانقضاض مثيرة.أحاطت بى وبالصفائح.نزل منها رجال غلاظ التقاطيع.أخرج أحدهم من جيبه طبنجة.فوجئت بسيل من اللكمات ينهال على وجهى من كل جانب،وأياد كثيرة تفتش بعنف فى جيوبى وتستخرج منها النقود والفواتير.انهارت عزيمتى دفعة واحدة ولم أعد أفهم شيئا مما يجرى لى.توقف مخى عن التفكير فلم يكن بمقدوره أن يعمل.تناثرت من حولى كلمات كثيرة لم أستطع أن أميز منها إلا كلمات الرائد قائد الحملة،حين توجه الى بالقول ساخرا:

– كيف حالك يابشمهندس سابقا ؟

استحثتنى غريزتى المترعة بحب المقاومة على استجماع إرادتى ووعيى.التقطت أذناى حديثا جانبيا هامسا بين اثنين منهم، كانا يتفحصان اوراقى وبطاقتى الشخصية:

– عجيبة..لقد اشتراها بفواتير رسمية
– نجا ابن القحبة من الفخ بعد أن دوخنا معه السبع دوخات
– نحولها الى عملية سوق سوداء وأمرنا لله

تلفت حولى فلم أجد القططى.قبضوا عليه هو الآخر لإتقان الدور.لم يكن يخطر ببالى حتى تلك اللحظة أنه يعمل مرشدا للمباحث،وأن غباءه قد صور له أننى لص يتعامل مع لصوص يسرقون هذه المادة النادرة من المصنع الحربى ويتجرون بها فى السوق السوداء.

فحصوا الأوراق المالية وفهمت من حديثهم معى أنها كانت تحمل أرقاما معلومة لديهم.حينئذ فقط بدأ الشك يساورنى فى القططى الكلب الذى خسر عمولته وهدد مستقبلى.عادت الىّ ثقتى بنفسى أقوى مما كانت عليه قبل هجوم المباحث الجنائية العسكرية.كنت على يقين من أننى لم

أرتكب جرما جنائيا،وإن كنت قد ارتكبت خطأ مهنيا لكوني موظفا عاما تجرأ بالتجارة الحرة الى جانب وظيفته.

******

المقهى مليء بالرواد.كل الكراسى مشغولة.أجلس فى سعادة على مقعدى أمام مكتبى الصغير.أحمد الله على رزقى الذى اتسع من حيث لا أحتسب.أقرأ خبرا بإحدى الجرائد عن القبض على مـــدير عام بإحدى المؤسسات الحكومية، ضبط وهو يسرح بعربة فول مدمس بعد انتهاء مواعيد عملـــه الرسمية.قدموه الى المحاكمة فبرأه القاضى واصفا بيع الفول فى حيثيات الحكم بأنه عمل شـــريف يغنى عن الحاجة والرشوة.أتحدى أشهر المحامين أن يجد لى مادة فى القانون المصرى تمنع مهندســـا متقاعدا أن يتحول الى معلم صاحب مقهى..وياليل الصب متى غده ، أقيام الساعة موعده؟ وأى ساعة هى ياترى ؟..ساعتى مع غصون أم ساعة الوطن الذى حاصر فيه جنود الأمن المركـــزى معرض القاهرة الدولى للكتاب واعتقلوا المتظاهرين ضد التمديد لحسنى مبارك والمطالبين بتعديل الدستور ، ومن بينهم عبد القادر حسن،الضلع الناصرى فى مربع ندوة الأدباء الرئيسى.

قال نوفل كما لو كان متشفيا فى عبد القادر بنفاق مستفز:

–مواد الدستور الحالى لاتعوق استمرار الإصلاح السياسى وليست بحاجة الى تعديل

فقال حلمى سليم ســـــاخرا:

– معك حق فهذا الدستور هو الذى يضمن بقاء مبارك فى الحكم ومن بعده ابنه الى ماشاء الله

عدلت تحية من وضع الإيشارب على رأسها،فتدلت على جبينها خصلة مائلة من شعرها الأسود الكثيف،وقالت فى تحفز:

–يبدو أننا لن ننصلح إلا بالأمر من الأسياد،فقد انتقد بوش كلا من مصر والسعودية وطالبهما بإرساء قواعد الديموقراطية،وأنا أرى فى تصريحه هذا أمرا مباشرا وصريحا لخدمه بالإصلاح.

وهو يهم بالانصراف قال حلمى سليم بجدية:

–أنا لاأثق فى كلام بوش بقرش صاغ،وعلى العموم فقد قام عبد القادر بعمـــل ما،أمـــا نحـــن فسنظل نتكلم ولن نفعل شيئا.

أعجبنى قول حلمى وخيل الى أنه يتوجه به الىّ بصفة خاصة،فقد أمـــضيت عمـــرى مهتمـــا بالسياسة ولكنى لم أفعل شيئا.أنا وطنى وثورى آه..لكن نومة "البورش" لا. أنا تقدمى مـــتحمس نعم..لكنى لاأحتمل حبسة الزنزانة وصفعات الحراس وأنا فى هذا العمر.أنا محتج على كل مايحدث من فساد ولكنى لاأعرف كيف أقاومه أو أحول دون تفشيه بهذه الصورة المخيفة التى لاأظـــن أن مصر شهدتها منذ عصر الفراعنة.ربما أستطيع فقط أن أساهم فى الحد من تغوله..مجرد أن يتحاور

المثقفون فى مقهاى بحرية حول أحوال البلد،فهذه مساهمة جريئة منى فى دعم الحرية..وإذا كنـــت أكره السلطة فلا مانع عندى من استغلالها لحماية هذه الحرية متى أتيحت لى الفرصة لذلك.المقدم عادل مراد هو مركز القوة الذى أستند اليه.واقع الأمر أنه لايهتم نهائيا بالوضـــع الـــسياسى أو الرغبة فى تغييره،وإنما يدعمنى فقط لأننى أبوه.رغم معارضته لفكرة شراء المقهى فى البداية،إلا أنه تعامل مع الأمر الواقع بموضوعية أعجبتنى فاشترى دماغه وكسب رضاى.تعامل مـــع حقـــيقتى الجديدة بصدق أكبرته فيه،فأنا أعشق الصدق وسأظل أعشقه مهما أصبحت حياتنـــا كـــذبا فى كذب.أصبح البحث عن الحقيقة أمرا دونه الأهوال.صرح رئيس الجمهورية بأن المطالبة بتعـــديل الدستور فى الوقت الحالى تعد خيانة،لأن التعديل سيحدث فوضى فى البلد..ياحوســـتى وحوســـة أمى..هلل لتصريحه رؤساء الصحف القومية المعينين بالإسم من قبله،كما هللـــت لـــه صـــحيفة اسرائيلية تحت دعوى أنه رجل سلام معتدل.لكنه لم يلبث–بعد أن تزايدت عليه الـــضغوط مـــن الداخل والخارج– أن أعلن عن قراره بتعديل المادة٧٦ فقط لتحويل الاســـتفتاء علـــى رئـــيس الجمهورية الى انتخاب بين عدة مرشحين.لم يقترب من المادة٧٧ التى لاتحدد مدة معينـــة لبقـــاء الرئيس فى الحكم.كان نواب الشعب القدامى قد استحدثوها فى عصر السادات.لم يتطرق أيـــضا الى تعديل المواد التى لاتحد من صلاحيات رئيس الجمهورية والتى جعلت منه مالكا مطلقا لكـــل السلطات.

ثم إنه ترك لائحة القرار التنفيذية لجهابزة القوانين يصيغون التعديل بما يضمن بقاءه بالحكم حتى يورثه لإبنه من بعده..على الفور هللت نفس الأصوات تبارك قرار الرئيس وتشيد ب"الانقـــلاب الديموقراطى الذى يحدث فى تاريخ مصر لأول مرة"..فقدوا ذاكرتهم فجأة إذ نسوا أن التعـــديل كان منذ قليل خيانة،وراحوا يمتدحون"حكمة الرئيس ونفاذ بصيرته"،حتى أن أحدهم تباكى على زهد الرئيس وحرمانه من شم رائحة"طشة الملوخية"فى المطبخ لكثرة أعبائـــه الـــتى تحـــول دون ذلك.كان منطقهم مستمدا من مقولة الرئيس المكررة بأن الأحوال العامة فى مصر لاتـــسمح إلا بالإصلاح التدريجى حتى لاتحدث ما اسماها بالفوضى التشريعية،مدعما بتصريح لاحـــق لـــرئيس الوزراء الأخير فى مؤتمر صحافى بأمريكا مؤداه أن الشعب المصرى يفتقر الى النـــضج الـــسياسى الذى يجعله جديرا بالديموقراطية،وأنه بحاجة الى التدريب عليها تدريجيا وعلى جرعات محسوبة وإلا أدت الفوضى الى استيلاء الأصوليين على الحكم ، الأمر الذى لايرضى الغرب ويجعل السيد بوش يستشيط غضبا.

******

من الغريب أننى نمت بعمق فى العربة الأميرية التى اصطحبونى فيها الى المصنع الحربى لاستجواب رئيسه الذى أمدنى بالمسحوق.فى المساء كنت أرقد فى زنزانة بسجن عابدين . كان صبحى منخرطا فى البكاء بالزنزانة المجاورة.أكلت الفول الأميرى المدمس والفجل الملطخ بالطمى بشراهة شديدة.التقيت للمرة الأولى بعالم الإجرام والمجرمين.أفردوا لى قطعة كبيرة من الورق المقوى على أرض الزنزانة.خلعت حذائى ووضعته بتلقائية تحت رأسى كسجين متمرس.تمددت عليه وبداخلى نشوة خفية كما لو أننى أشاهد تمثيلية كوميدية، أو كأننى أرقب فى فضول شديد ما يحدث لى وكأنه يحدث لشخص آخر غيرى.لم أفكر فى سميرة منذ لحظة الهجوم علىّ فى صحراء مصر الجديدة وحتى لحظة النوم السعيد على"البورش"الورقى.لم أفكر أيضا فى النصر الذى لابديل عنه ولا فى زوج شقيقتى الذى يستحيل أن أراه مرة أخرى.

قال لى كبيرهم وأنا لاأعرف ان كان هو الآخر مرشدا مثل القططى الخائن أم مجرما قادما لتوه من جناية بشعة ارتكبها:

– قل لى ايه حكايتك باضبط

حكيت له ماحدث بأمانة.ضحك فى ثقة وأصدر قراره:

– لن تبيت معنا اليوم

تفاءلت بنبوءة المجرم فسألته بمودة صديق قديم:

– ماذا تقصد؟

– لو كان ماذكرته صحيحا فأنت لم ترتكب جناية

– بشرك الله بالخير يا أخى

– لكن خذها منى نصيحة:لاتمش معهم فى الأزرق

– الأزرق؟

– يعنى قل لهم الحقيقة كما قلتها لى لتوفر على نفسك الضرب والإهانة

كان المحقق برتبة عميد.نظر الى فى دهشة أغلب ظنى انها راجعة الى صغر سنى،وسألنى بابتسامة ساخرة:

–هل أكلت الفول الأميرى والفجل يابشمهندس؟

– نعم.. ونمت أيضا

لم أقل غير الحق،فعندما جاءوا يستدعوننى فى المساء وجدونى مستغرقا فى النوم بالزنزانة،مثلما استغرقت من قبل بالعربة بعد القبض على بعدة دقائق.

استدعى المهندس صبحى ووقفنا معا أمام العميد.انتهى التحقيق بنصيحة لم أنسها حتى الآن:

–إياك أن تفكر فى المكسب السريع مرة ثانية وإلا انحرفت عن الصواب دون أن تدرى.

تأثرت بلهجة الرجل الأبوية الصادقة،وحنانه الممتزج بالحسم والشدة تجاه شـــابين فى مقتبـــل العمر،فلم أعلق.واصل حديثه:

– سنكتفى هذه المرة بإخطار جهة عملك لتوقيع جزاء إدارى عليك

كان معظم حديثه موجها الىّ وحدى منذ بداية التحقيق وكأن صبحى غير موجود.

عدت الى صديقى المجرم لأودعه قبل الانصراف.شـــكرته علـــى كـــرم ضـــيافته وحـــسن نصيحته.ودعنى بحرارة دهشت لها.انصرفنا بعد مصادرة البضاعة والفلوس وكل شىء.تـــذكرت السيدة زينب والحسين.كنت مفلسا تماما.قلت لصبحى:

–أنا جوعان..جوعان

لم ينطق فسألته:

–كم معك؟

–سبعة جنيهات

–اعطنى جنيهين حتى أعود الى الاسكندرية

باستسلام جميل أعطانى الجنيهين.

–ألست جوعانا؟

–من أين تأتينى الشهية للطعام؟

كان محطما ولكنى لم أعبأ بذلك.سحبته الى مطعم قريب فانقاد ورائى كما لو كان تحت تأثير منوم مغناطيسى.جلسنا الى مائدة صغيرة.لابد أن أروى لسميرة هذه المغامرة الظريفة التى جعلت مـــنى رد سجون .أكل صبحى قطعتين من اللحم ثم توقف.أكلت نصيبى وبقية نصيبه ثم دفع الحـــساب وتقيأ ما أكله فى الطريق.تنسمت هواء الحرية فى شوارع القاهرة الساحرة،بمعدة ممتلئـــة وعيـــنين تلتهمان الشوارع والأزقة بحب وشغف رغم الحظ المنحوس الذى لايريد مفارقتى،والذى أخـــاف منه على جوهرتى الغالية التى ربطت مصيرها بمصيرى.حجزت فى الديزل الفاخر الى الاسكندرية ولم يكن بجيبى سوى علبة سجائرى وربع جنيه!!..

******

لماذا لا نهرب معا ياحبيبتى من هذا البلد ونعيش معا فى قـــارة أخـــرى لايعرفنـــا فيهـــا أحـــد ولانعرفه؟..نرتشف من رحيق الحب حتى الثمالة ونقول على الدنيا السلام..خلاص!!..فقـــدت ياعم الحاج؟..لكن ما الغريب فى الأمر؟..واحد اسمه المهندس مراد عامر أحب واحدة اسمها سميرة

وهو فى العشرين ثم تزوجها،وواحد آخر اسمه المعلم مراد أحب واحدة اسمها غصون بعد أن تجاوز الستين،لكنه لايعرف كيف سيكون مصيره معها.

دكتورة فى الفلسفة.لم تكد تتجاوز الثلاثين.ترملت منذ مايقرب من عامين بعد رحلة زوجية سعيدة قصيرة لم تدم أكثر من سنوات قليلة،لم تنجب خلالها لعلّة فى بدنها.لم يفكر زوجها–وكان طبيبا–فى طلاقها،فقد كان يحبها حبا شديدا،أما هى فكانت تحترمه وتطيعه وتعمل جاهدة على إسعاده،حتى أنها عرضت عليه–كما فى الأفلام–أن يتزوج عليها ليتمتع بنعمة الأولاد.لم تكن عاطفتها تجاهه فاترة ولكنها كانت تفتقد السخونة والاشتداد والتوهج.رغم ذلك فقد كانت قانعة بحياتها معه.لم أعرف إن كانت علتها البدنية هى التى أفقدتها عنفوان الرغبة واشتعال المشاعر وثورة الجسد،أم أن هناك أسبابا أخرى لم تشأ أن تفصح لى عنها.حياؤها الفطرى التلقائى يمنعها من التصريح بأسرارها الأنثوية الخافية.أرى الفضيلة متأصلة فى طبعها،ورغم صغر سنها فوقارها كوقار من بلغن الستين وإن لم يقتل فيها جنون الشباب.

هناك فرق بين ضربات القلب فى العشرين وضرباته فى الستين.الزمن أضفى على دقاته عمقا وأضاف اليها أصداء متنوعة من التجربة والنضج والانصهار فى أتون الحياة.ضربات العشرين صارخة طائشة جامحة مجنونة رائعة.ضربات الستين تفيض بالحنان والشجن.مطمئنة هادئة..ومهما يقطع الزمن من رحلته الأزلية الأبدية فإنه لايتخاصم يوما مع الحب فى أى عمر من عمر السنين.كانت سميرة"قطتى الوديعة"و"جوهرتى الغالية"و"يمامتى الرقيقة" فى زمن النبضات الشابة.اليوم أصبحت غصون"واحة سكينتى"و"روضة فكرى".. على شفتى ترتسم ابتسامة الذى ذاق فعرف،حين يخطو خطواته الأخيرة على جسر الحياة ناسيا كل شىء،تاركا كل شىء،حتى الذكريات،مافات منها وما مات،ولم يبق فى الخاطر الا انتظار اليوم العظيم حين يستحيل عالم الفناء الى بقاء مخلد.

هذا عن الأرملة الأولى..

أما الأرملة الثانية:أم فؤاد،فعمرها من عمرى.استشهد زوجها فى حرب أكتوبر وكان يحمل رتبة"صول".كرست حياتها من بعده لتربية أولادها حتى تخرجوا فى الجامعة.فؤاد يعمل أخصائيا اجتماعيا.كثيرا ما يحضر بمفرده لمساعدتها وأحيانا بصحبة أصدقائه الذين يحبونها كما يحبون أمهاتهم.يسعدون بها ويعشقون الحديث معها والاستماع اليها.حين تهيم ملائكة الحب فى أى مكان على الأرض يصير جنة.أنا أسمع حفيف أجنحتها كلما جئت هنا.

بدأت مشروعها بعشة صغيرة أقامتها على الشاطىء لإعداد القهوة والشاى.تطورت العشة مع السنوات الى كافيتيريا ووحدة لخلع الملابس ومطبخ صغير لإعداد المأكولات السريعة.أم فؤاد

صدرها عريض جدا ، بمقدوره أن يحتضن الدنيا بأسرها ويغدق عليها من حنانه.أنا أحـــب هـــذا الصدر حبا روحانيا خالصا لايغضب الله وأغلب ظنى أنه يرضيه.مازالت معالم جمال قديم ترتـــسم على وجهها السمح الذى لونته الشمس بلون النحاس..بعينيها العسليتين تطل على الدنيا بنظرة عميقة شاردة تنطوى على حكمة ومعرفة وصبر وتجربة ورضا وشيء من السعادة وشيء آخر من الزهد والشبع والاستسلام للقدر.

عرفت زوجها حين كنت مسئولا عن الشئون الادارية لوحدة من سلاح الشرطة العـــسكرية تعسكر قريبا من شركتنا.كثيرا ما كان يجيء الى مكتبى طالبا بعض الأدوات الكتابيـــة للـــضابط رئيس الوحدة.رغم أدبه الجم فلم أكن فى البداية متحمسا للاهتمام بطلباته لأنى أكره تلك العادة القبيحة عند كثير من رجال الشرطة.أن يحصلوا على مايريدون بلا ثمن..حتى جاء يومـــا يطلـــب كمية من البنزين لملء تانك عربة"الباشا"الملاكى خاصته.كنت على وشك أن أطرده لشدة غيظى من طلبه السخيف.قابل ثورتى بابتسامة هادئة.نجح فى امتصاص غضبى واســـتدرجنى فى الحـــوار بصبر ومهارة حتى قال لى:

- هذه البلد ليست لنا.انهم أصحابها منذ نصف قرن.هم يتصرفون على هذا الأساس
- من هم؟
- العسكر يابشمهندس بجميع صنوفهم

تولدت بيننا صداقة لم أتوقعها بكل المقاييس.حزنت على فقده ووقفت الى جانب أم فؤاد أقدم لها كل ما احتاجته من عون بعد رحيله.أصبحت"كافتريا الشاطىء"لسنين طويلة هى ملجأى وملاذى حين أشعر بالضيق والاختناق.لم يكن ارتباطى بالمكان نابعا من عشقى للبحر وتوحدى الأبدى معه فقط، بل لأننى أحببت أم فؤاد حبا رائعا فريدا فى طبيعته.كنت فى حاجة الى امرأة من هذا النوع فى حياتى.فى حديثها ونبرات صوتهاونظرات عينيها وضحكها وبكائها،أرى شقيقة حبيبة لم تلدها أمى التى لم تنجب غير الذكور.أتمنى أن ألقى برأسى على صدرها أحيانا،ولا أقول شيئا ولا أحاول أن أفهم شيئا،فالناظر فى الأقدار كالناظر فى عين الشمس يبهره ضوؤها ولايقف على كنهها.

******

الى البحـــــــــــــــــــــــــر..لاملاذ لى غيره.على شاطىء مهجور خلعت ملابـــسى بأكملـــها ومارست عريى المحبب دون خشية من أن يرانى عابر متطفل.أسبح تحت الماء.أغتسل مـــن آثـــار مغامرتى الفاشلة.أعود الى روحى وتعود الى.أحدث نفسى بصوت عال لايسمعه أحد.لا أكتفـــى بالابتسام وإنما أضحك وأقهقه على تفاصيل ماحدث.ذلك الاتساع اللامحدود أقدسه.يقربنى مـــن رحمة الله. تذوب فيه أفكارى المتقاتلة. لايعنينى أمس ولا يـــوم ولا غـــد،فهل تفكـــر سمكـــة فى

ذلك؟..صلاة الطبيعة تطهر أعماقى.تمتعنى بلحظات صفاء لايمحوها الزمن من الذاكرة..وأخرج من البحر مولودا جديدا،ولابد من وضع حد قاطع لارتباكى فى مواجهة الحياة،فالأمانى الحلوة لاتموت إلا فى نفوس الكسالى.

فى المساء جلست أستمع الى نشرة الأخبار لأتابع نتائج المحاكمة العسكرية للمسئولين عن هزيمة الجيش الكبرى التى أسماها عبد الناصر بالنكسة.لم أصدق ما سمعته.مجموعة من صغار الضباط وبعض مساعديهم هم المسئولون!!..لم يكن بمقدورى أن ألغى وظيفة عقلى،لكنى تمكنت من الترويح عنه باجترار أحداث يوم جميل لاينسى...

كان لقاؤنا كالمعتاد فى كازينو الغزال على الشاطىء.اصطحبت سميرة شقيقتها نرجس التى جاءت لتشهد الحب فى عيوننا.قلت لها فجأة:

–يوم الخميس القادم ان شاء الله

تساءلت سميرة بدهشة طفلة رغم اعتيادها كثرة مفاجآتى:

– إيه؟

– يجب أن ترتدى أجمل ثيابك فى ذلك اليوم

اندفعت الدماء الى وجنتيها وأدرت وجهى أرقب أمواج البحر المتعانقة.

–مــــــراد

تعمدت ألا أجيبها ولم أغير وجهتى عن عمد.دفعت بسبابتها الى ذقنى فى الاتجاه المضاد حتى أنظر اليها.كانت مترددة وهى تفعل ذلك كمن يقدم على عمل مخجل لايحق له أن يفعله.ضحكت من أعماقى وواصلت إصدار أوامرى:

–وأن تضعى فلة بيضاء على صدرك

استبدت بها اللهفة بينما نظرتنى نرجس بعينين تشعان بريقا غامضا أخاذا.قلت بهدوء:

– سأحضر ومعى أبى وأخى الأكبر

صاحت مندفعة:

– عندنا..؟!

أنا الذى تحق له اللهفة ، فتلك لحظة عمرى.بلغ تأثرها مداه فسألتها:

– هل أسألك معروفا لا أنساه لك مدى الحياة؟

– نعم

– هل تقبلينى زوجا لك؟

تشجعت هذه المرة فمدت يمناها بأكملها ودفعتنى برفق جميل على خدى الأيمن فقلت لها بابتسامة نابعة من الروح:

– اللـــــــه

ثم أدرت لها خدى الأيسر على الفور..

– طبقى تعاليم السيد المسيح

– لن أضربك لأننى أحبك

كادت تطير فى الطريق الى سماوات أعلى من سماواتى.ربما كانت بفطرتها أكثر إدراكا منى لمعـــنى السعادة فى تلك اللحظات.

بعد أيام أضع قدمى على أعتاب بيتها.أحب بيت الى قلبى على وجه الأرض.أريد أن أنثر معها على الدنيا ورود المحبة والسلام.إن أقصى أمنياتى اليوم أن تبقى نظرتى اليها مهما طـــال العمـــر كيوم أن وقعت عليها عيناى لأول مرة.أريد للزمن أن يتوقف عند هذه اللحظة.

******

كنت بسذاجتى أتطلع الى المستحيل...

لا أستطيع أن أستوعب أبدا كيف ارتكب بى الزمن جريمته الأزلية بهذه السرعة المخيفـــة دون أن أشعر به.أنا أعرف أن كل شيوخ الدنيا يقولون نفس الكلام ، ولكنى لست أقوله وإنما أغنيه على إيقاع من الدهشة يخلو من الحزن،ذلك لأننى لا أصدقه.

سميرة تجلس أمامى فى صمت جميل وقد تدلت على جبهتها خصلة بيضاء.انتهى الكلام ولم يبق إلا الصمت.تزوج من الأولاد من تزوج وسافر من سافر وبقينا وحدنا نجتـــر الـــذكريات.دورة عبثية.نحب ونتزوج وننجب ويكبر الأطفال ويتزوجوا وينجبوا ونرى أحفادنـــا أو لانـــراهم ثم نموت.اننى مندهش، فما جدوى ذلك كله؟..

لو تركت نفسى لتأملات المهندس مراد سيضيع مـــنى المعلـــم مـــراد ، خلاصـــى ومـــلاذى ومنقذى.انه مازال جنينا بحاجة الى الحضن والرعاية والحنان حتى ينمو ويكبر.عليك بالاختيار بين ما تجلبه لك الكتب والسياسة من هم وغم،وبين مايفسح لك به صدر أم فؤاد من فضاء تنطلق فى سمائه محلقا فوق أمواج البحر والحياة. خضعت لعقلك فلم تجن شيئا.لم ينفعك السكر ولا المخدر ولا التصوف ولا السحر ولا حتى الوقوف على حافة الموت كى تفر من معاقل عقلك.أصـــبحت صفرا متجمدا.آن الأوان لأن تطلق روحك من محبسها بعد أن شلت إرادتك بفعل الملل.لاتعبـــأ بتحذيرات الشيخ قناوى ودع طيور الحرية تعربد فى سماء حياتك وتملؤها بالأناشيد، وإلا فإنـــك تفقد إيمانك وتموت،ولا إيمان بغير حب ، ولا حب بغير إيمان.

لو سألتنى غصون لماذا أحبها سأقول لها فى مقدمة إجابتى ان الحب لايعرف كلمة لماذا،وبعــد ذلك أنقض قولى فأقول لها:لأنك أضفت الى حياتى حياة جديدة.كنت أحسب أن ســنواتى قــد انتهت فإذا بها تبدأ بك، فهى من خلقك وإبداعك وابتكارك.أنت صانعتها الحقيقية. الله بعث بك الىّ لتمنحينى إياها بروحك وقلبك وعقلك وجسدك.أى عطاء إلهى اكرم من ذلــك وأى حــب عظيم يكنه الله لى !..الله خلاصى فى السماء وأنت خلاصى على الأرض.

– قبلنى يامراد

وأقبل شفتيها الشهيتين محتويا سفلاهما الممتلئة وعلياهما الصارخة بالفتنة معا ، فيمتزج الرضــاب وترتقى بى الى فردوس النشوة ، وأخف ، وأطير ، وأعلو ، وأغرد ، وأرقص ، وأغنى..ثم أتلاشى.

******

لم تتطرق المحاكمة الى أسرار طائرة المشير وسهرات الخمر و الرقص وتغلغل الجاسوس الاسرائيلى فى قلب سلاح الطيران المصرى.جندى وملازم هما المتسببان فى النكسة!!..يا اخى أحّه اسكندرانى ومن قبلها شخرة طويلة عريضة عميقة منغمة..

ويرقص القلب طربا حين أضع قدمى على مدخل البيت.بيت حبيبتى.تفتح لى الدنيا ذراعيهــا بابتسامة واعدة.أعد الثوانى وأنا أصعد الدرج.ما أروع نبضات القلب لإشراقة الحياة.بروحى لهفة جارفة الى رؤية الجدران التى تحيط بكيان حبيبتى.الغرف التى تمشى فيها.المقاعــد الــتى تجلــس عليها.الفراش الذى تأوى اليه فى المساء.الأم التى أنجبتها والأب الذى جاءت من صلبه.أخوهــا الذين يشبهونها.أعانق الكون فيعانقنى بنفس الشوق وأدخل.بعد قليل يعلن حبنا على الملأ وينتهى زمان الخوف والحذر والخشية من عيون الرقباء.

كان السلم مضاء والباب مفتوحا على مصراعيه،يحف به نور شفاف،تتصدره ابتسامة ملائكية رائعة على وجه أمها الذى لايقل جمالا عن وجهها.

–أهلا يامراد..تفضل يابنى.تفضلوا..أهلا وسهلا

لوحات جميلة معلقة على الحوائط موقعة بنفس التوقيع.عرفت فيما بعد أنه توقيع أبيها.صــافحنى خالها بحرارة شديدة كما لو كان يعرفنى من قبل.الطيبة والحزن متآخيان على وجهه.مــات بعــد ذلك بعدة أشهر مقهورا باستشهاد ابنه الوحيد فى حرب اليمن.

بعد قليل حضر رجل وسيم أحمر الوجه والشعر يبدو فى الأربعين وقد تفجرت الــصحة مــن وجهه.يرتدى حلة كلاسيكية كاملة.قالت لى سميرة انهم اضطروه الى ارتدائها رغم أنه لم يكن يرى ضرورة لذلك.

بابتسامة راقية تقطر حياء وقف الى جوار الباب وطرق عليه طرقتين مستأذنا فى الدخول كما لو كان ضيفا.كنت مستمتعا بابتهاج شديد الى حديثه الخجول.لم أصدق انه أبوها.

كانت نظراته منصبة باهتمام كبير على وجه أخى الأكبر حسن الذى كان متأنقا للغاية،وهو الذى لايظهر فى محيط أسرتنا الا مرة كل عدة أعوام.صافحتنى نرجس.تفجرت من عينيها علامات تفكير عميق لم أتبين علاقته بهذا الموقف.بدت لى ملامح وجهها وكأنها حزمة من أسلاك حاسب آلى.

فجأة قال أبى–وهو رجل طيب يقول أى شىء فى أى وقت لأى أحد–مشيرا الىّ:

– مراد ولد طيب ومطيع

لاشك أنه تقديم عظيم!!..على أثره تحولت نظرات صهرى المنتظر عن أخى الىّ.بدا مترددا حيرانا فى معرفة أيّنا هو هذا الولد الطيب المطيع الذى جاء يطلب يد ابنته.تبادل حسن ونرجس نظرات يصعب تفسيرها.رأيت فى عينيها تحديا وفى عينيه خوفا.ماذا تتحدى نرجس ومم يخاف حسن؟..لم أدع ذلك الأمر يشغلنى عن لحظات عمرى المصيرية..ثم مرق طيف جميل فى الممر المواجه لغرفة الاستقبال.أين أنت؟..أدفع حياتى ثمنا لرؤيتك فى التو واللحظة لتشهدى فرحتى بك وأشهد فرحتى بك.قالت الأم الجميلة:

– تعالى ياسميره.لاتخجلى.انه مراد

ضجوا جميعا بالضحك.كانت ملامح وجوههم تعبر بالتجربة عن اعتياد مثل هذه المواقف المتكررة فى حياتهم،بينما كان الموقف عندى جديدا وناصعا ومثيرا.كان الأول فى حياتى والأخير.

******

التقيت بها فى الأراضى المقدسة منذ مايقرب من عام أو يزيد.كنا فى الحرم النبوى الشريف بانتظار أذان صلاة العصر.كان الزحام شديدا.لاحظت حيرتى فى البحث عن مكان.أفسحت لى مكانا بجوارها.كان بيدها كيس صغير تخرج منه حبات من الفستق وتأكلها ببطء ورقة ووداعة.بعد قليل انتبهت الى وجودى فقدمت لى كل مابيدها.قلت لها بالانجليزية:

– هذا كثير

أجابتنى بنفس اللغة:

– معى أكثر

عاودت فتح الكيس. كنت أحسبها إيرانية كبقية المجموعة الجالسة من حولنا فسألتها كيف تستطيع أن تقرأ القرآن بلغته الأصلية.قالت وهى تبتسم بهدوء:

– لأن اللغة العربية هى لغتى الأصلية

أصابتنى إجابتها بالحيرة والدهشة حين تابعت ببساطة:

– أنا مصرية

أدركت فى هذه الدقائق القليلة أننى أمام إنسانة معطاءة وخفيفة الظل أيضا.وجدت بنفسى رغبة فى المزيد من استكشافها.

- وهل أتيت الى هنا وحدك؟
- معى أبى يصلى فى الفندق لأنه مريض
- وفى أى فندق تنزلان؟
- فى نفس الفندق الذى تنزل به

قالتها بعفوية وكأن الأمر يخلو من مفاجأة.أضفت الشقاوة الى بنود صفاتها فى معجم الاستكشاف الفضولى الذى استبدت بى الرغبة فى فتح المزيد من صفحاته.

بعد الصلاة استأذنت منى فى حسم لتعود بمفردها الى الفندق.أدركت كم هى واثقة بنفسها وتعرف تماما ماذا تريد.

******

عندما رويت لسميرة ماحدث لى فى القاهرة قالت من خلال دموعها:

–اللعنة على الفلوس واصحابها.ماذا كنت أفعل لو سجنوك؟

قلت لها ان أحوال البلد غير مطمئنة وإن المستقبل لايبشر بالخير.سألتها هل من المعقول أن يكون المتسبب فى هزيمتنا و"وكستنا"ضابط صغير وصف ضابط؟..وهل من المعقول أن تتفرغ الحكومة –كما يقول رئيسها–لتنفيذ خططها الاقتصادية فى سبيل رخاء مزعوم وتترك اليهود يحتلون أرضنا ويهدرون كرامتنا؟..يقول سيادته:"خسرنا المعركة ولم نخسر الحرب"..ياسلام!!..

قلت لها اننى ذهبت الى الكلية لاستخراج شهادة الماجستير حين اندلعت مظاهرات الطلبة بعنف لم أشهد له مثيلا من قبل. اعتقلوا محافظ المدينة داخل أسوار الكلية.تبادلوا اختطاف الميكروفون فى المدرج الكبير وصدورهم ملطخة بالدم المنبعث من أثر طلقات الرش التى استخدمها البوليس لتفريقهم.كانت جموعهم الهادرة تهتف بسقوط وزير الداخليةخلال استماعهم الى الخطب الحماسية الملتهبة من المصابين.أقاموا محطة إذاعة موجهة من خلال ميكروفونات كبيرة الى الجماهير فى الشارع. اشتبكت الجماهير مع البوليس وانهالت عليه رميا بالطوب والحجارة وازداد الموقف اشتعالا.ضربوا ضابط بوليس كبير عندما بصق فى وجه أحد زعماء المظاهرة.ألقوا به أرضا وبالغوا فى الإساءة اليه جزاء لفعلته.بكى المحافظ وهو يقول لهم بإشفاق حقيقى:

– أنتم أولادى..اهدأوا حتى نتفاهم

لو لم أنصرف فى الوقت المناسب لقبضوا على بتهمة أننى "مندس" أو أننى عنصر غير طلابى ساهم فى إثارة الطلبة وتحريضهم،مثلما حدث مع صديقى عبد الحليم هاشم الذى تخلص من تعذيبهم بالانتحار فى المعتقل.

لست أدرى لماذاقلت لها هذا كله،ولا لماذا حددت لها الأسبوع الأخير من نوفمبر كموعد لعقد القران.قررت أن أحسم الأمر وأتوكل بأن أحتاط من غدر الزمان وتقلبه بحد أدنى من الفعل.أخفينا عن أبيها أننى مستدعٍ بعد أسبوع من توقيع العقد،وليكن العالم ملكا لنا فى ظل الهزيمة أو النصر، فابراهيم النحراوى لن يعود،ونساء بنى صهيون تستحم عاريات فى قناة السويس أمام جنودنا الممنوعين من إطلاق النار على الضفة الشرقية، وفاروق النجار محبوس فى زنزانة بمكان مجهول لأنه ألقى بين أصدقائه-المخلصين-بنكتة سياسية عابرة، والله أعلم ماذا يفعلون به الآن، وأى نوع من التعذيب يمارسونه معه.

******

●من الملف رقم(٢):

" تذكر منظمة الهيومان رايتس واتش أن وسائل التعذيب فى مصر تتضمن الضرب بالأيدى والأقدام والأحزمة والعصى والأسلاك الكهربائية والتعليق فى أوضاع ملتوية ومؤلمة مع الضرب واستخدام الصدمات الكهربائية والاغتصاب والعنف الجنسى.وقد رصدت الجمعية المصرية لمناهضة التعذيب أكثر من ثلاثين حالة وفاة نتيجة التعذيب فى أقسام الشرطة وحدها فى الفترة مابين يونيو٢٠٠٤ ومايو٢٠٠٥ ، بينما لم يحاسب معظم الضباط عن جرائمهم حتى اليوم.وأكدت المنظمة على أن العام التالى قد شهد تراجعا ملحوظا فيما يتعلق بالحق فى إبداء الرأى والتعبير خاصة على صعيد حرية الصحافة والصحافيين،سواء بصدور أحكام بحبسهم أو بالتحرشات التى يتعرضون لها من الجهات الأمنية التى تعمل فى ظل قانون الطوارىء منذ ربع قرن،تعرض فيه مايقرب من مائتى ألف مواطن للاعتقال ، منهم عشرون ألفا فى السجون الآن.

وقد ركز تقرير المنظمة المصرية لحقوق الانسان السنوى لعام ٢٠٠٥ على ظاهرة العقاب الجماعى الذى طال قطاعات واسعة من المواطنين، تضمنت اعتقالات عشوائية واسعة النطاق،واحتجاز لرهائن،وحظر تجول،وإطلاق النار بصورة عشوائية،كما أشار التقرير الى اعتقال أكثر من ثلاثة آلاف شخص فى العريش وطابا بعد التفجيرات الغامضة التى حدثت هناك"...

وكان عبد القادر يلقى على مجموعة الأدباء قصيدة أمل دنقل:

أبانا الذى فى المباحث/نحن رعاياك/باق لك الجبروت/وباق لنا الملكوت/وباق لمن تحرس الرهبوت ، حين قدمت لهم المشروبات وجلست بينهم أستمع الى بقية القصيدة التى رفعت ضغط دمى الى

الذروة. لم تكن تحية بينهم ولم يعرف أحد سبب تغيبها وهى التى تداوم فى غير انقطاع على حضور الندوة.أمر هذه الفتاة يحيرنى.تثير فى نفسى تساؤلات عديدة، فهى تجمع بين الحجاب والاختلاط بالرجال والتحاور معهم فى جرأة وثقة حول أشد الموضوعات حساسية لأنثى. فى صوتها معنى الرجولة وفى مواقفها قوة وصراحة ووضوح.هى سليلة أسرة ينتمى معظمها الى جماعة الاخوان المسلمين.الحجاب الذى ترتديه ليس تقليديا.مجرد "إيشارب"تغطى به شعرها،وجلباب واسع طويل لايبرز مفاتنها،خاصة وأنها تعد من الجميلات.لم تتزوج مع أنها –فى اعتقادى–تجاوزت الخامسة والثلاثين.لم أتعجب كثيرا فمصر أصبحت مليئة بملايين العوانس بسبب الفشل الاقتصادى السياسى المريع الذى نعانى منه.سألت عنها صديقا يعمل معها فى إحدى شركات قطاع الأعمال المعروضة للبيع.قال انها محاسبة ممتازة وعلى خلق رفيع،وتعجب كيف يعمى زملاؤها عن محاسنها فلايتقدم أحدهم طالبا يدها.ازداد تقديرى لها حين أيقنت أنها تفجر طاقاتها المضغوطة فى أنشطتها الأدبية والنقابية عوضا عن أن تجلس خاملة فى انتظار العريس.

بعد قليل فوجئنا بها تدخل الى المقهى مصطحبة معها فتاة تصغرها قليلا.قدمتها الينا وهى ممسكة بيدها فى مودة وحنان قائلة:

– الشاعرة إيمان عازر.من أعز صديقاتى..كانت مترددة فى الانضمام الى الندوة ولكنى شجعتها.

بعد إتمام التعارف دعتها تحية الى إلقاء بعض قصائدها التى لاقت الإعجاب والترحيب من المجموعة..غير أن نوفل عبد الحميد أراد أن ينتهز الفرصة لاستعراض ثقافته فقال بنبرات تقطر خبثا وكأنه يلقى خطبة:

–جميل أن تنضم الينا شاعرة مسيحية فالدين لايعوق تواصلنا لأن التاريخ يقول ان الوثنيين اضطهدوا المسيحيين فى البداية ثم بعد ذلك اضطهد المسيحيون الوثنيين، ثم اضطهد المسيحيون المسيحيين المخالفين لهم فى شكل العقيدة، واليوم يضطهد المسيحيون المسلمين على مستوى العالم ورغم ذلك فمصر ستبقى بخير لأنها لاتعرف التعصب.

تمنيت أن أعرف المزيد عن تحية ، وفكرت بجدية فى البحث عن زوج مناسب لها.

******

ليكن العالم ملكا لنا فى ظل الهزيمة أو النصر،وليسعد القططى بخدعته الدنيئة التى حاول بها تدمير مستقبلى بلا مبرر، وليشرب محمد النجار طلاءه الأسود قبل أن يعرف منى سر تبييضه.

على رصيف القطار بمحطة سيدى جابر، تجمع العساكر بأمتعتهم الأميرية وكنت واحدا منهم.لست أدرى لماذا كنت سعيدا حينذاك، كما لم أحاول أن أجهد نفسى فى البحث عن سبب

لهذه السعادة.اصطحبنى محيى مودعا.كان الراديو يذيع بيانا لرئيس الجمهورية.قال عبد الناصر انه أصدر عفوا عن الطلبة الذين قبض عليهم فى مظاهرات ١٩٦٨. علمت بعد ذلك أن بعضا من زعمائهم لم يشمله قرار العفو ، وإنما حلقوا لهم رؤوسهم علـــى "الزيــرو"وجنــدوهم تجنيــدا إجباريا..وتحرك القطار الى القاهرة.

٨٣٣٢١١٧ جندى مؤهلات عليا مراد عامر يفندم.أنتمى الى جد اجدادى الفرعون الأكبر مثلما أنتمى الى أمى وأبى ووطنى وحبيبتى.النوم على رمال الصحراء تجربة جديدة لاتخلــو مــن متعة.السهر مع نجوم الليل وصمت الجبال لايقل فى روعته عن ممارسة طقوس العبــادة.يطــول الانتظار ويطول معه صبر السنوات المر.

تنحصر المسألة ببساطة فى قطعة من الأرض ضاعت فى ليلة حمراء حفلت بهز النهود والمؤخرات واستنشاق دخان المخدر وسقوط أحفاد الفراعنة فى قاع العبث.تلك الأرض يجب أن تنتزع،فهذا قدر لامهرب منه.يجب أيضا أن أتغافل عن شطب إسمى من سجل الدكتوراه وأن أقطــع صــلتى بعوالم محيى والنجار والقططى.القططى وحده له عندى وضع خاص، فأنا لن أدعه يفلت من عقابى مهما طال الزمن.لن أستريح الا بعد الاهتداء الى دافعه الخفى لتحطيمى وهو الذى لم يربطنى بــه أى سبب يوقع به ضررا ليبرر موقفه منى.كل ما بيننا كان مجرد ارتباط وقــتى يــزول بــزوال سببه.لاأصدق أنه وشى بى بدافع الحرص على الانتاج الوطنى من السرقة أو ماشابه ذلــك.هــذا النموذج الشاذ من البشر لاينبغى أن يترك دون حساب.

الذى لاأستطيع أن أتغافل عنه هو أن نبيلة قد ارتدت ملابس الحداد الكريهــة، وأن وليــدها الجديد دائم الصراخ والعويل، وأن أمى معذبة،وأن أبى المضرب عن أى فعل قد أضــرب عــن الكلام أيضا،وأن سميرة تتفنن فى مشاركتى الصبر والانتظار.

كم هو رائع صمت هذه الجبال الرائعة المحيطة بى من كل الجهات.الإحــساس بــالزمن بــين الأسلاك الشائكة منعدم تماما.يتعاقب الليل والنهار فى صمت.الأسوار التى أقبع بداخلــها تبعــد كثيرا عن أسوار الموت الحقيقى فى مواجهة القناة.قيل ان كتيبتنا هى كتيبة الوساطات..ذلك لأنها تعسكر قريبا من القاهرة بعيدا عن الموت.المخلوق الذى كان يمكن أن يكون واسطتى خــرج ولم يعد.

انهمك قائد الكتيبة فى إلقاء محاضرته عن الدروس المستفادة من النكسة.ألقيت بنظرة متفحصة على وجوه العساكر.تبلد أصيل لامثيل له.رغبة هائلة مستمرة فى النوم.أدمغــة تخلــو مــن أى شيء.انتظار قلق للحظة توزيع التعيين الأميرى من العدس والفاصوليا والباذنجان الأسود.معظمهم عاش حياة الحرمان فى قراهم بالصعيد والأرياف.هذا الطعام الأميرى الذى يعافه المجندون من أبناء

المدن،يقبل عليه العساكر العادة(غير المؤهلين)بشراهة يحسدون عليها.استوعب العساكر الجامعيون حياة الجندية الجافة الصارمة فى وقت قياسى.تحرروا من"دلع"المدينة ورخاوتها وميوعتها.نجحوا فى تطوير الجيش أكثر مما نجح فى تطويرهم.تدربوا بسهولة على أجهزة القتال الحديثة،بل قاموا بتطوير بعضها بنجاح.تجمعاتهم الليلية بعيدا عن الجنود العادة كانت مصدر متعة لى،إلا أنها كانت فى الوقت ذاتع نذير خوف وقلق.

فقد القائد أعصابه فجأة.مر على الطابور بعصبية.سأل جنديا ريفيا فاتحا فمه دون سبب وكأنه يعانى من دهشة أبدية:

–ما اسم قائد الجيش المصرى ياعسكرى؟

لم يعرف.ظل فاتحا فمه.احتفظ القائد بتماسكه وهو يتميز غيظا.سأل آخرين غيره فلم يعرفوا.ارتسمت المأساة على وجهه.أجابه جندى بإسم محافظ المنوفية التى جاء منها.صرخ القائد وكان خفيف الظل:

–ألطم على وجهى؟؟!!..

أمر بتكدير الكتيبة حتى يقوم عساكر المؤهلات بتلقين الآخرين اسم قائد الجيش ومن باب الاحتياط اسم رئيس الجمهورية.

تحاورت مع جندى من الوجه القبلى محاولا الاقتراب من مخه.سألته عن تاريخ حدوث ما اصطلح على تسميته بالنكسة–عنوان المحاضرة–فقال انه عام١٩٧٦،فلمارأيت الأمر كذلك تجرأت فسألته عن الجيش الذى انتصر فى هذه المعركة فأجاب بثقة العارف:

–الجيش المصرى طبعا

رغم تلك الثقة فقد تجلت على وجهه علامات حيرة بائسة وبدا كأنه يتوسل الى أن أذهب بعيدا عنه وأتركه لحاله.خيل الى أنه لافائدة ولا أمل..الأمر الوحيد المتاح هو الانتظار.٨٣٣٢١١٧ جندى مؤهلات عليا مراد عامر يفندم.لست أدرى لماذا الإصرار على هذه الأفندم.كان الهجوم فى الأصل على"الشقيقة"سوريا ولم يكن على مصر.ياجدى الفرعون ألا تلهمنى المشورة من أغوار خلودك الأبدى.لابأس.ليسقط منا الآلاف.لتصرخ النساء كما صرخن من قبل بسبب"الشقيقة"اليمن.الفائزة الوحيدة هى أم فاروق النجار صاحبة الزغرودة المميزة،فهى لاتعنى باليمن أو سوريه أو حتى مصر،ويقال ان الفرح والحزن شيء واحد عند من يفكر بعمق فى مغزى الحياة والموت.

أتخمنا الجندى الثرى الأنيق سليل الأسرة الإقطاعية رضا البندارى بدجاجه ولحمه المشوى وتفاحه وعصائره يوم عودته من إجازة وقال فى تبريره للنكسة:

–ما حدث كان ثمنا لنهب أموالنا ومصادرة ممتلكاتنا فى غيبة من القانون.

اندفع مختار موسى–فى غياب البندارى–مهاجما مقولته بشراسة فقلت له:

– ياقلة أصلك يا أخى.أنت بالذات كنت أكثرنا شراهة فى التهام طعامه

أجاب فى حرقة:

–انه لايستطيع أن يتخيل معنى أن تسكن أسرة من ستة أفراد فى غرفة واحدة. من مثله يعاقبون أولادهم حين يغيبون فى الشارع،أما نحن فنعاقبهم لو عادوا مبكرا قبل موعد النوم

– .....

– هل تتصور أننى قضيت ليلة أفكر فى ابتكار وسيلة أعلق بها سريرا بالسقف فى فراغ الغرفة حتى أتيح مساحة من أرضها لنوم جزء من الأسرة،وحتى يتمكن الأولاد من المذاكرة وتناول الطعام؟..

– اذا كنت تكن لهؤلاء الناس مثل هذه الكراهية فلماذا تقبل الجلوس الى موائدهم؟

–صدقنى أنا لا اكره أحدا،لكن من حقى أن أعيش أنا الآخر حياة آدمية

–وهل منعك أحدهم يا أخى أن تعيش كما تريد؟

كدنا نشتبك فى حوار عنيف لامعنى له.آثرت الصمت فالمشرحة لم يكن ينقصها مزيد من القتلى.تأملت كثيرا فيما سمعته تلك الليلة.أنا لا أستطيع الحصول على شقة ولو غرفة وصالة،فكيف لاأخاف ولا أحزن؟..

ما أن رأيت سالم عطيه سالم حتى انفرجت أساريرى.هو دائم التحفز للسخرية من أى شىء حتى من نفسه.كلما يرانى بجوار مختار يشبهنا برقم عشرة،فمختار طويل جدا بالنسبة لى لأن جسمى ربع.سالم لايستطيع أن يكتب أكثر من اسمه وإن كان مولعا بالتفرج على الصور فى الجرائد اليومية.قال ضاحكا:

– لو علم مختار بحكايتى لحمد ربنا على ماهو فيه.

يسكن سالم فى عشة بناها بيديه على ضفة ترعة المحمودية بالقرب من مصنع النسيج الذى يعمل به.وضع لها رقم ٥٥ بالانجليزية !..قال ان هذا الرقم يمنع الحسد ويدفعه الى الضحك من استحالة وجود شىء فى حياته يحسد عليه.عقدته فى حياته هى التغيير المفاجىء لمحافظى الاسكندرية.كلما جاءوا بمحافظ جديد وضعيده على قلبه ورابط كأسد هصور أمام عشته خوفا من وصول"البلدوزر"فى غيبته لإزالة المبانى غير الشرعية المقامة على ضفتى الترعة ومن بينها عشته.

قال انه حتى هذه الساعة لم يتغير المحافظ الأخير ووصفه بأنه "رجل جدع لأنه لم يفكر فى إزالة بيوت الفقراء ، الظاهر ان أمه كانت على قد حالها".

******

●من الملف رقم(٣) :

فى هذا الملف يا إخوانى سأعرض عليكم نبذة مختصرة من تقرير رسمى حكومى يعقبه استعراض مختصر لرؤية بعض من رموز المقاومة الشريفة لواقعنا الحالى من خلال أحاديث أجريت معهم بجرائد صوت الأمة والدستور والكرامة.هذه الرموز يعرفها الشعب ويقدرها حق قدرها ويحترم كلمتها ،ولكنى سأنوه عن كل منها –لمن لايعرف– بكلمات قليلة من المؤكد أنها لاتوفيها حقها من التعريف الأكمل، أما تحية بسيونى فإنها فى رأيى تعبر عن رؤية قطاع كبير من أفراد الشعب العاديين الذين لايدلون بأحاديث للصحافة ولاتظهر صورهم بالجرائد.

الجهاز المركزى:

يقول تقرير الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء–وفقا لما نشر ببعض جرائد المعارضة–ان مايقرب من١٢مليون مصرى يعيشون فى العراء بلا مأوى،فى المقابر والعشش والجراجات والمساجد وتحت السلالم.القاهرة وحدها بها١,٥ مليون مصرى يعيشون فى المقابر.يتضح من التقرير أن الدولة قد تخلت عن مسئوليتها فى توفير مسكن مناسب للمواطن العادى،وأهدرت كل الإمكانيات المتاحة لها من مال الشعب بوضعها فى يد الأثرياء الذين لايحتاجون الى سكن،والدليل على ذلك هو المليارات التى ضاعت فى إنشاء مناطق سكنية فاخرة لاتتناسب مع مستوى دخل الفرد العادى.تحولت وزارة الإسكان الى وزارة تخدم الأغنياء فقط،وتتجنب تقديم أى خدمة للفقراء..هذا وقد نسبت تهم مشينة الى السيد وزير الاسكان وطالبه أحد نواب مجلس الشعب بالكشف عن مصادر ثروته الفادحة،وهو الذى جاء الى الوزارة–كما صرح النائب–"يامولاى كما خلقتنى"،لكن طلب النائب لم يلتفت اليه.

تحية بسيونى:

–انهم يحضرون دائما بالليل.يعتقلون أبى بمناسبة وبغير مناسبة،ويضربونه ويهينونه،ثم يفرجون عنه.يدخل المعتقل ويخرج منه دون أن يعرف السبب.

قلت لها والحسرة تملأ قلبى:

–لست أجد كلاما أعبر لك به عن أسفى وقلة حيلتى

–ليت جرمهم قد توقف عند هذا الحد

–ماذا فعلوا أيضا؟

– رفضوا قبول أخى فى كلية الشرطة رغم اجتيازه جميع الاختبارات بنجاح

مهدى عاكف:

قال رئيس مجلس الشعب انه لايوجد مايسمى بكتلة الإخوان المسلمين فى المجلس، وان من يقول ذلك سيحال الى لجنة القيم.

...مهدى عاكف هو المرشد العام للإخوان المسلمين..سأله محرر جريدة الكرامة:

- من يدير مصر الآن ؟
- مصر يديرها الآن الجهاز الأمنى ولايديرها سياسيون،والجهاز الأمنى متسلط لايحترم القانون أو الدستور،وهو فى النهاية يأتمر بأوامر الساسة الذين يتسلطون على الشعب ويقهرونه فى كل مكان.
- ماسر التضييق الأمنى على الإخوان؟
- لايوجد سوى أن هذا النظام استبدادى يقهر الشعب،وكلما ضعفت قبضته ازداد بطشه.
- تقول بعض التحليلات السياسية ان هذا الحصار الأمنى الغرض منه إجباركم على قبول صفقة التوريث وأنكم سترضخون فى النهاية..
- لايستطيع أحد أن يجبرنا على شىء لانقبل به،وموضوع التوريث مرفوض رفضا باتا،سواء بالمادة٧٦أو بغيرها،فنحن نرفض أن يأتى جمال مبارك وريثا تحت أى شكل،وإذا أراد أن يدخل انتخابات فبعد دورة أو دورتين من ترك أبيه الحكم.

وفى حديث آخر له قال اننا نحن الإخوان لانريد الصدام مع السلطة حرصا على الوطن وليس خوفا من جحافل الأمن التى تحميها.لقد فقدنا على يد الحزب الفاسد كل معانى الهمة والنخوة للدرجة التى جعلته يقوم بتسليم الجاسوس الاسرائيلى دون أدنى مفاوضات لإخراج الأسرى العرب بسجون اسرائيل والذين يتجاوزون العشرة آلاف،ورغم أن عزام عزام قد خرج بنصف المدة–حسبما قالوا–إلا أن الإخوان مازالوا فى السجون رغم أنهم قضوا نصف المدة.

تحية بسيونى:

–تصور يابشمهندس..ربع مليون قرار اعتقال فى عشرة سنوات!

فهمى هويدى:

–كانت أصداء هزيمة١٩٤٨ هى السبب فى إشعال ثورة١٩٥٢ هل ترى أننا مقبلون الآن على أجواء ثورة مماثلة خصوصا أن الأوضاع الاقتصادية والسياسية فى عهد مبارك أسوأ؟

أجابه :

–المسائل اختلفت كثيرا،فسلطة الدولة الجبارة أيام الملك فاروق لايمكن قياسها بسلطة القمع والطغيان فى عصر مبارك،وأستطيع أن أقول لك إن إطالة أعمار الأنظمة المستبدة باتت ممكنة من خلال وسائل كثيرة،القمع فى الداخل والرهان على الخارج،لكن الثورة ممكنة والغضب الشعبى

قادم وكل الاحتمالات واردة..يعنى لو قام الغضب سوف تحدث فوضى كبيرة ويسقط النظـــام حتى لو تدخلت أجهزة النظام القمعية.

– وماذا عن عزوف الجماهير عن الالتحام بكل حركات التغيير؟

– هذا جزء من السلوك والتركيب الاجتماعى للشعب المصرى الذى لايتظاهر ولايتجمهر إلا نادرا.

– لكن الشعب المصرى تحرك بقوة فى انتفاضة يناير١٩٧٧

– لقد مر على هذه الانتفاضة أكثر من ثلاثين سنة،ومن ثم فهى استثناء يؤكد القاعدة،فالشعب المصرى ليس كالشعب الفرنسى أو الأوكرانى،ومحاولة تجميع المصريين فى مظاهرة ضد الحكومـــة من أصعب ما يكون.

...فهمى هويدى كاتب صحافى ومحلل سياسى كبير.

تحية بسيونى:

الشيء المؤلم والمحزن أن الشعب قد استكان للقهر واستمرأه ولم يعــد يريـــد أن يتحـــرك حـــتى الآن،ولكنى لم أفقد الأمل، فلابديل عن الثأر ولو على جثثنا جميعا.

عزيز صدقى:

إن أى شخص يتابع الأحداث الجارية من الممكن أن يتوقع أن العد التنازلى للحظة انفجار الشعب قد بدأ،فكل يوم حوادث قطارات وانتشار أمراض وغلاء أسعار وحبس صـــحفيين وتعـــديلات دستورية مفصلة على نجل الرئيس وقمع للمظاهرات داخل الجامعة،وجميع هذه الأحداث مقدمـــة للحظة الانفجار التى أتوقع أن تحدث عندما يستمر الرئيس وحزبه فى مسلسل التوريث،وستكون لحظة انفجار الشعب هى لحظة تولى جمال مبارك الحكم.

...عزيز صدقى هو أبو الصناعة المصرية ومؤسس قلعة القطاع العام الصناعية فى عهـــد عبـــد الناصر.

******

● مراد عامر:

سألنى النادل العجوز:

–لماذا تعلق صورة حسن نصر الله بالمقهى دون غيره ؟

فقلت له وكانت دماغى حاضرة:

– لأن زمن انتظار صلاح الدين وعبد الناصر قد انتهى

******

٨٣٣٢١١٧ عريف مؤهلات عليا مراد عامر يفندم..وأفندم هذه كلمة تركية،وقد خلق الله الأتراك والعثمانيين والإنجليز والفرنساويين والفرس واليونانيين والرومان ليحتلوا أرضنا على مراحل تاريخية مختلفة.فى تلك السنوات لم تكن عبارة"**lands occupied**"قد ابتكرت بعد،لتثير الحيرة المتعمدة والجدل المقصود،فهل هى أراض احتلت أم الأراضى التى احتلت.هذه العقول الاستعمارية البغيضة تتفنن فى خداعنا وتستخف بعقولنا وقدراتنا.الكلب الاستعمارى الكريه الذى صاغ هذا القرار،والذى سقط اسمه من ذاكرتى،كان يعلم جيدا أن الحق يقتضى التعريف حتى يحسم الأمر..آه من الضعف والاستكانة والاستسلام والتخاذل.يبدو أننا نستحق مايفعلونه بنا،فمن رضى بالأدنى حرم من الأعلى.

فى تلك السنوات كانت هناك أيضا"مراكز قوى"،لكن التعبير نفسه لم يكن قد ظهر بعد الى النور،وإن كان هتك الأعراض وتعرية النساء من ملابسهن الداخلية أمام ذويهن،والنفخ والكهربة ونزع الأظافر ووضع الأوتاد الصلبة فى المؤخرات أمرا واقعا.الذى يحزننى أن الذين يرتكبون هذه الأفعال الخسيسة هم أناس من أبناء الشعب نفسه وليسوا أجراء من جهنم الحمراء،لكن السمة الغالبة عند معظمهم هى السادية والنفس المريضة،فمتى اليوم الذى أشعر فيه بالأمان فأرى على جبينك المشرق تاج الجمال يتلألأ فوق طرحة زفافك البيضاء؟..يجمع الخلق على أنه حيث لاسلام ولا أمان فلا حياة ولاحب،ولكنى أرى أن الحب هو الحل الوحيد لمسألة الحياة..أقرأ الآن خطابك الأخير على ضوء شمعة،فالغارات مازالت تجريبية..معه حق صهرى الطيب الخجول حين يتبرم من موقفى.خدعته وعقدت قرانى عليك وأنا مهدد بالموت..لكن أين وطنيتك يارجل ياطيب أين إيمانك؟..إنى هنا لأدافع عنك وعن ابنتك،وإن لم يعجبك هذا القول الإنشائى فإنها قالت لك فى حسم وقطع بأنها تموت ولاترتبط برجل غيرى،أما انا فقلت لنفسى ما أحلى الحب ياناس، وما أجمل أن يجود علينا المستقبل بأيام ننعم فيها بالحرية فى وطن تسوده العدالة ونهنأ فى ظله بالرفاهية والاستقرار..إننى متفائل.

******

●من الملف رقم(٤):

أنا لم أتراجع عن وعدى بتقديم ملفاتى لكل من يطلع على مذكراتى ويهتم بأمر هذا الوطن،فما حدث منذ أربعين عاما أراه نعيما ورخاء ورفاهية بالقياس الى مايحدث اليوم.اجمالى ديون مصر اليوم٦٥٠مليار جنيه.حوالى ٤٠% من الشعب يعيش فى فقر مدقع، منهم ٩ملايين أسرة تعيش على دخل يعادل ٦٠ جنيه شهريا.تم تهريب ٣٠٠ مليون دولار للخارج، وأكثر منها خطفها رجال الأعمال المسيطرين على الحكم. الجنيه المصرى انهار الى أقل من سدس قيمته. أنا انقل هذا

الملف من إحصائية قام بتجميعها شباب الحركة المصرية من أجل التغيير والتى اشتهرت باسم"كفاية".كانت ديون مصر فى بداية عهد مبارك٢٨مليار جنيه تضاعفت اليوم الى عشرات الأضعاف.سجل شعبنا اعلى نسبة إصابة بالسرطان فى العالم، وأكمل الاكتئاب على مايقرب من٣٠% من شبابه الذين أصبحوا يعانون من الضغط والسكر والذبحات الصدرية والإرتخاء،وفتكت الأمراض النفسية بستة ملايين آخرين..بينما يجلس ٢٩% من القادرين على العمل على المقاهى بسبب البطالة والخصخصة.أكثر من ٩ملايين شاب وشابة منهم أربعة ملايين تجاوزوا الخامسة والثلاثين ومازالوا جميعا غير قادرين على أعباء الزواج.

بدأ النظام منذ ربع قرن بالإفراج عن الذين اعتقلهم السادات فى سبتمبر١٩٨١،وانتهى بما يقرب من ١٧٠ ألف معتقل ترددوا على المعتقلات خلال هذه المدة، ولقى منهم بالسجون حتى الآن ٢٢ ألفا.كانت البطالة بعد حادثة المنصة تمثل ٥% من القوى العاملة للشعب،زادت اليوم الى ٢٩%.أكثر من ثلاثة آلاف شاب سنويا سقطوا فى براثن الانتحار طبقا لأرقام وزارة الداخلية، بينما هرب الآخرون إما الى المخدرات ينفثون فيها إحباطهم بما قيمته ٦ مليار سنويا،وإما الى الجماعات الدينية المتطرفة بحثا عن خلاص وهمى..الفشل الكلوى والكبدى دمر حياة أكثر من ٢٠% من الشعب من جراء الأسمدة السرطانية المستوردة بلا رقيب أو ضمير. النتيجة أن أصبح أقل من ١٠% من الشعب يمتلكون أكثر من ٤٠% من ثروته.هكذا انتكس الشعب وغرق فى اليأس والاحباط.نسى الحب والتراحم والتسامح والشهامة،لابفعل الصواريخ والقنابل والمدافع، ولكن باستمرائه الصمت على حكامه الذين قتلوا بداخله الرغبة الصادقة فى الحياة، بحيث لم يعد قادرا على الاعتراض أو الاحتجاج الصامت فى مظاهرة سلمية تحشد لها الداخلية جيوشا مجيشة من عساكر الأمن المركزى وضباطهم، يقفلون الشوارع ويعطلون الطرق غير عابئين بمصالح الناس.تفاقمت الرشوة والمحسوبية والبلطجة وتعاظم إرهاب السلطة وامتهان آدمية المواطنين.ألغيت أدوار الجمعيات الأهلية والنقابات المهنية وتدهور التعليم وأصبحت مصر بلدة طاردة لشبابها الذين تعرضوا للموت، إما غرقا وهم يهربون منها عن طريق البحر فى سفن صغيرة غير شرعية، وإما خنقا فى الصحراء وهم متلاصقون داخل عربات مقفلة بلا تهوية..غير أن شابا من أسيوط عمره خمسة وعشرون عاما قد واتته الشجاعة فغافل الحراس ودخل من باب القصر الجمهورى المطل على شارع العروبة بمصر الجديدة،حين جرى وراءه الحراس وأمسكوا به.قال ان الرئيس وعدنا فى برنامجه الانتخابى بالقضاء على البطالة وأنا أريد منه أن يجد لى عملا،علما بأننى متخرج فى كلية التجارة منذ عدة أعوام وليس لى نشاط سياسى ولم أجد عملا إلا ليوم واحد فى محل كشرى.

سخر منه الحراس وأشبعوه بالطبع ضربا على قفاه–على الأقل– وحولوه الى مباحث أمن الدولة التى حولته الى نيابة مصر الجديدة،حيث قرر رئيس النيابة إيداعه مستشفى الأمراض العقلية لمدة٤٥ يوما للتأكد من صحة قواه العقلية من حيث أنه طلب مقابلة الرئيس..

******

حين أفكر فى حياد وتعقل،أدرك أن حبى لغصون هو لذة لابد أن يعقبها ألم،وشهوة لابد أن تورث الندم..أنجذب بشغف الى ابن حزم وكأنه يخاطبنى وحدى من دون البشر: " إعلم ياامراد ياابن عامر أعزك الله أن للحب حكما على النفوس ماضيا وسلطانا قاضيا وأمرا لايخالف وحدا لايعصى وملكا لايتعدى وطاعة لاتصرف ونفاذا لايرد،وأنه ينقض المبرر ويحل المبرم ويحلل الجامد ويخل الثابت ويحل الشغاف والممنوع،فلايملك الانسان لنفسه حينئذ صرفا ولا عدلا،وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكمه على العقل،حتى يمثل الحسن فى تمثال القبيح والقبيح فى هيئة الحسن،وهنالك يرى الخير شرا والشر خيرا،وكم مصون الستر مسبل القناع مسدول الغطاء،قد كشف الحب ستره وأباح حريمه وأهمل حماه،فصار بعد الصيانة علما وبعد السكون مثلا،فسهل ما كان وعرا وهان ما كان عزيزا ولان ما كان شديدا"..

وهذه الغصون التى أشغفها حبا عمرها من عمر ابنى عادل.كثيرات من معارفى وأقاربى ممن هن فى مثل عمرها ينادوننى بلقب"العم مراد"،فهل يعقل أن يعشق رجل امرأة فى عمر ابنة أخيه،وأن يحلم بها فى الليل ولايتوانى عن ذكرها فى النهار؟..نعم يعقل.أنا مازلت عند قولى القديم:"ما أحلى الحب ياناس"..الذى تغير فقط هو المحبوب لكن الحب باق لأنه مخلد على الأرض بأمر السماء.منذ بدء الخليقة والحب يرتبط بمشكلة.آدم وحواء تحابا فعوقبا.الذى خلقهما خلق لهما الشجرة لكنه حذرهما من الاقتراب منها.الحب أنساهما الإنذار.هو كان يعلم مسبقا بما سيحدث وإلا لما أنزلهما الى الأرض لتحقيق مشيئته.حبى لسميرة ارتبط بمشكلة المال والحرب.حبى لغصون ارتبط بمشكلة الجمود والتحجر.انتهت الحرب ،كما اننى لم أعد أعانى من مشكلة نقص المال،أما الجمود والتحجر فمازالا يجثمان على كل الصدور،بما فيهم صدرى الذى ضاق بالماضى وقرر أن يطوى صفحته الى الأبد.

******

٨٣٣٢١١رقيب مؤهلات عليا مراد عامر.مصرى والصبر صفة وراثية أزلية أبدية فى دمى.بدونها تنتفى فرعونيتى ومسيحيتى وإسلامى وعروبتى..حتى أطرد اليهود من أرضى أنا على استعداد لأكل الزلط وابتلاع الرمال وشرب البول ونزف الدم..والترف جاء منه الاستتراف.مصطلح جديد لكنه رائع هذه المرة.يتسلل رجالنا فى الظلام عابرين كل العوائق والموانع والحواجز،فترتجف

أوصال العدو لمباغتتهم.يعود الرجال ويروحوا ويجيء غيرهم ويروح وأحيانا لايعــودون.يطــول الانتظار ويعشش عنكبوت اليأس فى القلوب ونعتاد الخندقة والتبلد والتمزق،ولياليننا طويلة عنيدة ملتحفة بالصمت،عازفة عن الإفصاح ولو بلمحة عن الغيب.نحاول تقصيرها بحكايــات الحــب نتبادلها أنا ومختار وسالم عطية والبندارى..حب العشش الصفيحية وضفاف الترع المهملة والأزقة والحوارى والغرف الضيقة،وحب القصور الشبعانة المتخمة المطمئنة..فى هذا الموت الأصفر يحلــو الكلام عن الحب.

فجأة تفتقت عبقرية قائدنا الهمام عن تعيينى حكمدارا لسجن الكتيبة.أصــبحت ســجانا!!..لم تمض أيام قليلة حتى صرت واحدا من المساجين.فاجأنى حضرة الصول صباحيوم جميل سكنت فيه رمال الصحراء وأشرقت الشمس وصــفت الــسماء،وكان بــاب الــسجن مفتوحــا علــى مصراعيه،والمساجين يغنون فى رقصة جماعية–أشاركهم فيها الرقص والتصفيق والقهقهة–أغنيــة تسخر من تمجيد المسئولين لموقف الجنرال ديجول المؤيد لنا،بينما كانت طائرات المستير الفرنسية الصنع تعربد فى فضائنا بين الحين والآخر كيفما يحلو لها.نظرت اليه فى بلادة–لاهى طبيعية ولاهى مصطنعة–وهو يزأر فى وجهى:

–ما هذا يا رقيب ؟!..

لست أذكر إن كنت قد ذكرت من قبل أننى فى كثير من الأحيان لاأومن بجدوى أى شــىء،وفى هذه الحال يمكننى أن أقول أو أفعل أى شيء.

–العساكر تنظف الكتيبة يفندم

– أتسمى هذا الرقص وهذه المسخرة نظافة يا رقيب؟

–يافندم..أصل..ال..

–لاأصل ولا فصل..عندك مكتب أمام قائد الكتيبة

طارت منى شريطة من شرائطى الثلاث التى كانت تزين كتفى،فعدت عريفا من جديد أحمل على كتفى شريطين فقط.

فى السجن تحاورنا حول شخصية قائدنا.أحببت فيه ذكاءه الشديد وتفانيه فى عمله،أكثر ممــا أحببت خفة ظله.تحاورنا حول الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومؤتمرات القمة العربيــة والأفريقيــة والكونية والمعركة والهجوم والحل السلمى وما أخذ يالقوة..تحدثنا عن انتهاء مرحلــة الــصمود وبداية مرحلة الردع ثم الاستنزاف واللاسلم واللاحرب..كلها كلمــات مجــردة مــن الفعــل المؤثر.كدت أصاب بالصمم لكثرة زنها وطنينها فى عمق طبلة أذنى.أمريكان وروس ومــصريون وسلام عالمى ودخان سجائر تحجب سقف العنبر والليل طويل والجنود المؤهلات يلعبون القمــار

لقتل الوقت ويسخرون من طول أنف ديجول ويسبون أم جونسون..ولقد سمعت كما سمع غيرى أن "جرجس"سائق عربة التموين كان يصطحب"صفوة"منهم الى منطقة صحراوية نائية على وشك أن تشهدقيام بنايات عسكرية كبرى. بالقرب من هذه المنطقة تلقى الوحدات العسكرية المجاورة قمامتها ونفاياتها.تتجمع أكواما فوق أكوام، فتأتى "ناديه هلاهيلو"-لست أدرى من أين- لتجمعها على مراحل فوق عربة خشبية صغيرة متهالكة يقودها حمار هزيل أجرب، لست أدرى أيضا الى أين يذهب بحمولته.يقف طابور العسكر الذين اصطفاهم جرجس فى الظلام،وأحيانا فى وضح النهار لو أتيحت الفرصة.كل ينتظر دوره مع هلاهيلو.العسكرى بعشرة قروش لاغير.تنتهى ناديه من مهمتها وتذهب بقمامتها وقروشها،ويعود العساكر بوساختهم مبتهجين..وقد سمعت أيضا أن هناك ضاحية نائية يطلقون عليها اسم"العزبة"يقيم بها عمال البناء والخفراء ومعظمهم من وجه قبلى.هناك تشتعل الجوزة ويحكى الجنود القدامى عن قصص انسحابهم وعن أصدقائهم الذين تناثرت شظايا أجسامهم على تراب سيناء،وعن كبار قواد الجيش الذين كانوا يستعدون للحرب من خلال جلسات تحضير الأرواح.تقصيت عما سمعت من أخبار فتبين لى صحتها.ازداد اتساع شرخى وحاولت العودة الى الصلاة.كنت أستجيب لنداء الشيخ صقر حين يحضر الى مخيماتنا وعنابرنا قبيل الفجر يوقظنا للصلاة.يتلقى من الجنود الغرقين فى نومهم سيلا من أقذع الشتائم.قال أحدهم يوما وقد أبرز رأسه من تحت غطائه دون أن يتحرك أو ينفعل:

-لك على أن أصلى ولكن ليس قبل أن يعيد الله الينا سيناء

يسهرون طويلا يمزقون أوصال الوقت الكريه،يبدو عليهم الانهماك والتركيز الشديد وبأيديهم أوراق"الكوتشينة".تنطلق ضحكاتهم حين يقول أحدهم ان عجوزا قد اصطدم بضابط فى الطريق العام فاعتذر له الضابط مبررا خطأه بأنه كان يجرى ،فقال له العجوز:

-مسكين يابنى..أما زلت تجرى من ٥يونيه حتى الآن؟

******

قررت أن أفضح نفسى أمام شلة البار ،فأبوح لهم بعشقى وأستمع الى ما يقولون وهم مخمورين،وليكن ما يكون.صحيح أن كلامهم لايعول عليه فى شىء فى مثل هذه الحال،لكنى أجده أحيانا يقطر حكمة وفلسفة.قررت أن أقول لهم أننى أحب امرأة شابة وأعشقها،وأننى سأموت مجنونا لو لم تبادلنى الحب بالحب والعشق بالعشق.كنت على استعداد لأتقبل منهم الضحك والسخرية،ورضيت أن أكون مادة فكهة لسهرهم، على أننى أسمع كلمة ترضينى قد تنفلت من أحدهم تحت تأثير الكحول.لكنى ما أن جلست بينهم حتى وجدت نفسى أتراجع عن قرارى دون

أن أهتم ان كان هذا التراجع عن جبن أم تعقل.بادرني عبد الله السعيد بقوله في سـخرية خبيثـة ولكن ظريفة:

–أهلا يامعلم..نورت القعدة

قال رفعت معقبا:

– لايحق له هذا اللقب مادام يلبس مثلنا

تساءلت فاديه متهكمة في خبث أشد:

– ماذا تقصد يارفعت بيه؟كلنا نلبس مايلبسه الآخرون في هذا البلد الجميل

ثم انفجرت في ضحكة عفوية حين قال عبد الله:

– أنا فاهم..لكني أقصد أن يلبس جلبابا بلديا

جعلني هؤلاء السكارى أفكر بجدية في الأمر.أحمد فؤاد نجم ومحمد مستجاب يلبسـان الجلبـاب البلدى ويظهران به على شاشة التلفزيون.لم ينتقص الزى الشعبى شيئا من قيمتـهما الأدبيـة في الشعر أو القصة.تساءلت هل يتفق أن أرتدى الجلباب البلدى وأجلس مع غصون التى ترتـدى الجينز في مكان عام يليق بها؟..إن فكرة الجلباب تستهوينى بشدة.سبق أن تبادرت الى ذهنى هذه الفكرة للحظة مضى عليها مايقرب من عشرين سنة.كنت واقفا أمام المرآة في دورة مياه بأحـد الملاهى الليلية في أوروبا.لم أعد أذكر اسم البلد على وجه التحديد.الذى أذكره أننى كنت مخمورا وأنا أتبول.كنت أرتدى قميصا وبنطالا ملونين.تصورت نفسى في جلباب بلدى في نفس اللحظة، وربما صورت لى الخمر أننى كنت أرتديه بالفعل .كان لونه رماديا أنا متأكد من ذلـك،وإلا لمـا نسيت لونى القميص والبنطلون.

******

طابور الصباح وتحية العلم والضبط والربط.في هذا الطابور يحلو لى أن أدندن في خفوت بموسـيقا شعبية معروفة. بينما نحن منهمكين في تحية العلم ، روى لى مختار في عجالة هامسة حادثة مؤسـفة بطلاها سباك شاب وفتاة صغيرة.قطع علىّ استرسالى مع النغم قائلا ان هذه الحادثة هى السبب في النكسة.هتفنا تحيا جمهورية مصر العربية ثلاثا ثم سألته من أين جاء بهذه الوساخة على الصبح.ذكر لى اسم جريدة حكومية أكرهها لأنها تنشر كل يوم بلا استثناء صورة كبيرة لمسئول سياسى ضخم الوجه تفح معالمه بالغباء والبله،وقد وضع ذقنه فوق كفه وبحلق بعينيه في الفضاء محاكيـا أفـذاذ العباقرة،وتحت صورته أعمدة طويلة عريضة من كلمات كالغثاء،ساذجة جوفاء لاتمت الى واقعنا بصلة..وكنت قد سمعت جدتى تقول يوما:

–لا تأخذ من الحمار الضعيف إلا الضراط القوى

كل ما نملكه هو الكلام عن"مصرنا العزيزة" دون فعل.هرب الكثير من الأغنياء مـن المـساهمة بشيء من ملايينهم المكدسة،بينما"تبرع"الموظفون التعساء-إجباريا- بيوم من راتبـهم الـشهرى للمساهمة فى إزالة آثار العدوان. تفشت بين الجنود روح مازوكية كريهة فراح كل منهم ينسب هزائمه السابقة والحاضرة فى الحياة الى هزيمة الجيش ،وينسب هزيمة الجيش اليها..وقـال إمـام المسجد اننا تخلينا عن الله فتخلى عنا وقال البعض انهم سعداء بهزيمة الجـيش شماتـة فى تـسلط الضباط وإحساسهم المتعالى بامتلاك البلد بما فيها ومـن فيهـا.كانـت الهزيمـة عـن جـدارة واستحقاق،فهل كانت تستحيل الى نصر لو لم يضاجع سباك فتاة صغيرة جاءته الى دكانه وطلبت منه أن يفعل بها مثلما رأت أباها يفعل بأمها كل يوم فى نفس الغرفة التى تنام بهـا مـع إخوتها وأخواتها؟..هل كانت الهزيمة تستحيل الى نصر لو وجد سالم ومختار ومراد سكنا آدميا ودخلا يتيح لكل منهم حياة كريمة؟..من الصعب على ذاكرتى أن تضعف أمام تلك الفتاة الـتى ضـبطت فى وكر مشبوه ،وحين قبضوا عليها ثارت عليهم لأنهم تسببوا فى تأخير عقد قرانها،إذ كانت بسبيل جمع آخر مائتى جنيه-بعلم خطيبها- لدفع خلو الشقة..أما سميره فمازالت توصينى بالمواظبة على الصلاة.تقول ان الدين هو أيسر السبل لخلاص الإنسان.لست أدرى كيف توصـلت الى هـذه الحقيقة رغم أنها لاتعنى كثيرا بالمعرفة.إننى أحسدها على حالها فما وراء المعرفة غير الغم والقلق ، فضلا عن التردد فى اتخاذ أى موقف من أى شيء فى الحياة.

ملاحظة هامة:

أعتذر لكل من يقرأ مذكراتى عن انسيال أفكارى فى كثير من الأحيان بلا ضابط ولا رابـط ولا قانون يخضع للترابط بين الأحداث أو لتسلسلها الزمنى،فأنا لاأكتب رواية،ولا أعرف شيئا عن فن الحبكة القصصية.إننى أفضفض عن نفسى ياناس طالبا الرحمة من الله حتى لا أختنق.

عـــــــودة:

وصلنى خطاب عاجل من مدحت:"انقذنى ياصديقى العزيز..نرجس حاولت الانتحار"..

لم أكن محترف حصول على إجازات كشأن معظم الجنـود،لكنى رأيـت أن الوقـت طويـل والانتظار أطول،وأن المعركة قد تأجلت الى أجل غير مسمى.لابأس اذن من العودة الى الاندماج فى الحياة المدنية.أرى أهلى وأصدقائى،أجالس حبيبتى وأبادلها القبلات وأحاديث الأمـانى.قـال مدحت:

-أنا عاجز عن اتخاذ قرار فى حياتى حتى الان..حتى قرارى بالزواج وقبول تحدى أبى لم يكـن قرارى أنا.فى البداية كان هذا العجز يؤلمنى ويشعرنى أننى انسان مشلول الإرادة تقتـرن أفعـالى المحدودة فى الحياة على كونها مجرد ردود أفعال لأفعال أخرى تفرضها على الظروف.أما الآن فلم

أعد أشعر بالعجز أو الألم ، بل أصبحت أستمرىء الاستسلام.ان الاستسلام للحياة لتفعل بالإنسان ماتريد، شيء مريح للغاية وإن كان لايختلف كثيرا عن الموت.ومادام التمرد على الموت شيئا مستحيلا،فلا معنى للتمرد على الاستسلام. رغم ذلك يخيل الى أنه قد يأتى على يوم أرفع فيه راية العصيان على الدنيا بكل مايكمن فى نفسى من عنف مضغوط.

وقالت نرجس:

–لا أريد هذه الحياة التعسة.لماذا أنقذتمونى؟

لم يعرف أحد سر محاولتها الفاشلة.لم يكن عجز مدحت عن تدبير سكن مستقل للزوجية مبررا كافيا يدفعها للتخلص من الحياة وإلا لانتحرت نصف بنات مصر.كانا يقيمان بمترل أسرقما.خطر ببالى سبب لامعقول،ربماكان هو الدافع الى ذلك.لماذا لايكون النكسة؟..ثم قلت بعد اندثار الخاطر انه لايعقل أن تنسى نرجس احساسها بالضيق والذل لمعيشتها المشتركة مع أسرقما كبيرة العدد وهى المعيدة بكلية الآداب وزوجها وهو الطبيب المحترم، فتنتحر حزنا على ضياع سيناء..ولا يعقل أيضا أن تتنازل عن تطلعاقما المتعطشة للرفاهية والثراء فتقتل نفسها تضامنا مع أرواح الشهداء، أو أن تتحرر من غيرقما الشديدة من شقيقتها وشقيقات زوجها بلا مبرر معقول ،فتفعل بنفسها مافعلت.سألت سميرة:

– لماذا فعلت ذلك بنفسها؟

كانت حيرقما بالغة.بكت وهى ترجونى أن أساعدها فى الكشف عن سؤ شقاء أختها.قلت لها:

– سأحاول ما بوسعى مع مدحت،لكن ذلك لايمكن أن يتم قبل حدوث المفاجأة

– أية مفاجأة؟!

بعد مضى أسبوع وجدتنى واقفا أمامها بالزى العسكرى قائلا:

– هاهى المفاجأة أمامك الآن

– لا أفهم

– نقلت الى الاسكندرية

لم تتمالك نفسها من الفرحة.تعانقنا بقوة.سألتنى بلهفة:

– وماذا عن رغبتك الدائمة فى الذهاب الى الجبهة؟

– تبخرت تماما

******

حين قلت لقائد الكتيبة فى صحراء ألماظة:

– أريد أن اتزوج

قال لى بابتسامة ساخرة:

– كيف وشكواك عن الإفلاس لاتنقطع؟

– عثرنا على شقة بمعجزة

بمحض صدفة سألت سميرة طالبة من طالباقا–وقد لمحت دبلة خطوبتها–إن كانت تبحث عن شقة خالية.لم تصدق سميرة أذنيها حين وعدقا الطالبة بأن تقدم لها الشقة دون دفع خلو أو مقدم إيجار ، محبة فيها.لم تصدق عينيها أيضا وهى تتفرج على الشقة مع الطالبة وأبيها المقاول المعمارى الكبير.أرسلت الى برقية عاجلة.حضرت على الفور.

من حارة ضيقة أحببتها بعمرى كله، الى شارع كبير يموج بحركة الناس والعربات وتحف بجانبيه الأشجار المعمرة.يا الهى هل تتحقق معجزاتك بهذه البساطة التى تفوق كل التوقعات والأحلام؟..وقعت العقد بأصابع ترتعش فرحة وذهولا. لم أجد معنى لكل ما سبق أن عانيت من قلق وتوتر أمام هذا الموقف القدرى العجيب.كانت الطالبة تحب سميرة حباشديدا فأحسنت التعبير العملى عن هذا الحب.قالت نرجس لسميرة بوجه مخطوف اللون وعينين منطفئتين:

– مبروك ياسميره..العقبى لى

وقالت لى حماتى الجميلة الوجه الدائمة الابتسام كطفلة:

– أنت ابن حلال مصفى.مارأيت شابا فى حسن نيتك

لم يبق إلا أن نتزوج فتزوجنا. لو لم أقترض خمسمائة جنيه من محيى–رغم تشاؤمى منه– لتأجل الزواج عاما كاملا.

فى الاسكندرية كان قائد وحدتنا الجديدة زميلا لى بالكلية قبل أن يلتحق بخدمة الجيش العامل.منحنى اجازة طويلة حتى أشبع اغترافا من عسل الحب.لم تكد تمضى أربعة أيام على زواجنا حتى راحت عربة نقل الجنود تجوب شوارع الاسكندرية وأزقتها لتجمع الجنود من اجازاقم،إذ أعلنت حالة الطوارىء فجأة لوفاة جمال عبد الناصر..فلوس محيى حلت بركتها!!..أمام مترلى قال القائد:

– اتركوا"مراد" لعدة أيام أخرى فإنه فى مهمة

كنا ساعتها فى السنيما.أطفئت الأنوار وفتحت الأبواب على النبأ الصاعق. اجتاحنا طوفان من المشاعر الغامضة المغلفة والمبطنة بالخوف من المستقبل.فكرت من جديد فى طلب الانتقال الى الجبهة.خرجنا الى الشارع.كان الشباب يبكون ويتساقطون على كراسى المقاهى كالذباب الدائخ.بعد مضى سنوات عديدة سب هؤلاء الشباب عبد الناصر وأرجعوا كوارث البلاد الى حماقته ودكتاتوريته.

بصعوبة بالغة استوقفنا عربة أجرة أقلتنا الى المترل..أدخل الرجل اليهود الى مصر ورحل فنسى الناس كل حسناته.كان قد تخلى قليلا عن ثوريته قبل رحيله فقبل "مبادرة روجرز"الأمريكية.لكن مبادرة عزرائيل كانت أقوى وأسرع، فلحق بنظيره حورمحب الذى كان ينتظر لقاءه منذ آلاف السنوات.فرعونية هذه الأرض لم تتبدل رغم تواتر الفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك والانجليز عليها.رغم ذلك فقد حزنت على هذا الرجل كثيرا.قلت لسميرة ان البلد فى حاجة الى دبلوماسى محنك أو بالأحرى"صايع" لينقذها من ورطتها الكبرى.الأرض محتلة والعرب يذبحون بعضهم البعض فى الأردن.الملك حسين يقتل الفلسطينيين بفلسطينيين.سميرة خائفة وحزينة.توترت أعصابها ولم تستطع تناول العشاء.حاولت التسرية عنها بذكر الواقعة التى لاتنسى حين قال المأذون ليلة عقد القران:

–قبلت نكاحها على مذهب الإمام أبى حنيفة

كان من الضرورى أن أردد وراءه مايقول.لم يكن أمامى وقت أفكر فيه فى مسألة النكاح سواء على مذهب أبى حنيفة أم غيره، خاصة وأننى اسمع لأول مرة أن للنكاح مذاهب،وأن ذهنى لم ينصرف الى كلمة النكاح بمعنى الزواج،وإنما تشبث بالمعنى الآخر.كنت أرغب بشدة فى الضحك من أعماقى،لولا رهبتى من وقار الكبار الحاضرين الذين يستمدون بعضا كبيرا من قيمتهم فى الحياة لمجرد تواجدهم فى مثل تلك اللحظات.اكتفيت بابتسامة ماكرة لكن سميرة فهمت ما وراءها.

ضحكت سميرة لذكر هذه الواقعة.واصلت مداعباتى لها وفى القلب هم كبير.لم نستطع تحطيم حواجز الخوف والحزن والقلق إلا بعناق طويل دام تجدده حتى ساعة متأخرة من الليل.

******

أنا والله قد احترت مابين شاعر يقول:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب إلا للحبيب الأول

وآخر غيره يقول:

دع حب أول من كلفت به   ما الحب إلا للحبيب الآخر

ما قد تولى لا ارتجاع لغيبه   هل غائب اللذات مثل الحاضر

طالت حيرتى سنين عديدة حتى جاء يوم الحسم ، حين وقفنا فى منتصف الصالة بشقة العرس الجديدة ينظر كل منا الى الآخر فيما يشبه الذهول،وكأنه اكتشاف سرى غامض برق فى مخيلة كل منا فى لحظة واحدة بأن الرجل عجوز والمرأة فى ذروة الشباب.لايستطيع أحدنا ان يغير هذه الحقيقة، وإن كانت الحقيقة قادرة على أن تغيرنا.أعقب لحظات الصمت انفجار متبادل فى

الضحك بغير سبب.كلما سأل أحدنا الآخر عن سبب ضحكه لم يجد هناك إجابة.عندما استرفت لحظات الضحك نفسها تعانقنا فكانت قبلاتها احلى من العسل.حملتها كعصفورة ووضعتها علـــى الفراش برقة.كان فى عينيها ضعف المرأة الجميل،وفى نظراتها استسلام للأقـــوى.لم ينتـــبنى هـــذا الشعور ليلة زفافى على سميرة،لذلك لم تخطر ببالى فكرة أن أحملها الى الفراش.عنـــدما كنـــت فى السويد كنت أحمل "كارينا" ذات العشرين ربيعا على يدى وأجرى بها فى الشارع وهى تـــصب زجاجة البيرة فوق رأسى بينما هى تصرخ ضاحكة فى مجون.كنت أكبرها بعشرة أعوام.نظـــرات سميرة كانت بها قوة تقطر كبرا لايعرف ذلك الانكسار المثير الذى يحـــرك كـــوامن الرغبـــة فى الرجل.احتويتها فى صدرى ورحت أحتضنها برقة وشغف.تشبثت بى فى قوة طاغية وقد أســـبلت عينيها وأطبقت على ظهرى بكل ما ملكت من طاقة حتى كادت أن تقصمه.أرض متعطـــشة الى الرى متحننة الى الخصوبة والنماء.

–على مهلك ياغصون.اطمئنى.الليل أمامنا طويل

قالت وهى تلهث:

– شوقى اليك يتجاوز الجنون

ذهب كل منا ليغير ملابسه فى غرفة بعيدا عن الآخر.تسللت الى الحمام لأتناول حبة من عقـــار منشط حتى تأخذ الدماء مجراها بقوة فى مكانها المقصود.استخدمت "بخاخة"الاســـبراى المخـــدر لحساسية الأعصاب حتى تطول فترة المتعة.أعادل فعل الزمن فى الـــدم والأعـــصاب والأعـــضاء بالعقاقير، فلا بديل عن ذلك وإلاضاع التكافؤ. غصون واقعية.لو أطلعتها على هذا الـــسر لمـــا وجدت فيه ما يدعو الى الدهشة أو السرية.لكن هاتفا خفيا ألح على بأن أحتفظ بسرى حتى تعتقد أن قوتى ذاتية،وأن قدرتى مازالت قدرة شاب.حتى لو اكتشفت هـــذا الأمـــر فيمـــا بعـــد،فإنها ستتجاهله لأسباب ترجع الى طبيعة تفكيرها البراجماتية.

جلسنا نتناول عشاء خفيفا.دخنت سيجارة ملفوفة أمامها.سألتها ماذا تحبين أن تسمعى:هيفاء وهبى أو أم كلثوم.قالت عبد الحليم حافظ.لم أكن اتوقع هذا الاختيار بحكم سنها.قلت مارأيك فى موسيقا هادئة.قالت هذا أفضل.أدرت الراديو على محطة الموسيقا وخفضت من حدة الضوء.كنت منتشيا هادئا رائقا أختزن طاقتى البدنية،مسيطرا عليها لحين اللحظة المناسبة.كانت طاقة جـــسدها متفجرة كزلزال عنيف مشوق بجنون الى أنين المتعة وغيبوبة الشبق.أطلت من عينيها رغبة تلقائية فطرية ساحقة ماحقة يستحيل السيطرة عليها.تحت قميصها الأزرق الزهرى صـــرخت مفاتنـــها بصوت مسموع.ياالهى كل شىء فيها صغير جميل قوى متماسك مشدود صلب فتى لم يخضع بعد لنذالة الزمن.جردتها من ملابسها على مهل شديد مثير.راحت فى غيبوبة ساحرة.ظللت أداعبـــها

وألاطفها بروح شاب وخبرة عجوز حتى أقودها الى برزخ أسرارها العميق.أشعلت سيجارة ثانية حتى أوقف من حدة اندفاعها.قالت فى غضب به دلال:

- أنت أنانى
- أنا؟..لماذا ياحبيبتى؟
- تدخن وحدك وتتركنى
- لكنك لاتدخنين
- أحب أن أفعل ماتحب.أريد أن أشاركك فى كل شىء

أعطيتها سيجارة مماثلة.اعتدلت مستندة الى وسادة وراحت تدخنها بشراهة المدمنين.لم تسعل ولو مرة واحدة،حتى أننى لم أشك فى أنها كانت مدخنة قديمة.

احترقت معاجم الكلمات فى دخانها ولم أسمع سوى صهيل خيلـــى يجلجـــل فى كـــون مـــن الربيع.استهوانى شعور بأننى أجامع فتاة مراهقة لا امرأة ناضجة سبق أن عرفت متعة الرجل..رغم أن جسدها مدملج مخروط بدقة إلا انها تعد فى نظر من يراها طفلة لـــصغر حجمهـــا وشـــقاوة عينيها.أين جسد سميرة الذى أنهكته السنوات من هذا الجسد الفتى المعربد!

كان اللقاء مثيرا ممتعا فوق ماتصورت ،وتملكنى زهو شديد.عانقت الشهوة روحينا حين ارتجف الجسدان معا فى لحظة واحدة هى سر الحياة.الذى أثار دهشتى وضاعف متعتى أننى وجدت نفسى أمام امرأة حقيقية ناضجة مجربة ساخنة ملتهبة شديدة الجنون والشبق،على عكس ما أظهرتـــه لى عيناها من قبل،وما أظهره لى وقارها الطبيعى،وما كشفت عنه حواراتها معى من تـــأدب شـــديد وترفع دائم عن نطق كلمة إباحية خارجة.لقد تجاوزت كل تلك الحدود ،وانطلقت منها امـــرأة فاجرة عربيدة مجنونة بالعشق،تفعل أى شىء وتقول أى شىء،فقد ارتـــوت الأرض واخـــضرت واقتربت السماء وأمطرت.

ونحن فى ذروة النشوة كنت أرى فى عينيها عينين أخريين غير اللتين عرفتهما من قبل.رأيـــت فيهما شغفا خالصا ممزوجا بنظرة عتاب جميلة مثيرة، وكأننى أسبب لها الما جميلا تلتذ له وتطلب منه المزيد.رأيت فيهما وهما مسبلتين خضوعا وخنوعا ونشوة،وهما مفتوحتين دهشة ولهفـــة وجوعـــا وحتّا فائقا على الاستزادة وعدم التوقف حتى الموت.طفلة شقية صهرت فى امرأة هى، أم امـــرأة أذيبت فى طفلة.أيا من كانت فهى اللذة عينها وهى المتعة ذاتها وهى الانعتاق مـــن الـــصراعات والتئام الشروخ ودواء النفس المحيرة والإرادة المذبذبة،وهى الخلاص من الفتور والملل.تدفق مـــاء الحياة من دمى عندما تدفق ماؤها يحتضن مائى بين الفجر والظلمة ، حين تخاطب جسدانا بلغـــة الروح وارتقينا أعالى الجنان.

فى لحظات الاسترخاء كان صوت انفاسنا المرهقة يبدد صمت الغرفة.فوجئت بها تقبل قدمى،ثم تصعد بشفتيها الى كل جزء من جسدى فتقبله بحنان وامتنان.قالت لى كما لو كانت تحلم:

–هذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أذوق فيها لذة الجسد الحقيقية

انتابتنى دهشة عظيمة وأنا على يقين من أن الجنس هو جنة الله على الأرض فى جميع أديانه.

–كيف؟..قلت لى انك وزوجك كنتما متحابين

–لاتسألنى كيف.الذى أقوله هو الحقيقة

–ألم يكن زوجك...؟

–كان طبيعيا جدا..ولكنى لم أكن كما كنت اليوم..ولامرة واحدة!

لولا الحبة والبخاخة لماشربنا معا من النهر السماوى فارتوينا وانتشينا،ولما سمعت هذا الكلام ، بل لكانت فضيحتى بجلاجل مع هذه الفرسة الجامحة المحبوبة.

–لماذا ؟..

– لامعنى لكيف ولا لماذا..إننى أحس بطعم الحياة لأول مرة.يكفينى هذا لكى أحمد الله وأشكره مع كل نفس يتردد من أنفاسى.

شعرت بقلبى يدق بعنف.كان الجهد فوق تحملى.مازال مفعول العقار ساريا فى جسدى ومازالت الرغبة متأججة.كان من الطبيعى أن تهدأ ضربات القلب بعد قليل،لكنها استمرت فى عنفوانها.فكرت فى أكثر من صديق مات فجأة بهبوط فى القلب فى مثل هذه الظروف.قررت الاكتفاء بهذه الجرعة من السعادة المكثفة، على أن أعاود الارتشاف من رحيقها فى اليوم التالى.طلبت منها أن تعد لى فنجانا من القهوة.كنت فى اشتياق شديد الى تدخين سيجارة ولكنى خفت فامتنعت.خفتت ضربات قلبى وعادت الى نظامها الطبيعى فحمدت الله.يقولون ان القهوة تزيد من ضربات القلب.اختلف الأمر معى وكأننى شربت مهدئا.تركت نفسى للاسترخاء الهنيء وقد أفرغت عقلى وذاكرتى من كل شيء فى الحياة دون هذه اللحظات المترعة بالحبور، ويبدو أننى غفوت قليلا،حين فوجئت بها تنقض على محيطة بعنقى،تعتصر شفتاها شفتى لتلقى بى مرة ثالثة فى أتونها الملتهب..عدنا الى عناق الأسرار وغرقنا فى برزخ الخلود.قرب الفجر فقدت الإحساس بجسدى.أفقت من النوم ظهر اليوم التالى.ذهبنا لتناول الغداء فى مطعم سمك .التهمت بشراهة كمية كبيرة من الجمبرى والدنيس.مكسبى من المقهى يسمح لى الآن أن أنفق–بعد عمر طويل– ببذخ على ملذات الحياة المشروعة دون خوف أو تردد. أما مايقال عن الكولسترول وانسداد الشرايين فتلك أمور لاتعنينى، فطالما أنا هنا فالموت ليس هنا،وعندما يكون الموت هنا فلن يكون لى وجود.المسألة لاتحتاج الى عناء فى التفكير.إنى أتمتع بيومى كأنه جميع عمرى ، فليس لى إلا

الساعة التى أحياها ، ولا نفع لى بالماضى ولاعلم لى بالمستقبل.،المهم أن أعثر على وسيلة أكبح بها جماح هذه الطائشة الصغيرة التى كتبت لى على آخر الزمن.من المستحيل أن يستمر الحال هكذا.النهاية الحتمية هى انطلاق سهم موتى ليسقط بين أحضاها..وشرعت فى ترويضها غير هياب من التصريح بالحقيقة.

– غصون يابنتى

انطلقت ضحكاتها فى دلال ممزوج بإعجاب خفى:

– وهل يفعل رجل بابنته مافعلت بى أيها المتوحش ؟

– يا غصون..يابنتى

بنفس الدلال قالت:

– نعم يا بابا

– لو كان بيدى لما امتنعت عنك لحظة،ولكن ضعى اعتبارا للسن

– أتجرؤ وتدعى الشيخوخة وقد كنت تطحننى كالثور ؟

لا فائـــــــــــــــــــدة!!!..

عدت الى بيتى القديم بعد أن اتفقنا على ألا تتصل بى هناك.يوم أعلنت سميره بنبأ زواجى المزمع من غصون، تلبسها كبرياؤها العنيد.استوعبت الصدمة من خارجها بقوة فولاذية، أما ما كان يمور بداخلها فيعلم به الله. اكتفت بالخصام والهجر، لكنها كانت تؤدى واجباها الزوجية الأخرى على أكمل وجه. أما أن ألامسها مجرد ملامسة فذلك كان من المستحيل. قلت لنفسى بركة ياجامع، لأنه ليس من المعقول أن ينهد حيلى هنا وهناك. فليكن يوم سميرة هو يوم راحتى من غصون.وليكن يوم غصون هو يوم نجاتى من عبوس سميرة وصمتها وعنادها. أغرقتها بالمال والهدايا بعد أن تيسر حالى، علها تصفو ولكن دون جدوى.حاولت أن أقنعها بمنطق الدين فلم تستجب، بل إنها صاحت فى وجهى:

– أنت خلاص..جننت..تفتح قهوة وتتزوج واحدة فى عمر أولادك.ألم تنظر فى المرآة وترى شعرك الأبيض؟..أهذه أفعال تليق برجل فى عمرك ومركزك؟!..

أربت على صدرها حتى أهدىء من روعها، لكنها تزيل يدى عنها بعنف:

–لاتلمسنى..كفايه عليك الدكتورة

– أنت عندى أحلى وأطعم من مائة دكتورة

–كذاب..لو كنت صادقا طلقها

سقط منها كبرياؤها فى لحظة صدق.فشل مخطط الكبر وأصبحت امرأة عادية تكيد لضرها.بادرت بالهجوم وإن كان بغير اقتناع داخلى خشية العاقبة المعروفة:

– أنت زوجتى مثلها ولى عليك حق من واجبك أن تؤديه،وأنا لم أخالف الشرع فى شىء فلماذا تخالفينه بالامتناع عنى؟

– إفعل بى ما تريد..ستنام مع جثة !

نجحت بالصبر والحيلة فى إلانة قناها.ارتاح بالى قليلا وانزاح عن صدرى بعض من همى بها.

تعطرت ونامت بجوارى بعد أن خلعت ملابسها الداخلية فى آلية سريعة.أعطيتها ظهرى ونمت.فى الصباح ذهبت الى المقهى وطلبت من غصون بالتليفون أن تعد لى حماما مشويا.

ما أن دخلنا الشقة حتى قذفت بنفسها بين أحضانى وجسدها ينتفض بالرغبة.لمحت المائدة معدة بما طاب من طير وفاكهة.

– انتظرى حتى نأكل يامجنونة

– أنت أولا ثم الطعام

– أنا ميت من الجوع

– لو أكلت ستفقد لياقتك

يذهلنى أمر هذه العاقلة المختلة.حين تتخلص من عبء جسدها وتنساه، فإنها تنطلق فى الحديث عن الفن والحياة والشعر والفلسفة فى تدفق سلس أخاذ ممتع.تسحرنى به فتجذبنى الى عالمها الجميل وقد تملك منى الانبهار بعقلها وروحها وعذوبة لفظها.يخيل الى أنها خلعت جسدها وتحولت الى روح.أبادلها الحديث فى متعة مابعدها متعة وكأننى أقلب فى صفحات مجموعة من أحب الكتب الى نفسى..ثم أفاجأ بهذه العقلية المنظمة تصر على أن تغسل لى قدمى فى المساء بالماء الساخن المذاب فيه الملح ثم تجففهما..أو تأتى من خلفى فجأة لتدلك لى رقبتى بخبرة طبيب متخصص..أو تجرى مسرعة لتحضر لى مداسى المنزلى حين أفتقد مكانه الذى تركته فيه، مصرة على أن تضعه بيديها فى قدمي.المثير فى الأمر أنها تفعل ذلك بتلقائية ودونما أدنى افتعال.مفهومها عن فن إرضاء الرجل أنا عاجز عن إدراكه.لاتسألنى أين كنت لو غبت عنها، ولا تتذاكى على لمعرفة شأن من شئونى الخاصة بذلك الأسلوب النسائى المباحثى الخبيث.لكنى عندما اتكلم فى مثل هذه الشئون بمحض إرادتى فهى تستمع الى جيدا وتشاركنى بكل جوارحها، حتى لو كان الأمر متعلقا بعدد الرواد الذين ترددوا على المقهى، أو باعتراض الأصدقاء على جلبابى البلدى.

بعد عدة أشهر لم يكن هناك بد من السيطرة على هذا السيل المتدفق من العاطفة الذى أنهك جسدى فقررت مصارحتها وأنا على يقين من أنها ستتفهم الموقف.فوجئت بها تقول لى:

- وما الغريب فى ذلك؟..ان كثيرا ممن لم يتجاوزوا الأربعين يتعاطونها

كنت متشككا ولكنى تأكدت الآن أن هذه الشيطانة الملائكية الصغيرة تعرف كل شىء وتتكتم.

-لكنى تجاوزت الستين،والحياة ليست كلها...و..ولماذا لاتغنى لى الآن ياغصون بصوتك الجميل؟

لم تتردد الساحرة فى تلبية رغبتى.قامت على الفور وأحضرت عودها الذى لم يفارقها أو تفارقه منذ صباها.احتضنته فى حنان حتى خيل الى انه ذاب فى جسدها،وراحت تعزف عليه بأناملها الفنانة:ياشادى الألحان أسمعنا رنة العيدان..واطرب من فى الحان..واحسبنا من ضمن الندمان..الله على الموسيقا والطرب الجميل..الله على فيض الإحساس المرهف الذى يتدفق من لسانها وحنجرتها وعينيها وخلجات وجهها.اليوم أشعر أننى إنسان، وأننى أول آدمى يرى جنة الله على الأرض.

لا أدرى كم من الزمن غبت مسحورا فى عالم الجمال،حتى أفقت لرؤيتى دموعا تتساقط فى صمت من عينيها كحبات لؤلؤ منثور،وقد توقفت عن الغناء دون أن تتوقف عن العزف.من السكر صحوت على الإفاقة وبى ذهول وشجن،فأخذتها فى حضنى وكأنها حفيدتى.

-لماذا تبكين ياغصون؟

- أخاف أن اموت وأتركك وحيدا من بعدى

لم يسعفنى العقل باستيعاب مدلول كلماتها،إذ تبادر الى سمعى ومنطقى وفهمى أنها تقول:

- أخاف أن تموت وتتركنى وحيدة من بعدك

أيا كان ماقالته أو ماسمعته أو مافهمته،فإن حال الموت لم يستطع أن يسلبنى الشعور بنعمة الغناء،كما أنه لن يستطيع أن يمنعنى من اصطحابها معى الى البرزخ، أو يحرمنى لذة الوصل بها بعد موتى، فالله جميل أخفى عنا الموت لأجل أن يعلمنا به،وحتى لاننسى نشأتنا الأولى من قطرة مياه.."أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون".. وتمنيت فى هذه اللحظة أن يكون لى نسل من حوريتى الأرضية القابعة فى حضنى والتى لاأدرى كم من العمر سأظل أنعم بقربها.

******

فى وحدتى العسكرية الجديدة بالاسكندرية عرفت الصحافى "الواصل" ربيع أبو المجد.تقاطيع وجهه تذكرنى بتطلعات نرجس.مقالاته المطولة بالجريدة القومية التى أكرهها يتصدرها اسمه بالبنط الكبير المميز..عرفت منه أن صلة حميمة تربط بينه وبين عبد الحميد بيه العيسوى والد الدكتور مدحت.تحدث كثيرا عن شخصية هذا الرجل الغامض.يرى فيه مثلا أعلى وصاحب مدرسة خطيرة فى فن الحياة.مدحت نفسه لم يحدثنى عنه بهذه الإفاضة..لكن الاثنين رددا أمامى،كل على حدة، مقولة العيسوى الشهيرة:

– "العقل لايحقق إلاالربح والنجاح، أما العاطفة فليس وراءها إلا الخيبة والفشل والخسران".

حين مات أبوه لم يترك له عونا ولاسندا من مال أو عقار،وإنما أورثه مسئولية أسرة معدمة.بدأ حياته خادما وكاتبا وسكرتيرا خصوصيا لعجوز أعزب يمتلك ثروة ضخمة من العقارات.أنقذه من الجوع بأن تنازل له عن واحد منها قبل وفاته قبل وفاته.لم يقنع العيسوى بالعقار اقتحم ميدان التجارة فبدأ بعمليات نقل الرمل والزلط،ثم اتجه الى الاتجار فى السوق السوداء بكل سلعة تختفي أو توشك على الاختفاء الى أن استقر أخيرا على الاستيراد والتصدير،حيث نجح فيما بعد فى تكوين ثروة طائلة،معلنا تحديه لقدره، منطلقا فى سباق جنوني نحو وهم كبير.

بعد لقاء حافل بالمتعة والإثارة ، عاد العيسوى يوما ليجد سيده قد فارق الحياة قبل أن يتمكن من التأثير عليه بشكل أو بآخر.كان بمقدوره أن يحصل على مغظم التركة، فسيده مقطوع من شجرة، والحديث مازال لربيع ، لكن ثديي امرأة لعينة وفخذيها أضاعوا منه فرصة العمر.كان بمقدوره أن يشكو فقره حينذاك ويبكى قليلا أمام الرجل الطيب المعطاء الذى أحبه ، فينجح فى استدرار عطفه، لكن انسياقه وراء عاطفته حرمه من فرصة البكاء، فآلت معظم التركة الى الحكومة والجمعيات الخيرية.

ساهمت حكايات ربيع التى لاتحوم الا حول الثراء والمجد والنجاح فى ملء فراغى رغم عدم استجابتى لها. حاصرت ضياعى فى انتظار ما لا يجيء.

ذات ليلة أفشى العيسوى سرا من أسرار عمله لصديق فى لحظة من لحظات تورم الذات وانتفاخها، والتى كانت تصيبه حين يسكر. تحدث بفخر وغرور عن عبقريته فى تدبير مكيدة ضد أحد منافسيه، فما كان من الصديق إلا أن تعاطف مع خصمه فأفشى اليه بالسر وأنقذه من الخراب الذى كان سيحيق به.

ضاعت الصفقة على العيسوى وانتهى معها اعترافه بكلمة"الصداقة" فأصم قلبه وعقله وبصره ومسامعه عن مدلولاتها.

تبين لى أن ربيع على دراية كافية بتفاصيل حياة العيسوى العائلية، فهو يعرف أن مدحت وحيد أبويه، وأن له شقيقتين متزوجتين من ثريين من كبار رجال الأعمال،اختارهما لهما العيسوى بحذق ومهارة بعد حسابات وتوازنات دقيقة طبقا لمقاييسه وموازيينه لأمور الحياة.الذى لايعلمه ربيع أن نرجس تغار منهما غيرة عمياء ، من وحى مقارنتها الدائمة بين أحوالها وأحوالهما..مجتمع السادة الأقوياء الأثرياء أصحاب الصوت المسموع والأوامر النافذة، هو المجتمع الذى تتوق نرجس الى الاحتماء بحصونه المنيعة ، ولكنها عاجزة عن الارتقاء اليه.

من نفس المنطلق خطط العيسوى لمدحت معالم حياته اللاحقة كما تصورها بجميع أبعادها:بعثة الى الخارج على نفقته للحصول على درجة علمية عليا، ثم إنشاء مستشفى كبير يعمل مديرا له، وفيلا فاخرة بالقاهرة،والزواج بفتاة من اختياره ذات حسب ونسب!..

كان لابد للانتظار أن يطول ، فالسادة الحكام القدامى كانوا غير راضين عن السادات ، استهانوا بعقله واستخفوا بذكائه وبدأوا يخططون للإطاحة به، لكنه تغدى بهم قبل أن يتعشوا به. لم تكلفه المسألة سوى عربة جمعهم فيها من منازلهم ومكاتبهم وألقى بهم جميعا فى السجن، وأسماهم"مراكز القوى" ، فأضيف الى معجم لغتنا الثرى مصطلح سياسى جديد لم يستخدمه الفراعنة ولا العباسيون من قبل.توقف الزمن وغنى مطرب مخنث"نحن للسيف" ولكن لاسيف ولايحزنون، وانما انتظار لا نهاية له..ويطرق العيسوى مع ابنه كل أبواب الإقناع ولا فائدة.يسلك معه كل سبل الإنذار المستتر والتهديد السافر دون جدوى. الولد مأخوذ بسحر البنت،وسحر الحب لعنة محببة–أعرفها–تشل الإرادة وتلغى المقاومة..وعينا نرجس ناريتان رماديتان ثاقبتان نفاذتان، يحلم بهما مدحت ليلا ونهارا.

تخلى عنه أبوه.رفع يده وقلبه عنه.تركه نهبا لمصير مجهول دون أن يشعر بذنب أو ندم، وكأن الأمر لايعدو أن يكون مقايضة تجارية، أو صفقة خسرها.

بحيلة خبيثة نجح فى استدراجهما معا الى مكتبه بمقر عمله، لا الى منزله – حتى لاتدخله نرجس– فظن مدحت أنه تراجع عن عناده، وظنت نرجس أنها قادرة بشخصها وبقدراتها الخاصة على التأثير عليه لإثنائه عن عزمه.

•سؤال خطر ببالى الآن:

–ما علاقة ما أكتبه الآن عن نرجس بالنكسة أو الشرخ؟

الحق أننى لست أدرى تماما،ولكنى أترك لكم حرية الإجابة لأنفسكم أو الامتناع عنها.

•عودة:

قال لها العيسوى أمام مدحت ممعنا فى إذلالهما معا :

–عائلتى لاتصاهر الا عائلة فى مستواها

لا تعرف نرجس أنه بدأ حياته خادما !

تشتعل روح نرجس بشرر التحدى لهذا الرجل الذى يقف سدا منيعا دون أحلامها.راهنت بعمرها على حب مدحت لها تماديا فى تحديها لأبيه وعنادا له ردا على هذا الإذلال وليكن ما يكون. طلبت من مدحت أن يسرع فى إجراءات الزفاف.أقاما بمنزل أسرتها.طبيب بالتأمين الصحى ومعيدة بكلية الاداب وورطة كبرى، ثم محاولة يائسة للانتحار.

قالت لى نرجس:

– أريد أن أشعر برجولته ولو لمرة واحدة

للرجولة مقاييس عديدة.ترى أى مقياس تشير اليه الزوجة التعسة ؟

–ماهو المطلوب منه الآن على وجه التحديد ؟

–أريد أن أعيش معه بمفردنا ولو فى غرفة تحتوى على حصيرة ولمبة غاز

وقلت لمدحت بصراحة:

–افعل شيئا يا أخى

–ليس أمامى سوى العمل بإحدى الدول العربية

–افعل ماشئت حتى تنقذ علاقتك

قال متنهدا:

–بكل جوارحى أحببت انسانة شديدة القسوة والعناد..لست أدرى لم يحدث ذلك!

يقولون فى التراث ان من أوقع الأمور فى الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأضرها بالعقل وأزراها للمروءة وأسرعها فى ذهاب الجلالة والوقار هو الغرام بالنساء.حيرنى ما فى هذا الكون من ظلم وفوضى.يحبها فتملى عليه إرادها وعلى أبيه..وأنا أقول لسميرة ان الحب شيء لاينبغى أن يفهم لأنه لاعلاقة له بالعقل.بعد الزواج ومرور السنين أصبح كل مايفهم ومالايفهم معجونا بالفتور والملل.ماتت الآمال الجامحة واندثر التطلع الوثاب الى مستقبل باهر.استرخى الزمن بفعل الهزيمة، ولاعجب أن يصير كل شيء فى النهاية الى زوال.حين نقلت سميرة الى مدينة اخرى–قبل أن نتزوج– قلت لها فى احدى رسائلى:

"حين أستلم منك خطابا فإنى لا القى بحواف المظروف التى أقطعها لفتحه واستخراج رسالتك،لكنى أعيد وضعها داخل المظروف لحفظها من الضياع.أنا لاأقطع وهما يصلنى بك، فكيف ألقى بورقة صغيرة لامست أنسجتها المجهرية الدقيقة أناملك الرقيقة؟!إننى أتشمم المظروف والرسالة بحاسة كلب بوليسى أتقن تدريبه، ثم ألتهم الرسالة بنهم لا يفوقه نهم فى كل مرة من المرات العشرة أو العشرين"..راحت هذه الكلمات.ذبلت بسرعة لم أكن أتوقعها.وقالت نرجس من خلال دموعها:

–لم أعد أطيق أن يلامس جسمه جسمى

ويبقى سر محاولتها الانتحار غائصا فى ظلمات المجهول،ويزداد التقارب بينى وبينها فى تسلل غير منظور ترعاه سميرة وتؤكد عليه لعل نرجس تحظى بسلام داخلى يطمئن من نفسها البركانية المتأججة بنيران لا تطفؤها أنهار الدنيا.

زوجتى تثق بشدة فى قدرتى على تحقيق هذا الأمل.أشياء غامضة لاحصر لها تشكل معالم هـذه الحياة،أقربها أننى حصلت على مسكن بفضل مصادفة أصر القدر على أن يمنحها لى وأنا المفلس الأكبر، وأبعدها ذلك البرزخ الهلامى الذى يفصل بين النوايا والأقدار منذرا بالويل من يفكر فى اقتحام غياهبه.

كنت فى صباى مفرطا فى الأمل، تغمرنى سكينة هائلة، فلا أشعر بذرة خوف من الأيام.صافية كالبللور كانت مياه البحر فى نفسى.يطل عليه بيتنا المحاط باللبلاب فى نهاية حارة جوده المواجهة للشاطىء.لم تكن السكينة تغمرنى وحدى، فقد كان عبقها يغمر مكونات البيت بكل مايحيط به من عالم خارجى، وكل مايحويه من مخلوقات تعيش بالفطرة.كنت أحب الاختلاء بنفسى كثيرا لأهيم فى ملكوت من خيالات عجيبة تتراقص فى مخيلتى.أقف فى ميدان عام أخطب فى جماهير حاشدة.أرقص عاريا على قمة هرم خفرع.أجوب شوارع أوروبا بعد أن أعبر المانش.

يوم ذهابى للاشتراك فى مسابقة بطولة الاسكندرية للسباحة، المقامة بنادى سبورتنج،كنت أقارن فى الطريق بين بيتنا العتيق"المكحكح"الجميل، وبين البيوت الأنيقة والعمارات الشاهقة التى يمر ترام الرمل بمحاذاتها يمينا ويسارا.رغم المقارنة فقد كانت الطمأنينة تسكن نظراتى المبهورة.لم تسفر المقارنة عن مشاعر حزن أو حسد أو أدنى شعور بالدونية ، وإنما عن أمل راسخ–لست أدرى كيف أو لماذا– فى مستقبل يتيح لى السكن فى بيت مثل هذه البيوت.الله يحبنى لاشك فى ذلك، وإلا ما أهدانى ذلك البيت الذى كنت أحلم به،من حيث لاأدرى ولا أنتظر.

الله يحبنى أضعاف ما أحبه ولولا حبه لى لما أحببته. لاشك فى ذلك،وإلا لما أنعم على مراد ابن حارة جودة الضيقة بالمبيت أسبوعا فى شيراتون زيورخ بسويسرة.الحكاية وما فيها أننى كنت جالسا فى بيتى ذات يوم، حين جاءنى زائر غريب يدعى سامى.عرف عنوانى عن طريق صديق لى التقاه فى القاهرة فدلّه علىّ.كان يتحدث معه عن حاجة المؤسسة التى يعمل بها كمدير عام الى مهندس كيمائى متخصص فى صناعة الطلاءات بأنواعها المختلفة.ها هى المصادفات القدرية تلعب دورها فى حياتى للمرة الثانية.كان هذا الصديق هو اسحاق منقريوس.جاءه سامى فى الجريدة لينشر اعلانا عن التخصص المطلوب.تشعب الحديث حتى توقف الزمن فجأة عندما ذكر له اسحاق اسمى كمهندس مجتهد حسن السمعة،تنطبق عليه شروط الوظيفة تماما.سامى كان لديه ارتباط عمل فى الاسكندرية.أراد أن يضرب عصفورين بحجر فقرر لقائى لعله يجد فى شخصى ضالته، ولقد وجدها بالفعل وكان سروره بالغا بأننى تعلمت دراسة جدوى المشروعات الصناعية خلال بعثتى العلمية الى السويد من قبل الشركة التى أعمل بها.

–سوف نشترى مصنعا كبيرا لإنتاج الطلاءات والورانيش

– وكيف سيكون عملى؟

–فى المرحلة الراهنة ستشترك معنا فى إعداد دراسات الجدوى لاختيار المصنع المناسب.

جاءنى فى عام ميت من أعوامى الرتيبة التى لم أعد أذكر شيئا من معالمها الاجتماعية أو السياسية لشدة تشابه أيامها وشهورها ودقائقها وثوانيها.كل ما أذكره أننى كنت فى هذا العام–كغيره من الأعوام–ثورا يدور بساقية ولايصدر خوارا.قلت له بصوت واهن وقد برق بذهنى خيال محمد النجار:

– أنا لاأستطيع ترك وظيفتى

– إذن فأنت تضيع على نفسك فرصة العمر

أصابنى الثبات بالتحجر.أصبحت كائنا آليا لايتجدد.قال لى الرجل أننى سأتقاضى أجرا كبيرا وسأزور المصانع فى أكثر من بلد أوروبى.لم أستطع أن أتخلى عن صفريتى وجمودى.قال لى:

–خذ اجازة شهرا أو شهرين واعمل معنا ثم اتخذ قرارك.

تحدثنا فى الفنون والآداب.جاء ذكر اسم صديق فنان هو حمدى سالم، وإذا بهذا الصديق هو زوج اخت سامى.قال انه سيزوره بعد انصرافه مباشرة ليتناول معه الغداء ويستريح قليلا قبل موعده الهام.لا أعرف ما دار بينهما عنى من حديث بعد ذلك،ولكنى لم أذهب اليه بمكتبه بالقاهرة طبقا للموعد المتفق عليه.تبين لى أننى لم أعد أمتلك العزيمة لحجز تذكرة من محطة السكك الحديدية حتى أركب قطارا يقلنى من الاسكندرية الى القاهرة.أصبحت صفرا مكعبا فماذا ينتظر من صفرى لايساوى أكثر من نقطة.سألتنى سميرة يومها فى ذهول:

–ما الذى جرى لك؟أين راحت طموحاتك؟لماذا تضيع على نفسك مثل هذه الفرصة؟

لم أجد ما أقوله لها لأنه لم يكن لدى سبب حقيقى أتعلل به.التأم شرخ الوطن وكنت أحسب أن شرخى قد التأم هو الآخر.السبب إذن من داخلى وليس من الخارج، لكنى لست أعرفه.

فوجئت بحمدى سالم يطرق بابى.لم أكن قد رأيته منذ فترة طويلة.قال لى بعشم:

–يبدو أنك عقدت تحالفا مع الفقر.ماحكايتك يارجل؟.لماذا لم تذهب الى سامى؟

–حلمت أن القطار الذى كنت سأحجز به اصطدم بقطار آخر

– أنا لا أهذر

– وأنا أيضا لا أهذر..أنت الذى لم تقرأ الجرائد

–ماعلاقة الجرائد بهذه الهلفطة؟

–القطار تصادم بالفعل وقتل عدد كبير من ركابه

نجح حمدى فى السيطرة على ألاعيبى السخيفة غير المبررة.قال انى استمرأت العجـز والخنـوع للواقع."لماذا لايكون لديك عربة يا أخى؟..لماذا لايكون لديك رصيد بالبنك تستند اليـه وقـت الحاجة؟..لماذا ترضى بمرتبك الهزيل وقد فتح الله أمامك بابا واسعا للرزق الحلال؟"..تـصاعدت حدة اعتراضه على موقفى المائع،وفى نهاية اللقاء قال لى وهو يحاول السيطرة على غضبه:

– انت حر..افعل ماشئت

اتصل بى سامى فى اليوم التالى فبررت له تخلفى عن الموعد بمرض مفاجىء،واتفقنا علـى موعـد آخر.فى الطريق اليه رحت أزرع فى نفسى الحماس لما أنا مقدم عليه.المبنى ضخم أنيق ذو طوابـق ستة.كل طابق تشغله إدارة من إدارات المؤسسة بشركاتها المختلفة. اصطحبنى سامى الى الطـابق الثالث حيث مكتب المهندس حسام عبد الهادى رئيس مجلس ادارة المؤسسة.اسـتقبلنى الرجـل بوجه بشوش.أحببت لحيته الرقيقة المهذبة.انعكس علـى صـدرى ارتيـاح شـديد لنظراتـه الساهمة.تمنيت أن أعمل مع هذا الرجل وانتهى الأمر.دعانى وقد اصطحب معاونيه لتناول الغداء فى فندق من أفخم فنادق القاهرة المطلة على النيل.اتفقنا على أن أحصل من عملى على اجـازة قصيرة بصفة مبدئية حتى تتضح لى الأمور.كان قد أعطانى ملفات لثلاث شركات تعرض عليـه شراء ماكيناتها وطلب منى المفاضلة بينها.منحنى أسبوعين أنجز خلالهما دراستى ثم أعود الى القاهرة لمناقشتها معه. فى نهاية الأسبوعين اتصل بى سامى.طلب منى أن أستقل طائرة من مطـار النزهـة بالاسكندرية.أخبرنى أن عربة من عربات الشركة ستكون بانتظارى فى مطار القاهرة لـتقلنى الى فندق "السلام هيات" بمصر الجديدة والذى سأقيم فيه طيلة فترة بقائى بالقاهرة.،.علـى بـاب الفندق تذكرت حارة جوده وحارتى فى حوض السباحة بنادى سبورتنج. لماذا لاتثق بنفسك قليلا يارجل فتدرك أنك جدير بأفضل مما ارتضيته لنفسك.فتحت ستارة غرفتى الفاخرة.كانت تطـل على حمام السباحة.على الفور التقطت عيناى صورا مكبرة لنساء شبه عاريات يـستلقين بجـوار الحمام على مقاعد طويلة، ونساء أخريات تسبحن فى الماء.قررت أن أنتهز أقرب فرصة لأستحم فى هذا الحوض الجميل.اتصل بى سامى فى الفندق وقال لى انه يدرس تقريرى واتفق معـى علـى اللقاء بالمؤسسة فى السادسة مساء.وجدت أن أمامى متسعا من الوقت للمتعة والراحة.أول شيء فعلته أن نزلت من الفندق واشتريت"مايوه" لأنزل به الحمام.

وأنا ألعب كطفل سعيد فى الماء لاحظت أن رجلا يتناول غداءه على احدى الموائد المرصوصـة من حول الحوض.أعجبتنى الفكرة.كنت أتعجب من جرأتى وأنا أطلب من النـادل طبقـا مـن الجمبرى المشوى وآخر من السبيت وزجاجة نبيذ أحمر.أنزل لأعوم قليلا.أصعد لآكل قليلا وأعب من النبيذ عبا ، ثم أنزل من جديد.يا أعمى هذه هى الحياة تبتسم لك فبادلها الابتـسام.رأسـك

خفيفة وروحك طائرة وقلبك يرقص فرحا.إنزل الى الماء.عد فكل واشرب وانتش وعاود النزول الى الماء.ما أجمل محبتك ورضاك يا ألله.حمدى سالم كان محقا.أنا حمار.

نمت نوما عميقا هادئا هانئا على الفراش الوثير.أخذت حماما وتناولت فنجانا من القهـــوة وفى الخامسة والنصف حضر السائق ليصحبنى الى المؤسسة.

ناقشنى سامى فى مكتبه حول بعض النقاط الواردة بتقريرى وأبلغنى أن المهندس حسام مبسوط جدا من دراستى للعروض الثلاثة.فى السابعة دخلنا الى مكتبه.ترك مقعده وجلس بجوارى علـــى أريكة وناقشنى فى التفاصيل بعقل خبير فى مهنته رغم أنه فى مثل عمرى.قدم لى مظروفـــا مغلقـــا وقال:

-مكافأة رمزية وسيكون بيننا اتفاق فيما بعد ان شاء الله

تناولت المظروف فى حياء وشكرته ووضعت المظروف فى جيبى.كان كل همى فى الحياة أن أختلى بنفسى فى الفندق لأعرف كم يحتوى المظروف من الجنيهات.ما أن دخلت الغرفة حتى ألقيت مـــا بيدى وسارعت بفتح المظروف.خمسمائة دولار!!..لا أذكر كم كانت قيمـــة الـــدولار بالجنيـــه المصرى فى ذلك الوقت ولكنى أذكر جيدا أننى طرت من الفرحة بهذا المبلغ وقررت شراء أجهزة عديدة تنقص البيت لاستكمال ما تيسر من أسباب المعيشة المرتاحة.

استمر تعاملى مع هذه المؤسسة على فترات متقطعة كنت أحصل خلالها على اجـــازات مـــن الشركة. تأقلمت على حياة الفنادق الفاخرة لكثرة تنقلى بينها.كنت أتناول العشاء مرة فى المطعم الإيطالى حيث الأصناف المتعددة من المكرونة والأسماك ومرة فى المطعم الشرقى حيث لحمة الرأس والممبار والراقصة الشرقية التى تهز أردافها بكرم شديد.فى النهاية وقع الاختيـــار علـــى شـــركة سويسرية.نزلنا بشيراتون زيورخ.كدت أجن فعلا من انبهارى بالمناظر الطبيعية الخلابـــة والحيـــاة المرفهة الناعمة ونظافة الطرقات وجمالها وهى مزدانة بالخضرة فى كل مكان.كنت قد قرأت رواية فرانكنشتاين لمارى شيلى.ظلت مظاهر المطاردة بين البطل والوحش المسكين الذى صنعه لاصـــقة بخيالى لروعة وصف الكاتبة للمساقط المائية الهائلة وجبال الألب والبحيرات الثلجية والهـــضاب الشاهقة. فجأة وجدت نفسى واقفا بين أحضان هذه المشاهد على الطبيعة وجها لوجه.يا أخى اذا كان الله يحبك الى هذا الحد فكيف لاتوفيه حقه من الطاعة والعبادة؟..فى مساء اليوم الأول اتجهت الى جبل عملاق يشغل مساحة هائلة ، دقت على جوانبه طريق دائرية عليها أسهم تشير الى مواقع المطاعم والملاهى والمقاهى،محددة الفترة الزمنية التى تلزم للوصول اليها مشيا أو بالسيارة.انتهى بى المطاف الى مطعم يطل على أشجار شديدة الاخضرار وورودها حمراء ومن حولها شـــلال طبيعـــى تسقط مياهه فى جدول عريض تحف به الأشجار والأزهار.الجنة بعينها كانت أمام عينى.بـــصعوبة

بالغة فهمت منى النادلة العجوز أننى أريد سمكا مدخنا.لم تكن تعرف الانجليزية، فاللغات المتداولة فى سويسرة تتراوح بين أربع هى الفرنسية ونوعين من الألمانية ولغة أخرى لاأذكر اسمهـا تـشبه اللاتينية.استخدمت معها لغة الإشارة وقد استدعت زميلاتها لمعاونتها فى فهمى، واشترك فى الحوار والترجمة الفاشلة جيرانى على الموائد المجاورة،وكنا جميعا نضحك من القلب.شعرت بانشراح غير عادى فتركت نفسى على سجيتها وانطلقت فى تهريج بالكلمات والإشارات وجعلت من المكان مسخرة بحق.جاءت صينية كبيرة مليئة بالسموكد سالمون محاطة بشرائح البصل المستديرة.أخذت أنهل من جمال الطبيعة وأسحب الهواء إلى صدرى بشبق للحياة، وأرتشف البيرة فى نهم لم أعرفه من قبل.كلما انتهت زجاجة جاءت لى النادلة خفيفة الظل بزجاجة أخرى فأقول لها:لا أريد..كفاية! ثم آخذ منها الزجاجة على الفور فتنفجر فى الضحك..وكأننى فى حلم أعاود ملء عينى بالجمـال الإلهى المحيط بى ، فلا أكاد أصدق أننى جالس بشحمى ولحمى فى مثل هذا المكان من العـالم.الله أنت ياجميل. فى غرفتى وقفت متأملا مغزى شعورى العلـوى بالبهجـة.كنـت نـشوانا بغـير سكر..هائما فى عشق الذات الالهية التى أبدعت هذا الكون..كيف كنت أجهل أن فى الدنيا هذا الجمال.كيف كانت حماقتى ستحرمنى من هذه اللحظات الفردوسية.."لو هرب ابن آدم من رزقه لركب الرزق البرق فأدركه"..الآن حان وقت أجمل صلاة فى حياتى لخالق هذا الكون.أخـذت حماما ونويت الصلاة.لم أعرف أين اتجاه القبلة ولم أحاول ولم أسأل.الله فى كل مكان.تذكرت قبلة سيدنا الحسين التى أوليتها ظهرى.كنت أصلى وأنا أدرك تماما أننى واقف فى حضرة جلالته بكـل الحب والخشوع.حان وقت النوم.تنبهت الى المائدة الصغيرة المستديرة بوسط الغرفة والتى أراهـا لأول مرة.طوق جميل من الورد الطبيعى الملون يحيط بسلة من الخوص مليئـة بالتفـاح والمـوز والفراولة ، وفى وسطها بطاقة ترحيب بزيارتى للفندق.نظرت الى السريرين المتواجهين.قررت أن أنام على الأرض.يا ألله متى أزور بيتك المكرم؟!..

وكأنه استمع الى ندائى فأجابنى فى الوقت المناسب..وهأنا الآن على بعد خطوات من البيـت العتيق..

******

دفعنى حبى للتجريب أن أطوف حول الكعبة من أحد الطوابق العلوية لمجرد أن أعـرف كـم يستغرق ذلك من الوقت مقارنة بالوقت الذى يستغرقه الطواف حول الكعبة مباشرة. الواقع أننى لم أنزل من الفندق بهذه النية.كنت محتفظا بورقة كتبت فيها سميرة احتياجاتها من العطور والملابس وما الى ذلك.نزلت متجها الى السوق،لكنى غيرت وجهتى إذ وجدت نفسى مـدفوعا الى هـذه التجربة بقوة .انتهيت من الطواف وكنت منهكا.توجهت الى محل بالسوق لأتناول العصير وأدخن

سيجارة.رأيتها خارجة من نفس المحل وهى تحمل كيسا به مشترياقا.رأتنى أمامها جالسا على الرصيف المواجه للمحل.لم تكن المرة الأولى التى نلتقى فيها.سبق أن التقينا فى مطعم الفندق وحدثتها طويلا عن عملى وأسرتى.

صافحتها وطلبت لها مشروبا.أفسحت لها مكانا بجوارى وسط زحام الملايين من مختلف الأجناس البشرية وألوانها من المسلمين.كانت ملاكا طاهرا طائرا محلقا فى زيها الأبيض الناصع وابتسامتها الأسيانة وعينيها المستسلمتين.تحدثنا حول أعجوبة الحمام الذى يحوم حول الكعبة ولا يستقر فوقها ولا يتوقف عن الطواف. بدون مقدمات سألتها:

– لماذا تحجين؟!

– سؤال عجيب..لأتمم الركن الخامس من أركان الإسلام..هل عندك سبب آخر؟

– نعم.أنا جئت لكى أكفر عن ذنوبى وسيئاتى،كما جئت لسبب آخر أكثر أهمية

– لابد أنك تعلم أن الوقوف بعرفة يخلق منك إنسانا جديدا محررا من كل الذنوب والسيئات

– أتمنى هذا ، لكن بداخلى شياطين كثيرة أخشى أن تعاودنى بعد العودة

– هذا يتوقف على إرادتك فى أن تختار بحسم بين حزب الله وحزب الشيطان

أنا لاأميل الى هذه التقسيمات القاطعة.جورج بوش وهو أصولى صهيو مسيحى يقسم العالم الى معسكرين:معسكر الخير ومعسكر الشر، وبن لادن وهو أصولى إسلامى يقسمه الى فسطاط الإيمان وفسطاط الكفر، وكلاهما إرهابى..أما غصون فتقسمه الى حزب الله وحزب الشيطان ، وكأن للحياة لونين لاثالث لهما هما الأبيض والأسود..أنا أرى العالم رماديا، والإنسان أكثر رمادية منه.

–أليس غريبا أن تتحدث دكتورة فى الفلسفة كما يتحدث العوام؟

– ربما يكون بعض العوام أصدق إيمانا من العلماء والفلاسفة، لأنهم يؤمنون بالفطرة..لم تقل لى ماهو السبب الأكثر أهمية

نظرت بتأمل فى عينيها الحانيتين وقلت لها مالم أقله لنفسى أو لمخلوق غيرى من قبل:

– إنى أعيش صراعا مرهقا بين عشقى لحياة لم أعشها،وخوفى من عذاب الآخرة.أنا انسان متردد،ملكاتى الذاتية تحارب بعضها البعض

– دعنى أبسط لك المسألة أكثر من ذلك

– تفضلى أرجوك

– ربما تقصد أنه الصراع بين حب الدنيا والزهد فيها طمعا فى المترلة عند الله

- الأمر أكثر تعقيدا من ذلك،ولكن دعينا نعتبره كذلك،ألديك حل للتحـــرر مـــن هـــذا الصراع؟
- انه معضلة الإنسان الكبرى فى كل زمان ومكان،لكن أمره محلول فى القرآن والسنة، بـــل فى جميع الأديان
- أعرف ذلك ولكنى لاأستطيع الحياة فى غير البرزخ الواصل الفاصل بين النقيضين،والنتيجة هى الرقص على السلم
- يبدو لى أنك مغرم بتعذيب نفسك بلا طائل،رغم أن رائحتك تفوح بالطيبـــة والـــصدق وحسن النية.
- كيف عرفت ؟
- على ما عرفته منك أنك تمارس عملا محترما وتكسب من حلال وتعـــيش مـــستورا،وأنك متزوج ولديك ولد وبنت،وأنك وزوجتك متحابان،كما أن صـــحتك بـــسم الله ماشـــاء الله..ماذا تريد من الدنيا أكثر من ذلك؟

تحاورنى فى يسر وبساطة بنديّة واضحة دون افتعال،وكأنها هى التى أوشكت على الـــستين وأنـــا الذى فى الثلاثين،وكأنها ألقت بى على الأرض من قمة جبـــل شـــاهق..لم يكـــن أمـــامى إلا أن أهرب.قلت لها:

- الى أين أنت ذاهبة الآن؟
- الى الفندق
- هل تمانعين فى مصاحبتى لشراء بعض متطلبات زوجتى من السوق؟

فكرت قليلا ثم قالت بابتسامة جميلة:

- بكل سرور

******

تمر الأيام كئيبة جوفاء.يعود محيى الى الظهور من جديد.يكتشف بحضوره أننى غائـــب.ماعـــدت أرغب فى أبحاث لأجل العلم أو المال.اندفعت الى تعاطى الموسيقا والأدب بنهم واشتهاء.قال وهو يضغط بيده على معدته المريضة:

- لن تجد الخلاص فى الفن وحده
- لعلنى أجد فيه السلوى
- العمل المكثف وحده هو الذى يقضى على ملالة الزمن
- وما جدوى العمل لمن فقد الحافز؟

وتطول سهراتى مع أحمد قمر.يعزف على القانون أحيانا وعلى العود أحيانا اخرى.تصدح الموسيقا بين جدران المترل الصامتة.ندخن كثيرا.سجائر عادية وغير عادية.يسبّ لى فى زوجته التى يحبـها منذ طفولته وحتى لحظة السباب وبعد انتهائها.يمحق الطرب رتابة الانتظار.تصلنى شفافية الفـن بالفنان الأعظم فأصلى له.أشعر بانسجام توازناتى الداخلية التى أصابها الخلل ونخـر الـسوس فى قلبها.الكحول مفعوله مؤقت والتصوف بعيد المنال والانتظار قدر.."ونحن نعيش ياعصفورتى يا خضراء العينين أحلى أيام عمرنا.قد نكون على دراية بذلك أو لانكون.أما الحقيقة نفسها فشىء رائع.فلننعم بأيامنا ولنستحلب حلاوتها قطرة بقطرة قبل أن تنطوى فى عالم الذكريات.الها السعادة التى تختصر الزمان الى لحظة كالبرق، عبقرى من يمسك بها ويتشبث،فما أحلى حياة الحب،ومـا أحلى حب الحياة..كم أحبك أيها الخالق الفنان.علمتنى أن أستقطر من تلك الحياة المستعصية على الفهم لحظات هناء لاتفنى ولا تزول"..

كان من الطبيعى أن أدع ما للعقل للعقل وما للقلب للقلب.لكن حيرتى من أمرى تزايـدت، فلا أنا عرفت أين أقف بعقلى،ولا متى أقف بقلبى أمام ما يدور حولى من وقائع وأحداث.هزيمـة هى شر هزيمة.اليهود أمامنا على ضفة القناة.نساؤهم تستحم عاريات.ممنوع إطلاق النار.الجنـود أصاب الصدأ أرواحهم.جذوة حبى لسميرة تنطفىء. نرجس تحاول الانتحار ولا تطيق ملامـسة جسد زوجها.مجموعة من الانتهازيين يحاولون قلب نظام الحكم فينتهى بهم المآل الى السجن.خليفة عبد الناصر يتمتع بخبث شديد.ألا يلهمه الله يوما بوسيلة ينقذنا بها من الانتظار؟..لولا مـصادفة عابرة لما اختلف حالى مع سميرة عن حال مدحت مع نرجس،وربما جاء يوم تقول فيه سميرة لمدحت عنى:

–لم أعد أطيق ملامسة جسمه لجسمى

أوسخ شىء فى هذه الحياة هو الانتظار.انتظار أى شىء حتى لو كان كارثة،فلتقع وننتهى، لأنه إذا كان الموت أسوأ نهاية للحياة، فالانتظار أكثر سوءا منه.

******

عندما اقترب وقت احالتى الى المعاش تجلت لى الدنيا فى صورة غائمة مضببة يغشاها ظلام.حتى فى أحلامى كنت أهان وأضرب وأصرخ وأسجن وأظلم وأجوع وأتعرى، وأقع فى مهاو سحيقة ولا معين.يطاردنى مجهولون فأظل أجرى بين جبال ووديان وبيوت قديمة وعمائر منهارة فى طرقـات ضيقة موحلة انفجرت فيها مواسير صرف المخلفات الآدمية وفاحت برائحة العفن.أدوس فيهـا وأنا حافى القدمين وتلقى على أم رأسى من أماكن غير مرئية أكياس من القمامة ممزقة،ثم أجـرى يمينا ويسارا فى فزع،وأنبطح أرضا حتى أتفادى طلقات رصاص طائـشة تحـيط بى مـن كـل

مكان.وعندما كنت أعثر على ملجأ ألوذ به حتى أستريح قليلا ، كانت الحشرات الحقيرة تهاجم جسدى ولا أستطيع إزاحتها عنه.أصبحت حياتى مزيجا كئيبا من الخوف والحزن والقرف،وكأنها صورة كربونية من أحلامى التعسة ، أو كأن احلامى صورة كربونية من حياتى التعسة على مشارف الستين.

داهمنى شعورى التقليدى بلا جدوى أى شيء.هذا زمان فات وانقضى بلا معنى، فلماذا يختلف عن زمن فى علم الغيب سوف يجيء وسوف أتشبث به رغم يأسى منه؟..

لم أعرف كيف أنجو من حصار ذلك الشعور العبثى القاتل، بل انى استعذبت الحصار فرضخت له وتوقفت عن فعل أى شيء.أصبحت الدنيا صفرا مثلى تماما..أن أتهافت عليها أو أن أزهد فيها فالنهاية واحدة.لكن لابد أن أحد الموقفين أنسب لى من الآخر.ولما كانت حصيلة التهافت على مدى ستين عاما صفرا، فإنى رأيت أن الزهد فى الدنيا تجربة جديرة بأن تعاش ولو على سبيل الاجتهاد والمحاولة،خاصة وانى أعانى من جوع روحى شديد.

رغم ارتياحى النفسى للشيخ خليل القناوى الا أن حصيلته المعرفية لاترقى الى القدرة على حل مشكلة كهذه، فهو قلب أكثر منه عقل،والأمر بحاجة الى إعمال الفكر واستدعاء كل ما أتيح من مخزون ثقافى ومعرفى حتى يقف فى مواجهة تلك المعضلة الكبرى..معضلة التصادم بين الدنيا والآخرة.

على أية حال فقد بدأت التجربة–معتمدا على نفسى فقط– بشجاعة أحسد عليها.كنت أنا شيخى ولا شيخ غيرى. قررت أن أتجه بكلى الى الله ولا أعبأ بشيء.تمنيت أن أكون ربانيا خالصا أخترق حجاب الحس وأدخل من باب القدس وتسكن نفسى الى راح المحبة وتسطع فى قلبى أنوار ملكوتية شعشاعية فأصير من أهل المحبة. أمضيت أسابيع قليلة فارقت فيها لذة الطعام والشراب والجنس والقراءة والسهر والرقص والغناء والطرب والأصدقاء والأعداء.لم أشأ أن تكون المفارقة قاطعة مفاجئة ، وإنما أخذت نفسى برفق فصرت أتدرج فى الفراق عسى أن يصير ذلك اعتيادا.باءت المحاولة بفشل ذريع إذ وجدت نفسى مشدودا الى الأمل والتمنى والطموح،وكأننى سوف أعيش مائة عام على الأقل.فى البداية ظللت مذبذبا بين هذا و ذاك فلم أحظ بغير صفريتى المعتادة ، وظللت قابعا فى برزخى بين دنياى وآخرتى كتمثال أصم، وبدأت أفكر كثيرا فى الموت حتى أصبحت حياتى غما وكدرا.فى النهاية لم أجد أمامى مفرا من العودة الى الدنيا ولو ظللت بها صفريا لا أقدم ولا أحجم، دائما بين بين.

******

هأنا قد أحلت اليوم الى التقاعد وعدت الى مأساة الانتظار القاتل. المرة الأولى كنـــت أنتظـــر العبور ، أما هذه المرة فلم يبق ما أنتظره الا الموت البطيء.لو استسلمت للانتظار مـــرة أخـــرى فالموت الفورى أهون وأكرم وأشرف.لكنى أحب الحياة.أحبها لدرجة المرض بها،ولذلك فلن أنتظر مرة أخرى ،ولابديل عن انقلاب فى حياتى وليكن كيفما يكون. أنا لست على اســتعداد كـــى أنضم الى شلة المعاش ليكون مقررا علىّ أن أستمع الى أمجاد كل متحدث وعنترياتـــه وذكرياتـــه المنصرمة ، عن نجاحه فى العمل ومهارته فى الإدارة ورفضه تقاضى رشوة هائلة كانت كفيلة بتغيير مجرى حياته، وعن انتصاراته على خصومه فى صراعات عاتية تعرض لها.لاأحد يتحدث أبدا عـــن فشله فى عمل ما أو عجزه عن تحقيق هدف ما.الكل منتصر على الزمن،بينمـــا الحيـــاة سلـــسلة متعاقبة من الانتصارات والهزائم..هل أضطر أنا الآخر الى سرد المصاعب التى واجهتنى وكيـــف تغلبت عليها بحنكتى وذكائى وقدراتى الخاصة التى ينبغى أن أؤكد على أنها غير عادية حتى أجذب التفات الجميع واهتمامهم بما أقول؟..الحق أننى لست مضطرا إلى ذلك ولن أكون، بل سأولد من جديد.سأتأهب لاستنشاق نسمات الحرية التى حرمت منها ولن يكـــون هنـــاك انتظـــار بعـــد اليوم.سأقدم على أى فعل دون خوف أو تردد مهما كان.سأعمل وأحـــب وأســـهر وأكـــسب صداقات جديدة،وربما بدأت فى مشروع تجارى طويل الأجل لا أعرف شيئا عن ملامحه حتى الآن ، فيما عدا أنه لن يمت الى الهندسة بصلة فقد كرهتها.سأغنى وأرقص وأبتهج لـــسماع الموســـيقا وقصائد الشعر،وأهيم حبا فى جمال البحر حين يهدأ وحين يثور. لن يوقفنى شيء عن الانصهار فى الحياة والتعامل بفن وحذق مع ألاعيبها الخسيسة، والصبر على شدائدها ومكائدها، والـــضحك منها حتى البكاء..ولكن كيف ومتى يحدث هذا كله؟..لست أدرى.

لو كنت وثنيا لعبدت البحر.أراه أعظم وأجمل وأقوى من الشمس والقمر والنجوم والجبـــال والرياح والأنهار.أيام طويلة مرت على نفس المنوال.خشيت على انتفاضتى من الذبول.أذهب الى الشاطىء.أجلس على كافتريا أم فؤاد مستأنسا بصدرها الواسع الكبير.أستغرق فى التفكير فيمـــا ينبغى أن يكون المخاض.قلت لها انى أكاد أجن من القلق.هى تجيد الاســـتماع.تلمـــع عيناهـــا العسليتان ببريق التفكير فى إبداء رأى أو اتخاذ موقف أو تقديم عون،كما لو كانت عدة رجـــال مجتمعين.قالت لى بثقة:

– ربك كريم..كلنا ننتظر.. إنزل البحر وبكره تفرج

لم أكن أنزل البحر لأعوم وأنا السباح الماهر.كنت أستلقى بظهرى على الماء وأترك نفسى علـــى هذا الوضع زمنا طويلا قدر استطاعتى دون حراك، كما لو كنت جثة غارقة طفت على ســـطح

البحر.أستمع الى هسيس الماء وهو يدغدغ جسدى وأسبح فى سماء الله.أليس هو المـدبر لأمـر الكون ، فلماذا لايدبر أمرى؟..

أخرج لأجفف نفسى وأعاود الجلوس مع أم فؤاد.أتأمل قدرتها الفائقة على إدارة عملها بفطرة المدير الناجح،وكيفية تعاملها الحنون القوى مع البشر.أخرجتنى من أزمتى بأن أدخلتنى فى أزمتها.فؤاد بدأ فى تحول مخيف.ربى ذقنه.راح يتحدث كثيرا عن الحلال والحرام.المجتمع عنده فاسد كله،كافر منحل، يعم فى الفوضى وتعم فيه.الحكام ظالمون مستبدون لايراعون الله فى الشعب الذى يحكمونه.انقطع عن عمله وانضم الى جماعة غامضة أقام معها.لم يعد يأتى الى الشاطىء لمساعدتها ولا حتى الى البيت إلا قليلا.عندما يأتى فمتعللا بصلة الرحم فقط.فصل من عمله لطول تغيبه بدون إذن.كنت أستمع الى شكواها وأنا الذى بحاجة الى من يستمع لشكواه.شكواى من حلم يداعبنى ويراوغنى ولا أعرف ماهو ولا كيف ولا متى يتحقق.يبدو أننى "هجاص"كبير.أقول ولا أفعل.أتمنى ولا أتحرك.لا أختلف عن مصر الآن فى شىء.إعجابى بأم فؤاد دفعنى الى الإصغاء اليها باهتمام وحسن نية.قالت:

– فكرت أن أشترى له مقهى يديره ويرتزق منه لكنه رفض

– وهل من المعقول أن يتحول فؤاد من أخصائى اجتماعى الى قهوجى يا ام فؤاد؟

– ولم لا؟..ألست أقوم بنفس العمل وأعيش منه؟

سكتّ طويلا ثم سألتها بعفوية:

– ماحكاية هذا المقهى؟

– صاحبه مضطر الى السفر..والمقهى لقطة

الله يحول الأسود الى أبيض بكلمة من حرفين لاثالث لهما...

– من هـو؟

– أنت لا تعرفه..ولكن فيم اهتمامك بهذا الأمر؟

لا أحد يعرف أين يختبىء القدر ، ولا متى تجىء ضربته...

– لا أعرف..مجرد كلام لقتل الوقت

قالت بحزم قائد جيش كبير:

– أنا أعرف..إشتر المقهى يابشمهندس.

******

انتشر الخبراء الروس فى الجيش المصرى كالسرطان.مواقع صواريخهم على الأرض المصرية محرمة على المصريين.لن نضرب بها العدو إلا حينما يريدون هم لا عندما نريد نحن. انتقل محيى الى موقع

عسكرى جديد فى مرسى مطروح. دعانى للاستمتاع بجمال الشاطىء مع زوجتى رغم أنه كـــان عام الحسم كما أسماه انور السادات. حصلت على اجازة طويلة من قائد وحدتى الجديدة نظـــير مساعدتى له فى أبحاثه العلمية للحصول على الدكتوراه. استأذنت مدحت أن أستـــضيف معـــى مدحت ونرجس فلم يمانع.

لم أوفق فى تصفية الجو بينهما وانعكس ذلك على سميرة بالحزم والتعاسة.فوجئت بصوت خافت يهمس فى نفسى فرحا لفشلى فى مسعاى. تتبعت مصدر الصوت لكنى لم أهتد اليه. حاولـــت أن أصل الى سبب ملعون يدعو اليه فلم أعثر له على أثر فى ظلمات لا وعيى.أى وحل عفـــن هـــذا الذى يلوث نفسى دون أن أدرى..كان الضباط الروس وعائلاتهم يعيشون أسعد أيام حيـــاتهم فى هذه البقعة الساحرة من شواطىء مصر.منظر خلاب.طعام فاخر.سكن نظيف.تكيـــة لاصـــاحب لها.راحة أحلى من الحلم بعيدا عن السكن الواحد والملبس الواحد والحزب الواحد، حيث لاقيمة لفرد منفرد ولا اعتبار.

فى ملهى "السيروكو"على قمة الجبل العالى المطل على المرسى بأكملـــه، صـــدحت الموســـيقا وتبودلت الأنخاب،وراحت المأكولات والمشروبات وجاءت.سميرة لاتحب الرقص.بقيت مع مدحت الى المائدة.رقصت مع نرجس التى ابتسمت لأول مرة منذ جمعتنا السهرة. لم تنجح الابتـــسامة فى إخفاء مشاعرها وانفعالاتها المتداخلة.الحزن.الصدمة.الشقاء.انهزام الإرادة الفولاذية أمام عناد المال والجاه.التلميح الى شيء مجهول لكنه مثير حتى الجنون.اقتربت منى.انطلقـــت كلماتهـــا ناعمـــة نافذة.التصقت بى.لم تعبأ بمدحت أو سميرة.اختلست عينـــاى القلقتـــان نظـــرة غـــير بريئـــة الى المائدة.سميرة تبتسم فى سعادة.انسانة بسيطة.رغباتها من الحياة قليلـــة.مـــدحت زائـــغ البـــصر كعادته.مسكين.حاولت مفاتحتها فى الأمر من جديد.قالت بثقة ذات مغزى:

- أرجو ألا تفسد هذه الرقصة الرائعة
- الوفاق ضرورى لاستكمال رحلة حياتكما معا

نظرتنى بعينى ثعلب:

- أشك فى ذلك
- لماذا؟
- هناك أسرار لايباح بها

ازداد التصاقها بى.كانت على وشك أن تضع رأسها على صـــدرى وتنـــام.تـــضاعف تـــوترى وارتباكى.إنى أخشى هذا النوع من النساء.لست أطمئن إلا للمرأة الوديعة المسالمة الـــتى يـــسهل قراءة نظراتها.عدت الى المنزل مضطربا تكتنفنى مشاعر غامضة مترعة بالقلق والدهشة والذهول.

فى الصباح اختليت بسميرة على الشاطىء.حاولت استعادة ذكرياتنا الجميلة على شاطىء المنتزه...كنا نجلس فى صمت جميل على مقعدين متجاورين، أحيط كتفيها بذراعى.أمامنا راديو ترانزستور تنساب منه موسيقا كلاسيكية ساحرة.جعلنا عيدى ميلادنا عيدا واحدا.بقايا شمعة صغيرة أطفأناها سويا. كان الصمت بيننا أروع تعبير عن الحب الذى يسرى فى دمائنا ولا يحتاج الى أى كلام يقال..متى تصحو الأحلام من رقادها،ولم لاتعاود جذوة الأمنيات المنطفئة الاشتعال أبدا؟..

فى الغروب جلست وحدى بالشرفة أتأمل تسلل قرص الشمس الأحمر الى الماء.جال بخاطرى مشهد جنازة عبد الناصر.كثير من الشباب السائرين فى الجنازة لايصدقون انه مات.ربما كانوا يعتقدون فى خلوده.أنفث دخان سيجارتى شاردا وراء لحظة صفاء هائمة أتشبث بها فربما تسفر عن شيء ذى نكهة.أرتشف الشاى الذى أعدته لى سميرة قبل أن تنشغل فى إعداد بعض الحلوى للمساء..جمهرة من الأطفال الحفاة وبعض المسنين وكثير من نسوة المنطقة يحتلون الساحة المواجهة للمنزل.يتلقفون علب المأكولات والعصائر المحفوظة التى تلقى اليهم من بعض الشرفات بمنازل الروس، الذين فوجئوا بقرار ترحيلهم من مصر.سبحانك يارب!..

تفجرت مظاهرات الطلبة احتجاجا على انتهاء عام الحسم دونما حسم،وبقى اليهود على ضفة القناة.قرون الاستشعار المصرية لاتخطىء.يتمتع بها العلماء والجهلاء على السواء، فالهند تضرب الباكستان والروس الخبثاء يورطون السادات ، فلا حسم ولا قرار دون الرجوع اليهم.قال الرجل وهو فى غاية من الحرج إن الحسم لم يتحقق لأن جو العالم يكتنفه "الضباب".هكذا انتقلنا من عام الحسم الى عام الضباب.تهافت النسوة والصبية على اختطاف العلب الملقاة.أى شيء وكل شيء يمكن أن يحدث فى هذه المنطقة المنحوسة من العالم.عشت وشفت الروس يتصدقون على الرعاع من أموال الرعاع أنفسهم."زغرتى ياللى مانتيش غرمانه"..مضطرون الى الرحيل عن أرض أبى الهول خلال أربع وعشرين ساعة.تمرد عليهم السادات بعد أن زهق منهم فقرر طردهم من البلاد.انبهرت بقراره وارتفع ضغط دمى حماسا وفرحة.اهتز جمودى وتحرك سكونى واستنفرت إرادتى.اتصلت على الفور بقائد وحدتى بالاسكندرية.سألته بصوت مكهرب بشحنة متفجرة بالحماس:

–هل أقطع إجازتى وأعود الى الوحدة فورا؟

أجابنى ببرود قاتل:

–استكمل اجازتك ولاتنس الشاى الليبى الذى أوصيتك به

تصورت أن القائد لم يستوعب القرار الخبيث.ربما خيل اليه أنه مجرد مقدمة لإحدى المـــسرحيات السياسية التى برع فيها السادات واعتدناها منه، فليس من المعقول أن يكون قد اتخذ قرارا فعليا بالحرب. إما أنه مجنون وإما أنه قد انتهى فى السر من وضع ترتيبات محكمة لعبور ذلك المانع المائى الرهيب الذى طالما هددونا بإشعاله بالنابالم لو فكرنا فى محاولة اجتيازه. إن كان الأمر كذلك فلابد أنه أعد العدة لتدمير خط بارليف الحصين الذى قالوا باستحالة تدميره ولو باســـتخدام القنابـــل الذرية..لماذا إذن يطرد حلفاءه؟!..لعله لم يجد بديلا عن مغامرة انتحارية يستعيد بنجاحها كرامـــة شعبه، أو يحكم بفشلها على هذا الشعب بالفنـــــــــاء.

******

فوجئت بعربة"بوكسفورد"تقف أمام المقهى وينزل منها وائل –ضابط المباحث الشاب–بمفـــرده، تاركا زبانيته بالعربة.دخل علىّ بوجه مرهق فيه بشاشة مصطنعة.دعوته لتناول فنجان من القهوة فجلس بجوارى وقال مترددا:

- كيف حالك يابشمهندس؟
- نحمده ونشكر فضله..خير ان شاء الله
- كل خير..لنا طلب بسيط عندك وأنا واثق فى وطنيتك
- تعيش
- كل المطلوب منك أن تعلق لافتة قماشية على المقهى تبايع فيها الرئيس مبارك
- أبايعه؟؟!!..
- طبعا

المسكين يرى الوطنية فى مبايعة مبارك!..قلت له مسلحا بالصبر:

- الذى أعرفه أن المبايعة لاتكون إلا لمرشح وحيد،لكن هناك تسعة آخرين
- عارفين والله..المهم أن تعلق اللافتة
- ولنفرض أننى لا أريد انتخابه..أنا فعلا لن أنتخبه
- المهم أن تعلق اللافتة.هذه هى التعليمات الأمنية لأمة خلقه،وإن لم تكن تـــصدقنى اســـأل سيادة المقدم عادل مراد.

قال ماقاله وانصرف.المعلم مراد شيء والمهندس مراد شيء آخر.لن أنتكس مرة اخرى.قررت ألا أعلق اللافتة وليكن مايكون.ألقيت بنفسى على مائدة الأدباء الذين كانوا يتندرون من ظـــاهرة تكرار اعتقال زميلهم الصحافى عبد القادر حسن، ثم الإفراج عنه بعد تأديبه فى القـــسم بطـــرق عديدة أقلها سب دين أمه وأبيه.كانت تحية ثائرة بسبب تعرض المتظاهرين المطالبين بالديموقراطية

الى الضرب بالهراوات من عساكر وضباط الأمن المركزى،وبالسنج والمطاوى من بلطجية الحزب الحاكم وخريجى السجون الذين استأجرهم من الداخلية.حدث ذلك يوم الاستفتاء الوهمى على التعديل الوهمى للمادة٧٦ من الدستور.أطلق صحافيو المعارضة على هذا اليوم:"يوم الأربعاء الأسود"واعتصموا وتظاهروا وأضاءوا الشموع فى المساء أمام ضريح سعد زغلول،تعبيرا عن احتجاجهم على تزوير إرادة شعب بأكمله إرضاء للأسرة الحاكمة.قال لها حلمى سليم ساخرا:

–أبشرى،فالسيدة فرنسيس تاون مبعوثة سيدنا بوش عليه السلام تستجوب الآن وزير داخليتنا الهمام حول وقائع الضرب الوحشى للمتظاهرين والقبض على الإخوان المسلمين عمال على بطال.

كان نوفل صامتا والخزى يكسو معالم وجهه.

******

فى المساء فاجأت صحبة البار بالجلابية التى ارتديتها لأول مرة ، ومن فوقها عباءة بنية مزركشة الحواف.انفجروا جميعا فى الضحك الممزوج بالدهشة،وصاح عبد الله السعيد:

–انظروا..الحاج مراد فى "النيولوك"!

وقالت فادية السبع بصوتها الذكورى المتحشرج:

–اذا كان الرئيس بجلالة قدره قد خلع الكرافات وعمل نيولوك

بوقار شديد قال رفعت عبد الفتاح:

–الحمد لله.اطمئنوا ياجماعة.بلدنا بخير والحمد لله.كل حاجة أصبحت الآن محطوطة فى مكانها.

فهم عبد الله أن رفعت يمهد بمقولته الساخرة الطريق لنفسه حتى نتركه يردد مايهتف به المتظاهرون كعادته،وكأنه هو الذى كتب لهم شعاراتهم:كفاية فساد.كفاية استبداد.كفاية تمديد.لا للتوريث.انتخابات حرة ودستور جديد.إفراج عن المعتقلين السياسيين وعلى رأسهم الإخوان المسلمين.ضمان حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف.منع حبس الصحفيين الذين يثيرون قضايا الفساد.استقلال السلطة القضائية.إلغاء قانون الطوارىء..وما إلى ذلك مما تطالب به حركات "كفاية" وغيرها من الحركات النشطة التى حركت الماء الآسن فى بحيرة الحياة السياسية الراكدة لأول مرة منذ نصف قرن..لذلك نظر اليه عبد الله نظرة تحذير حاسمة وهو يقول:

–إياك والسياسة.اتفاقنا الدائم أن يكون مجلسنا للفرفشة فقط

لكن رفعت كان ينقض الاتفاق دائما فى كل مجلس، حتى لو لم يهتم به أحد..لعبت الخمر برأسه ورغم ذلك كان واعيا بلامبالاة الشلة بما يقول.حاول استفزازهم حتى يجذب انتباههم فقال:

–صدقونى انى لأرى فيكم سوى مجموعة من العبيد اليائسين

نهره عبد الله فاعترضت فادية قائلة:

–اتركه يقول الحقيقة ودعنى أضيف اليها اننا كذابون،نقبل الذل ونتمسح فى السماحة لندارى جبننا،ونتشدق بالدين لكى ندارى انحرافنا .

غضب عبد الله وكاد يقف مستعدا للمغادرة.أدرك رفعت الموقف بذكائه الفطرى فقال بسرعة وبلا مقدمات:

–أنا مرّة نمت مع بنت فنلندية انما إيه..ياسلام ياجدعان..لوز مقشر والله..كانت بالنسبة لى مرتبة ولحاف فى وقت واحد!

أشعلت سيجارة ملفوفة وسرحت فى حب الله.كنت سعيدا بجلابيتى التى أضفت شكلا جديدا ومناسبا لمضمونى الجديد.المعلم مراد.الحاج مراد.صاحب مقهى الشعب.

******

تركت البار وتوجهت الى المسجد.اعتاد الشيخ خليل البقاء بالمسجد بعد صلاة العشاء لفترة يلتقى فيها بأحبابه ومريديه ، والذين أعد واحد منهم.أحب سماحته ووجهه البشوش المريح وصوته الخفيض وحجته القوية وروحه المرحة،وتحرره من التشدد والتعصب بدرجة رائعة.الشيخ خليل يعرف عنى كل شيء.يحب الاستماع الى أحاديثى عن أحوالى،ولايعلق إلا حين أطلب منه..فى المسجد أتكلم معه فيما لا أستطيع الكلام عنه مع أم فؤاد.خليل هو القلب الحنون،وأم فؤاد هى الصدر الحنون..وما الحياة بلا حنان؟.. قال لى بابتسامة تقطر مودة:

- طيب القهوة وقلنا ماشى.الجلابية وسكتنا.الحشيش وغلبت معاك ولافائدة..أما جلوسك فى البار فهذا مالا أرتضيه لك أبدا
- أنا لا أشرب يامولانا
- لكنك تجالس السكارى
- والله يا أخى مجلسهم جميل يشرح الصدر ويذهب الغم والكدر عن النفس
- يارجل اتق الله
- اسمع..انا عازمك الليلة على عشوة كوارع
- وما المناسبة ان شاء الله؟
- الكوارع ترمّ الركب،والمؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف

******

فى البيت قالت سميرة متهكمة ولكن فى أدب:

- موضة جديدة تعلمتها يامراد..العشاء خارج البيت

– من ستين سنة وأنا أتعشى فى البيت..كفاية!

******

●من الملف رقم(٥):

وائل الأبراشى:

الوضع فى مصر الآن لايقبل"المنطقة الوسط"ولايرضى بمسك العصا من المنتصف.نحن فى مرحلة الفرز الحقيقى.قل كلمتك الآن وامض وتحمل الثمن،فلن يكون مقبولامن أحد أن يقول كلمته بعد أن تنتهى هذه الفترة الحساسة والدقيقة والمفصلية فى تاريخ مصر.سوف يسأل على الفور:أين كنت حينما كان النظام يمارس الاستبداد ويتورط فى الفساد،ولماذا تأخرت فى أن تحدد موقفك وتقول رأيك؟..هل فضلت الأمان والسلامة؟.هل اخترت الانتظار حتى يسقط النظام؟..الوضع الآن فى مصر لايقبل بطولة الوقت الضائع ولا يرضى بالمواقف المتأخرة.الحياد مصيبة.الصمت مصيبة أفدح.هذا زمن الفرز الحقيقى فى المجتمع.انضموا الى كتيبة التغيير أو اركبوا سفينة النظام التى تغرق.سجلوا اسماءكم فى جمعية إصلاح مصر أو اقبلوا أن تكونوا أعضاء فى حزب تخريب مصر.

...وائل الأبراشى صحافى ثائر ومعارض للنظام والمحرر الأول بجريدة صوت الأمة.

المستشار محمود مكى:

النظام ليست لديه الرغبة فى التغيير لأن طبيعة الحكم الشمولى ترفض تقييد سلطات الحاكم المطلقة.ان مبارك يرى القضاة من خلال التقارير الأمنية ولم يجلس معهم طيلة خمسة وعشرين عاما،والشعب فقد الثقة فيه.إذا كان على أن أشخص الحالة السياسية ونظام الحكم فى مصر،فأنا أشخصه بأنه أشبه بمريض بالشيخوخة،والتى اذا تسللت لأى شخص ، فإنه يصاب بقصور فى السمع والإبصار.أصبح من الصعب على النفس البشرية التى اعتادت تجميع كل السلطات فى يدها والتحكم فى كل شىء ورفض المعارضة والرأى الآخر،أصبح من الصعب عليها سماع غيرها، أما المواطن فقد أصبح لزاما عليه أن يقوم بالتعامل مع هذا المريض بأن يعلى صوته بأعلى ماعنده حتى يسمعه، ويحاول أن يلفت الأنظار اليه حتى يراه..وهذا هو الذى ينقذ المريض من الدخول فى الغيبوبة أو الموت الإكلينيكى.

...محمود مكى هو نائب رئيس محكمة النقض والمعارض لتزوير الانتخابات.

ابراهيم عيسى:

هذه دولة بوليسية لاتعرف سوى طريقة ضابط المباحث الخائب الذى لايجيد سوى تلفيق القضايا والاتهامات،والنصب والتعذيب لانتزاع الاعترافات الوهمية.هذه دولة تتمتع بقدر هائل من عمى

القلب.حين تحاول أن تقمع جريدة فإذا بها تكشف عن خيبة وعجز وتـــربص وترصـــد،وتعرى نفسها أمام العالمين "خايبة وش وظهر..خايبة الصيف خايبة الشتا".لقد حجزت أجهزة الدولة على جريدة صوت الأمة بقضية عبيطة وملفقة ووهمية ،وهى محاولة مكشوفة لإرهاب صوت الأمة بعد أن أصدروا حكما قضائيا بسجن رئيس تحريرها وأحالوا رئيس تحريرهـــا التنفيـــذى الى محكمـــة الجنايات.لقد مارست الدولة أعتى وأغبى وسائلها فى الترويع والتهديد ضد الصحفيين الـــشرفاء الذين لم ولن ينضموا الى قطيع الموافقة والمنافقة الممالئة والمهدئة حتى لو سجنوا أو حجزوا علـــى أموال أو ضربوا أو قتلوا..افهموها "بقى"..كونوا خصوما شرفاء بدلا من ألاعيب وحيل ووسائل الخصم النذل.

ويقول ابراهيم عيسى فى مقال آخر:

ليس على حسنى مبارك أن يخاف من المعارضين ولا أن يخشى من الإخوان المسلمين على عرشـــه وحكمه،بل أظن أن عليه أن يخاف ويخشى من القتلة ومختطفى النساء ومغتصبى البنـــات علـــى حكمه وعرشه،فالفوضى القادمة فى مصر لن يكون فيها معارض ولا إخوانى.سيكون فيها فقـــراء ومطحونون ومحرومون ماديا وجنسيا اشتد بهم الغضب الى درجة العنف والقتل والعـــدوان.لـــن يحطموا يومها واجهات محلات أو كباريهات شارع الهرم كما حدث من قبل، بل سيصعدون الى العمارات والبيوت وسيحطمون كل شيء فى طريقهم..وأول ما سيتحطم ساعتها هو اســـتقرار حكم مبارك.

...ابراهيم عيسى هو رئيس تحرير جريدتى صوت الأمة والدستور.

عبد الحليم قنديل:

ان الجهالة الأمنية النافية لمدنية الدولة توسع نفوذها فى لحظة انهيار وانحطاط غير مسبوق. صارت الكلمة العليا للأمن فى حكم لم تعد له من دعوى سياسية سوى ايديولوجية النهب العام.تحولـــت الدولة الى عصابة نهب،وتحول الأمن الى سلاح للكبت جرى على الأجهزة الأمنيـــة المتـــضخمة الميزانيات والإمكانيات. لم تعد قوات لأمن دولة أو نظام ، بل تحولت عند سلاسل القيادة العليـــا بالذات الى حام وشريك تأخذ نصيبها من الكعكة بحكم العضلات الأقوى،وترد الجميل لـــرأس العصابة بسبل الحماية الى حد الاغتصاب..وإذا كان طبع القوة العارية هو الاغتصاب فإنها تخـــدم نظاما بالمعنى المجازى يغتصب الثروة ويغتصب السلطة،والاغتصاب بنزوع التملك المسروق خيط ممتد من اغتصاب الأرزاق الى اغتصاب الأبدان،فعائلة مبارك تغتصب البلد،وجيش العصابة مـــن وزير الداخلية الى العسكرى الأسود يغتصب أهلها..عائلة مبارك تغتصب مصر،وعصابة مبـــارك بانفلات الغرائز الوحشية تغتصب المصريين.

...عبد الحليم قنديل هو أول من عارض التمديد والتوريث بحدة قاطعة وهو من مؤسسى حركة كفاية.

المستشارة الدكتورة نهى الزينى:

نحن فى حالة تشبه حالة المخاض الذى يسبق الولادة،ولكن على أية صورة سيأتى المولود ،وهل سيأتى سليما أم معوقا؟..لاأحد يعرف.المثقفون أصابهم يأس شديد من الفساد المستشرى فى كل مكان ومن القهر والاستبداد وتكميم الأفواه،ورجل الشارع العادى تم تجريف وعيه السياسى منذ فترة طويلة،فبعد حرب٧٣ ثم سياسة الانفتاح بدأت عملية اللهاث وراء سراب الرفاهية أو الرخاء الذى لايأتى إلا لطائفة محدودة تساهم بدورها فى إفساد الحياة السياسية وإفقار عامة الشعب فى حلقة لاتنتهى.أما النخبة الحاكمة فكل همها هو الحفاظ على مناصبها مهما كانت التنازلات أمام القوى العالمية المتغولة. إن مايحدث فى الداخل هو نتيجة لما وصل اليه وضعنا دوليا من استسلام مخز لأية شروط تفرض علينا بلا أدنى قدرة على المقاومة على كافة الأصعدة عسكريا وسياسيا واقتصاديا..وقد فقدت مصر مكانتها العربية وحققت الصهيونية هدفها فى تهميش الدور المصرى تماما،وفى كل يوم يزداد حجم الخسائر،لذا فالصحوة الشعبية هى طوق الإنقاذ،وهذا لن يتم بغير تضحيات يقدمها الشرفاء فى كل مكان.

...نهى الزينى هى التى كشفت عن تزوير الانتخابات فى دائرة دمنهور وأعلنت ذلك فى الجرائد.

******

اقتحم مدحت خلوتى فسألته:

-ترى هل سنحارب؟

أجاب بتركيز شديد على مخارج ألفاظه:

-سأسافر الى الكويت خلال أسبوعين

تملكت منى فرحة لاتعادلها إلا فرحتى بأن نبدأ الحرب بالفعل وسألته:

- كيف؟
- حصلت على عقد عمل بأحد المستشفيات هناك
- ونرجس..هل تأخذها معك؟
- ستنتظرنى لحين إعداد سكن،والبحث لها عن عمل مناسب
- عسى أن تكون خطوة ايجابية لرأب الصدع

توقعت أن تسعد نرجس بهذه الخطوة المتوافقة مع أحلامها، لكنها تجاهلت الأمر كلية.لعلها لم تكن واثقة من جدية مدحت فى تنفيذ ما اعتزم عليه.ربما لم يطلعها على قراره حتى الآن.سألتها بفضول شديد:

-لماذا لم تخبريني بهذا النبأ السار؟

ابتسمت فى لامبالاة ولم تعلق بشيء.قلت لها:

-أسباب سعادتكما لاينقصها الا المال،وهاهو فى الطريق

أجابت بنفس الابتسامة:

- ثقتك الزائدة بمدحت تذكرنى بثقتى به أيام الحب

- ما معنى هذا ؟

- مدحت اعتاد حياة مرفهة يطلب فيها فيجاب،وهأنا اليوم أدفع الثمن بلا عائد

قالت انه لن يطيق الغربة ولن يحتمل حياة الجفاف والوحدة.لن يرضى بالعمل الشاق ولن يقبل المعيشة مع أغراب مختلفى الطبائع.لن يعرف كيف يقتصد فى الإنفاق وسوف يبحث عن سبب تافه يتكيء عليه ليبرر عودته الى مصر صفر اليدين.

خلال انطلاقها الحماسى فى سرد مساوئه،تعمدت أن تعقد مقارنات موحية بينى وبينه، تدسها فى الحديث بدهاء مخيف، فأنا فى نظرها إنسان عاقل متزن.رجل يعتمد عليه.موضوعى يميل الى الحذر والاعتدال فى الأشياء والمواقف.لم أعرف من أين أتت بهذه الصفات الوهمية التى لا أعرفها عن نفسى وأضفتها علىّ.أنا الحقيقى لايعرفه أحد حتى أنا.تذكرت الموسيقا وحلبة الرقص والتصاقها الشديد بجسدى عن عمد.عاودتنى الهواجس الشيطانية وانتابتنى الحيرة،فهرعت الى سميرة ألوذ بجسدها الذى كان منتفخا بالحمل، فهذا الذى يقهر نفسه أعظم من ذاك الذى يفتح مدينة.

كان صيفا مفعما برائحة خريفية.سافر مدحت الى الكويت وجاءت نرجس الى المستشفى لتهنئنا بالمولود عادل.لم ألمح فى عينيها صدق السعادة بمقدم الوليد. كانت تعسة حتى أذنيها. أفاقت سميرة من المخدر وكان أول ما نطقت به إسمى. قالت لها أمها بعتاب جميل:

- تنسين من بقيت سهرانة بجوارك حتى الصبح ولاتذكرين إلا"مراد"؟

أصرت نرجس على دعوتى للغداء، وألحت سميرة على أن أقبل الدعوة.بقيت الأم وذهبنا -أنا ونرجس- الى منزل العائلة.فوجئت بمائدة معدة إعدادا خاصا،كما لو كان من المعلوم مسبقا قدوم ضيف مهم للغداء.جلسنا نشرب الشاى.جثمت على أنفاسنا لحظات صمت ثقيلة كجبل.انفصل كل منا عن زمانه ومكانه.تنبهت اليها فجأة فهالنى ما رأيت.دموع غزيرة تنساب من عينيها فى

تدفق مثير، والويل لرجل من دموع امرأة فاتنة.اكتفيت بالتعبير التلقائى عـــن دهـــشتى البالغـــة وتأثرى الشديد دون أن أتفوه بكلمة.فى البداية حاولت أن تمسح دموعها بمنديل، ثم ألقـــت بـــه وانفجرت تبكى بصوت مسموع.كان نشيجها المتقطع أشبه ببكاء صـــبى فقـــد شـــيئا عزيـــزا عليه.سألتها بصوت لايكاد يسمع:

- ما بك؟
- لم أعد أستطيع الصبر
- ما الذى حدث ؟
- أفضل ألا أتكلم

انتقلت لا إراديا الى جوارها.وجدت نفسى أربت على كتفها محاولا تهدئتها.ناديت على الخادمـــة لكى تحضر لها كوبا من الماء.هزت رأسها قائلة ان الخادمـــة لم تحـــضر اليـــوم.أحـــضرت لهـــا الكوب.قربته من فمها الوردى الدقيق، فراحت تشرب وعيناها الحزينتان مثبتتان فى عمق حدقتى عينى، بإيحاء أثار الرعب فى جسدى والهياج فى عصبى.تذكرت عادل وتمثلت فى مخيلتى الـــشتيتة مشاعر السعادة الطاغية فى عينى سميرة بثمرة حبنا الأولى.

–اهدئى وصرحى لى بمتاعبك، وثقى بأننى سأكون أمينا على سرك

لو لم أسارع بالعودة الى مقعدى لارتمت فى حضنى.استأذنتنى كى تغسل وجهها وتغير ملابـــسها. رحت أعبث فى اسطواناتها الموسيقية وأنا غارق فى مشاعر متناقضة تتأرجح بين القلق والترقـــب والتردد الذى أدمنته حتى فى مشاعرى.وضعت اسطوانة على القرص وانبعثت الموسيقا عالية تمزق لهفة الانتظار والتطلع الى طلاسم المجهول.نسيت أنه لابد من العودة الى وحدتى هذا المساء لتسلم نوبتجية الحراسة.أحرس ماذا ومن ماذا؟!..الحقيقة انها حراسة زائفة لشىء واحد هو الوقت. رغم ذلك فإنه يهرب من الحراسة مهما كانت كثافتها ، دون أن يجرؤ أحد على اعتراضه.

أقبلت فى ثوب وردى نادر الجمال .كان وجهها مختلفا تماما عن الوجه الذى تركتنى به..ربمـــا كانت تبتسم، لكنى لم أفهم جيدا ما أوحت به تلك الانفراجة الرقيقة بين شفتيها.عندما جلـــست قدمت لها سيجارة فاعتذرت.استجمعت إرادتها وقال بنبرات عميقة:

- تريد أن تعرف مأساتى ..
- ليس لمجرد المعرفة، ولكن بغرض المساهمة فى التوصل الى حل
- وإذا لم يكن الحل بيد أحد؟
- لنأمل فى الله خيرا

ابتسمت بمرارة وهى تقول فى يأس:

- إعلم أن مدحت عاجز عن ممارسة الحياة الطبيعية معى

لم أصل بتفكيرى حتى أقصى مداه.ظللت مشدوها وموسيقا عبد الوهاب تضرب فى قلبى، وبينما كان عقلى يفكر فى مقصدها تملكنى خجل شديد.نظرت اليها فرأيت شررا متطايرا من عينيهــا يحرق الناظر اليها بقوة التحدى.هذه هى المأساة يامراد.إن كنت رجلا صادق العزيمة فى البحــث عن حل فتقدم. لكنك لن تفعل شيئا لأنك لاتستطيع وربما لأنك لاتريد.قالت انهــا باختيارهــا لمدحت فقد وقعت على أتعس اختيارات حياتها.فلا هى طالت الحياة التى تحلم بها،ولا هى طالت أبسط حقوق زوجة فقيرة تستمتع برجولة زوجها بعد تناول عشاء تقليدى من الفول والطعميــة والطرشى،ومن بعدهم كوبا من الشاى وسيجارة. حتى المسكن المستقل حرمت منــه ردا علــى تحديها السافر لصهرها العنيد باختطاف انه منه.قلت لها ورأسى منكسة:

- الأمر يحتاج الى تفكير وروية،ولامعنى لأن تفقدى الأمل فى كل شىء.
- أنت أول إنسان أطلعه على هذا الأمر
- ربما يأتى العلاج الطبى أو النفسانى بنتيجة
- لا أمل فى علاج الرجال الضعفاء

انكشف أمامى المستور.فى كلماها ونظراها احتقار جلىّ لمدحت الضعيف دائما أمام تسلطها وأمام جسدها الفائر.لو أحضر لها مال الدنيا فستبقى سعادها بعيدة المنال. لم تكن نكسة يونيــه-كمــا صورت لى سذاجتى-وإنما كانت نكستها هى الدافع الى محاولة الانتحار حين تأكد لها أها فقدت كل شىء.

سطع أمامى ضوء الحقيقة كاشفا فاضحا فازداد تعاطفى معها وتمنيت لــو أفعــل المــستحيل لإسعادها، لاتحقيقا لرغبة سميرة، وإنما لرغبة حقيقية تأصلت بداخلى وتجذرت.لم يكن هناك بد من إهاء الزيارة.تركتها دون أن أنسى تشبث يدها بيدى لحظة المصافحة الأخيرة.

******

بعث نور القمر من خلال أمواج البحر المتحاضنة برسالة شفرية الى أرض معسكرنا الصغير على شاطىء البحر.على ضوئه الفضى البهيج قرأ كل منا رسالته كيفما يريد. قالــت لى الرســالة ان الحب جميل والحياة حلوة وجديرة أن تعاش به.لكن لامفر من الحرب والدماء حتى نكون جديرين بها كرجال.لابد أن هذا الخاطر قد راودنا جميعا-بصورة أو بأخرى-على اختلاف أهوائنا وثقافاتنا ومشاربنا،فقال كلّ منا ماعنده بانسياب صريح. أمامنا اكواب الشاى وعلــب الــسجائر،ومن خلفنا بقية العساكر يغطون فى نوم ثقيل.الحياة لم تتوقف بسبب النكسة،والنــسمات الخريفيــة

مازالت كعهدها تداعب أمواج البحر الرقّاصة على موسيقا القمر الفضية المتلألأة. نحن مجنـــدون منذ أربع سنوات فماذا فعلنا؟..قلت:

-لاشيء !!

قال ربيع الصحفى المتميز دائما بين أقرانه:

-بل فعلنا الكثير.انتقلنا من إعادة بناء الجيش بعد تدمير البارجة الاسرائيلية"إيلات" الى مرحلة الصمود، ثم الى مرحلة الردع،ثم الاستتراف.

قال اسحاق منقريوس الصحافى الحديث التخرج:

-الحقيقة أننا لم نفعل شيئا بهذه السنوات،بل هى التى فعلت بنا ، أن علمتنا الكسل والانتظـــار وبلادة الذهن واللامبالاة بأى شيء

واستطرد قائلا بعد فترة صمت ألمت بنا:

-اننا بحاجة الى حدث كبير يهزنا من أعماقنا ويعيد الينا رجولتنا المسلوبة

لم تكن هناك مودة بين ربيع وإسحاق،فالثانى دمث الأخلاق مرح الطباع.كان ربيع يـــستمع الى كلماته وعلى فمه ابتسامة هازئة.اندفع ممعنا فى السخرية من كلام اسحاق:

-تصفيق حاد ياجماعة

وأخذ يصفق بشدة.فوجئت بأننى أشاركه التصفيق مع الآخرين.لم يلبث اسحاق أن انضم الينـــا مصفقا هو الآخر، لكنه تركنا لينام.جلسنا نتأمل صفاء السماء وكل منا يرقب علـــى طريقتـــه مناجاة النجوم لإشراقة القمر،ورغاوى الموج البيضاء وهى تتكسر على الشاطىء. سألنى ربيع عن مدحت فأخبرته أنه سافر الى الكويت.قال بحماس:

- لقد فعل العيسوى بك المستحيل لإثنائه عن عزمه
- لماذا؟
- لأنه كان يريد أن يختصر له الوقت والطريق والجهد فى بلده، بدلا من"البهدلة" عند مـــن يساوى ومن لايساوى.
- وهل قرر مساعدته الآن؟
- بشرط أن يطلق نرجس
- وهل التقيا مؤخرا؟
- بل أرسلنى مبعوثا اليه لكن مهمتى فشلت
- ياله من أب قاس

– أنت لاتعرفه يامراد،انه ذلك الصنف من الرجال الذى يقال عنه:"إن رضى باض الحمـــام على الوتد،وإن سخط بال الحمار على الأسد".

غرقت فى إشفاقى على مدحت،حتى أننى نسيت أن أشفق على نفسى أو على وطنى..لكـــن مـــا الوطن؟..

******

•من الملف رقم(٦):

هشام البسطويسى أحد شيوخ قضاة مصر ودعاة استقلال القضاء وكاشفى تزوير الانتخابات والذى تعرض لمهزلة سميت بالمحاكمة التأديبية..يقول ان المجتمع المصرى يعانى من حالة الانهيار على جميع المستويات،وأن "الأصفار" تسيطر على كل المجالات، وهو يرى فى حديثه لجريدة الكرامة ان هذا الانهيار هو نتيجة طبيعية لنظام حكم يقوم على شرعية الأمر الواقع التى أعطت الفرصة لقيام تحالف قوى للفساد مع السلطة الحاكمة،وأصبح المعيار الأساسى لتولى المناصب القيادية بالدولة فى جميع المجالات هو معيار الثقة للثقة على حساب الكفاءة والخبرة،مما أدى الى تدهور وانهيار الأداء الادارى والحكومى فى جميع المؤسسات،وهو مانجم عنه تكرار الحوادث والكوارث بشكل دائـــم ومستمر فى جميع المجالات.وعندما يطلب من القضاة المشاركة فى التزوير أو الصمت عليه،وعندما تتم حماية الذين زوروا وشاركوا فى التزوير ، وفى الوقت ذاته يتم محاسبة من كشفوا التزوير بدلا منهم، فمن الطبيعى أن ينتشر الفساد وينهار المستوى بين القضاة.

الدكتور سيد البحراوى ناقد يسارى وأستاذ بجامعة القاهرة يصرح لنفس الجريدة بأن مامضى من حكم مبارك ليس ٢٥ سنة بل٢٥ قرنا من الزمان أعادت البلاد الى عصور الظلام وتفاقمت خلالها المشاكل حتى وصلت الى أسوأ مدى يمكن أن تصل اليه.ويؤكد الدكتور على غيـــاب دور الدولة وعلى أننا نعيش الآن بلا رئيس جمهورية وبلا حكومة..فقط إدارة بوليسية علـــى صـــلة مباشرة بالأمريكان ، وعصابة منظمة تدير شئون البلاد والعباد..لايوجـــد الآن أى مقـــوم مـــن مقومات الوطن،فالناس تعيش حياة مغيبة،والذى ينظم هذه الحياة فى مصر مجموعة عصابات ناهبة ، والذى يسيطر على الجميع هو الأمن.

أما عبد الحليم قنديل الذى تعرض للمحاكمة بتهمة الإساءة الى رئيس الجمهورية فهو يقـــول صراحة بأنه مالم تتم إزاحة مبارك وحكم عائلته فسوف ينتهى المشهد الى مذبحة..وما حـــدث فى قلب القاهرة أيام عيد الفطر الحزين حيث ارتكبت أعظم الفواحش فى الطريق العام دون أن يرف جفن للحاكم الهاجع فى شرم الشيخ ، ولا لوزير الداخلية القابع على بعـــد خطـــوات فى مـــبنى لاظوغلى الرهيب،ولا لجهازه المشغول بفبركة صور خائبة لمعارضى سيده،فمادام لا أحد يهتـــف

ضد مبارك ولاضد حاشيته المliارديرات،ومادام أحد لايتظاهر ضد الفقر والقهر والبطالة والعنوسة،ومادام أحد لايغضب لشعب مهان ولبلد ضاع دوره وانحطت مكانته..مادام أحد لايهدد حكم العصابة فلا داعى للتحرك،فجيش المليون جندى أمن مركزى مخصص فقط لحماية نظام مغتصب للسلطة،.إذا تظاهر ثلاثون شخصا أحضروا لحصارهم–فى ثانية–ثلاثين ألف عسكرى أمن مركزى،أما ثورة الهياج الجنسى الحيوانى فلا قمم أحدا هناك وكأن لسان حالهم يقول:دعوا المجتمع يحطم المجتمع..دعوهم يحترقون بجوع الشهوات بعد احتراقهم فى القطارات وموقم فى العبارات ،ولا خوف هناك فقد أقاموا منتجعاقم وقصورهم فى شرم الشيخ وفى مدن الخلاء الصحراوى وبالقرب من المطارات،وهم على استعداد لحمل الحقائب الى حيث عواصم الشيكات مع اندلاع شرارة الخطر.

ويقول الصحافى محمد عبد القدوس الذى يجمع بين التيارين الليبرالى والدينى ، إنه بعد ما حدث من تعديل للمادة ٧٦ من الدستور وما تؤول اليه الحكومة التى تتبنى سياسات رجال الأعمال الذين يقفون على قمة الوزارات ويتفننون فى تجويع وتعذيب وإذلال أفراد الشعب،لايمكن الحديث عن الإصلاح،فالنظام السياسى يكرس كل إمكانياته لإتمام مخطط التوريث ولايهمه مصلحة الشعب،لذلك فلا مجال لأى اصلاح، والتغيير هو الحل الوحيد..إن مستقبل مصر مجهول ولايمكن التنبؤ به.والخطورة الحقيقية تكمن فى تحالف رأس المال مع السلطة،مما أدى الى حدوث انقسام فى طوائف المجتمع بين أغنياء وفقراء،مستثمرين ومستضعفين،جبهة السلطة وجبهة المجتمع، وأصبحت استراتيجية الخدمات والاستثمارات كلها مركزة فى فئة الأغنياء فقط، وعلى الفقراء أن يدفعوا ثمن ذلك لأنهم سقطوا من الخريطة الاستراتيجية للنظام الذى فشل فى عمل أية اصلاحات فى أى المجالات. النظام الحاكم فى مصر لايهمه إلا أمنه الخاص ،حيث يتم صرف المليارات على الشرطة والمخابرات وكافة الأجهزة الأمنية،بينما لاتحظى الخدمات العامة أو الهيئات والوزارات التى تساعد الفقراء أو الشرائح البسيطة والضعيفة فى المجتمع المصرى بأى اهتمام.ان النظام يستهين بالمجتمع لدرجة الاحتقار واللامبالاة،لذلك يفتح أكثر من جبهة لإلهاء الناس عن مخطط التوريث،فى حين أن الغضب الشعبى وصل الى ذروته،ولا أحد يستطيع وقف هذا المخطط الا الشعب،وإذا وقف الناس ضده فلن يستطيع النظام مواجهتهم.

أسامه الغزالى حرب:

تجربتى مع الحزب الوطنى تؤكد أنه لايوجد فكر حقيقى جديد بداخل لجنة السياسات والتى وظيفتها الحقيقية هى تقديم جمال مبارك للرأى العام الداخلى والخارجى،والدليل أنه قبل إنشائها لم يكن لجمال مبارك أى صفة محددة..كما أنه على الرغم من نفى النظام المتكرر لنية التوريث الا أن

كل الوقائع والأحداث تؤكد عكس ذلك.إن المستقبل سيء للغاية وغير مبشر على الاطلاق،وأسوأ شيء هو أن حلم المستقبل أصبح معدوما وميتا،ليس للجماهير وحدها بل وحتى للنخبة.والكارثة أنه مهما وصلت براعة المحللين السياسيين لايمكن لهم تحديد ملامح المستقبل فى ظل الظروف السياسية الراهنة غير محددة المعالم.

...أسامه الغزالى ليبرالى انشق عن الحزب الوطنى وفضح ممارساته.

الدكتور يحيى الجمل:

اذا ظل النظام رافضا لأى إصلاح فقد يؤدى هذا الى كارثة لأننا نجدهم متمسكين بالحكم الاستبدادى ،وهذا الوضع سيؤدى الى الانهيار وتآكل الدولة،فالعالم كله يتغير.أوروبا الشرقية التى كانت تعيش فى ظل حكم استبدادى رهيب تغيرت.العالم لم يعد جامدا.انه يتغير بسرعة، ولابد أن يستجيب النظام لهذه التغييرات ويفتح باب الإصلاح.الا أن النظام يرفض الفكرة من أساسها فهو يريد غلق الباب تماما،وفى هذه الحالة يكون هناك احتمالان:الأول هو أن مصر ستنهار والنظام سينهار وتنتشر الأوبئة ويتسمم الخبز وتنتشر الأمراض الى أن تنتهى البلد الى الانهيار الكامل بسبب مظاهر الفساد المستشرى..والاحتمال الثانى يستبعده البعض ولكنى لا أستبعده وهو صحوة الشعب المصرى،فلا أحد يتوقع ما الذى يحدث اذا ثار الشعب،فهو الذى قام بهبّات لم يكن يتوقعها أحد مثل ثورة١٩١٩ وانتفاضة يناير١٩٧٧..هذا يمكن أن يحدث لأن الناس بدأت تبحث عن لقمة العيش وقرص الاسبرين والأنسولين.ان الاستبداد يؤدى بالضرورة الى انتشار الفساد،والاستبداد القائم يؤدى الى فساد رهيب لدرجة أن البعض يقول ان أقوى مؤسسة فى مصر الآن هى مؤسسة الفساد.

...الدكتور يحيى الجمل هو أستاذ القانون الدستورى ومؤسس حزب الجبهة الديموقراطية

جورج اسحاق:

ان المقاومة لفرض رغبة التغيير تقوم على التراكمية،فلا يعقل لمجتمع ظل بعيدا عن الحراك السياسى منذ عشرين عاما أن يحقق فجأة كل ما يطالب به،ولكنى أؤكد أن "كفاية" نجحت فى تكريس ثقافة الاحتجاج التى كانت غير معروفة لدى الشعب المصرى،ومنها الحديث عن العصيان المدنى والاعتصام من أجل المطالبة بالحقوق فى كل المجالات،كما أن الحركات السياسية تقوم على المد والجزر،ونحن فى النهاية مجموعة ضغط تحاول تحقيق أهدافها دون سقف زمنى..أضف الى هذا أننا نواجه نظاما شرسا يستعمل كل أساليب القمع.

...جورج اسحاق هو المنسق العام لحركة كفاية.

يحيى حسين:

ان مصر تتغير منذ سنتين حيث كانت هناك خطوط حمراء تم تجاوزها،ليس منحة من السلطة وإنما اخذت بالقوة وانتزعت،وأنا متفائل وأراهن على الــشباب لأن القيــادات معروفــة ودورهــا واضح.هؤلاء الشباب دفعوا الثمن ضربا وقهرا وسجنا، وكذلك الصحفيون الــشرفاء الــذين كسروا الخطوط الحمراء الوهمية،وكل القيادات المعارضة تسهم ولاشك فى عملية التغيير،وقــد بدأت القوى الوطنية فى مصر بكافة تياراتها تتغاضى عن خلافاتها الى حد كبير.

...يحيى حسين هو الموظف العام الذى فضح مهزلة بيع المسئولين عن الخصخصة لــشركة عمــر افندى بثمن بخس لغرض التربح.

الشاعر فاروق جويده:

انى شاهدت بعينى عشرات الأشخاص ينامون على الطرقات أمام غرف الاســتقبال فى مــدخل المستشفى العريق الذى دفع فيه الشعب مئات الملايين ،وكانت وراءهــا قــصص غريبــة عــن العمولات والتحايل ونهب المال العام.العشرات من فقراء مصر ينامون فى مدخل المستشفى،منهم من ينزف لإصابته فى حادث مرور ومنهم من يصرخ يطلب العون والمساعدة ومنهم مــن كــان قريبا جدا من الموت..ان هناك أكثر من شكوى وصلتنى عن سوء الأحوال وفساد الخدمة وإهمال صحة المواطنين،وان أسرة استنجدت برجال الشرطة لإنقاذ ابنها الذى أصيب فى حادث وظــل ساعات ينزف أمام مدخل المستشفى العالمى الرهيب،ولايجد من يقدم له يد العون والمساعدة.قلت هذا لوزير الصحة فأجاب فى كلمتين:إن مستشفى قصر العينى الفرنسى لايتبــع وزارة الــصحة وليس لها سلطان عليه!!!...

الدكتور جلال أمين:

الذى حدث فى وسط البلد بالقاهرة فى أول أيام العيد، من مهاجمة مئات من الشباب للنــساء فى الطريق العام،بمرأى من الناس بمن فيهم بعض رجال الشرطة،جعل الجميع يشعرون بــأن شــيئا جديدا وخطيرا يحدث وقد بدأ يظهر للعيان،ولم نكن نظن أنه وصل الى هــذا الحــد..والمغــزى الأساسى الذى خرجت به من هذا الحادث،خاصة وقد حدث بعد أيام قليلة من اكتشافنا أن مياه الشرب فى عدة مدن وقرى مصرية اختلطت بمياه المجارى ،ممــا أدى الى دخــول عــشرات الى المستشفيات ووفاة بعضهم، هو أن النظام المصرى بعد ثلاثين عاما من السياسات البالغة الاستهتار والأنانية، قد أدى الى هبوط نسبة لايستهان بهــا مــن المــصريين الى مايكــاد يــشبه منزلــة الحيوانات.حدث هذا عن طريق تجويع نسبة كبيرة من المصريين،وإهمال تعليمهم والتراجع عــن توفير فرص عمل مجزية لهم،وعن إقامة مساكن تصلح لسكنى الآدميين،وتسمح لهــم بــالزواج والاستقرار،وعن إتاحة وسائل للمواصلات تحافظ على كرامتهم...الخ.تحولت هذه النسبة مــن

المصريين والتى قد تصل الى ٤٠ % من السكان معظمهم من الشباب،الى كائنات تهيم على وجوهها فى الشوارع،فاقدة للأمل،وتكلم نفسها أحيانا.لاتفكر إلا فى أساسيات الحياة كتوفير الطعام لنفسها ولأولادها،أو تبحث عن الإشباع الجنسى بالالتصاق بالنساء فى وسائل النقل العام،والآن فى الشوارع.

******

•من الملف رقم (٧):

فى ذكرى مرور عام على واقعة انتهاك عرض الصحافيات يوم الاستفتاء الأسود ، تظاهرت حركات المقاومة أمام نقابة الصحافيين.كالمعتاد انهال عليهم رجال الأمن المركزى وبلطجيتهم الذين يرتدون ملابس مدنية بالضرب المبرح بمنتهى الغلظة والقسوة، واعتقلوا كثيرا منهم.كان من بينهم صحفى شاب يدعى"محمد الشرقاوى".صرح لزملائه الذين سربوا تصريحه الى مواقع الانترنت قائلا:

"قبضوا على وأنا واقف على سلم النقابة.كان عدد من يضربنى يزيد على عشرين فردا. طالت لكماهم كل جزء فى جسمى: على وجهى وظهرى وصدرى.وصلوا بى الى قسم قصر النيل وأنا أنزف بشدة.فى القسم اعتدوا علىّ جنسيا بوضع جسم صلب فى مؤخرتى.كنت أضحك بسخرية لأنهم عاجزون عن كسر إرادتى.قالوا لى فى السجن: إوعى تفتكر انك حاجة.حنضربك حقنة فى رجلك وانت نايم،والصبح نكتب على ورقة وسخة انك مت بالسكتة القلبية."

أما الصحفية الشابة"عبير العسكرى" فهى فتاة فى مقتبل العمر تقوم بتغطية الأنشطة الخاصة بالحركات الاحتجاجية التى ظهرت فى مصر،فضلا عن حركة القضاة الإصلاحيين الذين يخوضون واحدة من أشرس المعارك من أجل استقلال القضاء عن هيئة السلطة التنفيذية. اعتقلها الأمن المركزى ومعها خمسة آخرين وهم يتابعون مظاهرة المحتجين على محاكمة اثنين من كبار المستشارين بتهمة الإدلاء بتصريحات للصحافة عن وقائع تزوير شابت الانتخابات البرلمانية الأخيرة التى أعقبت انتخابات رئيس الجمهورية.أحاط بها بعض الأشخاص فى ملابس مدنية وكمموا فمها بالقوة ثم جروها الى حافلة"مكروباص"صغيرة وانهالوا عليها ضربا وشتما بينما أمسك ضابط منهم بالموبايل محدثا رئيسه قائلا:"أيوه ياباشا.البت معانا دلوقت ورايحين بيها قسم السيدة زينب"..حاولت عبير الاستنجاد بالناس على باب قسم الشرطة.حاول البعض تخليصها لكن رجال الشرطة السريين كانوا يقولون لهم:"دى بنت وسخة مت..ولسّه جايبينها من شقة مفروشة".

تقول عبير: أدخلونى الى غرفة تحقيق قذرة،وهناك تناوبوا الاعتداء على من جديـــد بالـــضرب والشتائم القبيحة وخلعوا حجابى ومزقوا ملابسى وهددونى بالاغتصاب وزعموا أنهم فعلوا نفس الشيء بزميلاتى المعتقلات من حركة كفاية–أسماء ورشا وندى– وفى ذات الغرفة.قالوا لى انـــنى لن أرى الشارع بعد اليوم..ولما فوجئوا بزملائى فى الجريدة يتصلون بى على المحمول انتزعوه منى وألقوا بى الى الشارع..وخلال المسافة من قسم الشرطة وحتى كورنيش النيل واصل المخـــبرون ضربى وسبى على مرأى ومسمع من مئات المارة..وحين كان بعضهم يحاول التـــدخل يهـــددهم المخبرون قائلين:"دى مسجلة جرائم آداب"..وتركونى فى الطريق بالقرب من الكورنيش فلجأت الى محل ألقى صاحبه على بسجادة صلاة ليستر ما تعرى من جسدى بعد تمزيق ملابسى، غير أن المخـــــــــبرين هـــــــــــددوا الرجـــــــــــل فاضـــــــــــــطر الى أن يطلب منى المغادرة إيثارا للسلامة.أخيرا جلست على الرصيف أبكى مستترة خلـــف أحـــد أكشاك الكهرباء،حتى وصل زملائى ونقلونى الى مقر الجريدة.

******

•اعتـــــــــذار: اعذرونى يا إخوانى الأعزاء بنى وطنى..أنا أنقل اليكم نبذات مختصرة من هذه الملفات المزعجة،وأنا واثق أنكم تقرأونها فى غيظ وغضب وعلى مضض.ذلك أنكم مللـــتم مـــن سماع وقراءة وقائع الفساد والانهيار كل يوم وفى كل مكان –ورغم ذلك لاجديـــد ولا أمـــل فى التغيير– الى أن أصابكم داء الاعتياد.

حتى المذكرات الأصلية تتحدث عن نكسة!!..شيء مقرف والله..يخيل الى انكم تقرأون هـــذه الصفحات السوداء فى عجالة لتقفوا على ما كان من أمرى فى حياتى الجديـــدة وخاصـــة مـــع غصون..أنا ألتمس لكم العذر فى ذلك فلو كنت مكانكم لفعلت نفس الشيء..ذلك أن الحيـــاة أبقى لأنها تنتصر دائما بالحب.الحب أقوى من القهر و الهزيمة وأقوى من الانتصار.

******

كان من الطبيعى أن أكتم السر عن سميرة بعد عودتها الى منزلنا بصحبة عادل. انشغلت به حـــتى عن نفسها ولم تعد تهتم بشأن نرجس. تشبثت ببقائى فى الاسكندرية متوسلة الىّ ألا أعاود طلـــبى من القيادة أن أنتقل الى الجبهة لأساهم فى القتال الحقيقى المنتظر.طمأنتها الى اقتنـــاعى بنظريـــة اسحاق. قلت لها انى أصبحت من شدة الملل كسولا عن الحركة من المنزل الى الوحدة، فمن أين يأتى الحماس حتى أتحرك من الاسكندرية الى قناة السويس؟. فوجئت بتسريح دفعات متتالية مـــن المجندين عندما اقترب موعد تسريح دفعتى القانونى.لم أفهم معنى أن نسرح الجنود ونستعد للحرب فى نفس الوقت.كان قرار قد صدر بعد النكسة بمد قرار الخدمة الإلزامية للمجندين كافة لحـــين

الانتهاء من إزالة آثار العدوان.أى توقيت غبى هذا الذى يلغى فيه القرار بكل بساطة!..أصبح الآن همّ كل جندى أن ينتظر اليوم المرتقب لتسريحه حتى يبدأ فى تدبير شئون حياته المؤجلة.لاحرب إذن ولايحزنون.عاد ربيع الى جريدته ولم يشعر أحد بافتقاده.قال اسحاق:

– لافائدة يا مراد ، فلنهتم بحياتنا

– أوافقك ولكنى أتألم لذلك

واحد يقرر السفر بعد التسريح مباشرة للعمل بدولة عربية حتى يعوض مافاته من وقت ومال.آخر يقرر الهجرة نهائيا من مصر.ثالث يفكر فى شراء دكان لبيع الفول والطعمية فمكسبها مضمون ووفير. أنا كنت أفكر فى نرجس وسميرة وعادل ومدحت.نسيت نبيله وابراهيم النحراوى وصحراء سيناء والأسوار الصفراء والأسلاك الشائكة والرمال الكريهة، ونسيت أيضا عصب معدتى الذى حار بفعل الهزيمة.

وضعت شهادة إنهاء الخدمة العسكرية فى جيبى.أمشى على الشاطىء.أرقب المصطافين .كل شيء على مايرام.ضحكات النساء تنطلق.زجاجات البيرة والأسماك المشوية والمايوهات الصارخة والكازينوهات والمراقص والراقصون والراقصات ، والله أكبر والنصر للعرب.

لم أجد بذاكرتى مكانا لمحيى عبد الحميد أو فاروق النجار أو أمه صاحبة الزغرودة الأسطورية.الشيء الوحيد الذى كنت أبحث له عن مكان هو مراد عامر.سنوات خمس ضاعت من العمر سدى.صار مذاق الحياة كريها فى عمر الشباب الذى يقطر عسلا مرّا.ظللت أمشى لما يقرب من ساعات ثلاث.الشهادة فى جيبى والطنين فى رأسى..ورغم الصمود والردع والاستنزاف وثورية الصبر وصبرية الثور ومراكز القوى وعام الحسم وعام الضباب ومعلبات الروس المطرودين، فقد كان العار يجلل جبينى.

انحصرت المشكلة فى حرفين هما الألف واللام، لأنها إما أن تكون"أراض احتلت" أو"الأراضى التى احتلت".فى الحالتين كان قائد الوحدة على وشك أن يلطم بيديه على وجهه عندما اكتشف أن الجنود لايعرفون اسم قائد جيشهم..ماذا كان سيفعل بنفسه لو علم بتسللهم– فى معسكرنا القديم– الى ناديه هلاهيلو كل مساء بعشر قروش للفرد "يابلاش"؟!..

قالت سميرة فى حبور بعد أن أطلعتها على الشهادة:

–هذا وجه عادل..انه فأل خير بإذن الله

لم أجد رغبة فى سؤالها عن كنه هذا الخير الذى تقصده.سكتّ فقالت:

–لابد أن نحتفل اليوم بهذه المناسبة وننفق بسخاء.

الأمر لك ياصاحب الأمر..وإلى البحر حيث الاتساع اللانهائى والأمل الموقوت فى انتزاع لحظات من الحياة تخلو من الكدر.

******

عدت الى وظيفتى فوجدت اللصوص قد تكاثروا صغارا وكبارا وكأن عبد الناصر قد أنشأ القطاع العام خصيصا لكى ينهبه اللصوص.لم يكن بيدى شيء لأفعله حتى أوقف هؤلاء الناس عند حدهم.أطلقت غيظى فى العمل.انكببت عليه بشدة وازدادت حدتى مع العاملين معى حتى أصبح العمال يخافون من رؤيتى.

لم تمض أيام على عودتى حتى جاء اسم سميره ضمن كشوف المعارين الى دولة عربية. قلت فى البداية ان رؤيتى لمسألة المال فى حياة الإنسان رؤية ضبابية ولكن ضبابها يختلف عن ضباب السادات.قبل نهاية كل شهر ينفد راتبى ومعه راتب سميرة،ونبقى على الحميد المجيد فى انتظار الشهر الجديد.كل حياتى أصبحت تتلخص فى كلمة واحدة هى الانتظار. فى كل مرة أقول انه لابد من إيجاد حل لهذه المسألة ، ولا أحل ولا أربط ، لم يسبق لنا مناقشة موضوع الإعارة منذ أن تقدمت سميرة بطلبها منذ بداية العام.

فى ذلك اليوم تكلمنا عن تمسك المصرى بأرضه والتشبث بها تمسك الأحمق بفقره وتشبثه بقهره واستكانته.رددت لها قول اسحاق بأننا أصبحنا لانبدأ الحركة فى أى اتجاه إلا إذا دفعنا شيء دفعا اضطراريا للتحرك.حركتنا ليست ذاتية.مجرد رد فعل.لا مبادرة.لا إيجاب..نفس الكلمات التى قالها مدحت عن نفسه والتى أقولها أنا الآخر عن نفسى..فهل أصبح الشعب المصرى كله صورة منا أنا ومدحت أم أننا اللذان أصبحنا صورة منه؟..هى سكينة الاستكانة والرعب من التمرد والفزع من التغيير..وكان محمد النجار قد أخرج يوما من جيبه ورقة مالية كبيرة أبرزها من بين أصابعه وقال بثقة راسخة طافحة بالغرور:

– هذه الورقة لا يمكن أن تحارب أبدا

لهذا سافر مدحت وترك نرجس لتصفه بالضعف والغباء،وتتشبث بيدى، وتحيل جسدى الى جحيم مستعر،وعقلى الى فوضى ضاربة لاحاكم لها.لهذا امتنعت عن الذهاب اليها وكلى رغبة فى الذهاب اليها.لهذا غاب شقيقى حسن أكثر من عشرة سنوات خارج مصر فأصبح بحوزته آلافا مؤلفة من الجنيهات والدولارات، ولما زارنى فى آخر إجازاته قال لى بابتسامة مستفزة:

–هأنت تفعل غير ماتقول

لم يكن أمامى إلا أن اعترف فى خجل بالحقيقة:

– أنا فعلا وافقت على الطلب ، ولكنى غير مقتنع بما فعلت

– هذا كلام لاسعر له

كنت أنصحه دائما بالاكتفاء بما جمع والعودة الى بلده ليستمتع ببقية حياته ويكوّن أسرة وأصدقاء وحياة اجتماعية بهيجة تملأ عليه حياته.ما أسهل دور الناصح الواعظ الذى يقول مـالا يفعـل، ويفعل مالا يقول.ألحت علىّ سميرة إلحاحا شديدا حتى أوقع بالموافقة على سفرها، على أن ألحق بها بعد تدبير أمورها هناك.هى نفس سميرة التى كانت تحد من طموحى القديم تجاه الرغبة فى تحـسين وضعنا المالى.قررت من جانبها وحدها أن تغير حياتنا.وافقت على قرارها قبل أن أتخـذ قـرارا بالموافقة.كالعادة شىء مجهول سلب إرادتى.سألت الكبير والصغير بعد التوقيع وفاتنى أن أسـأل نفسى لماذا؟..أتاهوىن بين إسقاطاتهم التى لم تكن تعبر الا عما بأنفسهم ، لا عما بنفـسى، وعـن رغباتهم الأسيرة فى أغوار لاوعيهم ،لا عن رغباتى التى أتردد دائما فى الاستجابة لها.مازال الأمر بيدك فهى لم تسافر بعد. باب للرزق فتح أمامك ، فهل تتبطر على المنعم بإغلاقه؟..مستقبل عادل ومن سيجىء من بعده.من سعى رعى ومن لزم المنام رأى الأحـلام.ألم تكـن أرض الله واسـعة فتهاجروا فيها؟..من ذا الذى يستطيع محاربة ورقة النجار التى لاتقهر؟..للإسلام نظرية رائعـة فى المال.أعرفها لكنى لا أطبقها.أمى ترفض فكرة السفر من أساسها.أبى لايقبل ولا يرفض.الكنـدى يقول ان أهل الدنيا مضطرون الى مصر يسافرون اليها ويطلبون الرزق بها،وأهلها لايطلبون الرزق من غيرها ولا يسافرون الى بلد سواها.لم أصدق الكندى وتمنيـت اللحـاق بـسميرة بعـد أن تسافر.حتى هذا مستحيل.لايمكننى السفر قبل انتهاء فترة الاحتياط بعد التسريح.متى تنتهى هذه المهمة الملعونة حتى يصبح للشرف معنى حقيقيا؟..فيما مضى كان الشرف يعنى غشاء جلديا رقيقا عند الفتيات.اليوم صار يعنى استرداد قطعة أرض مسروقة من أرض صحراوية أصبحت مقدسـة بين يوم وليلة.تغنى بجمالها كثير من المرتزقة المنعمين الذين لم يذوقوا سخونة رمالها ولهيب شمـسها وعواصفها الحارقة، ولم يشاهدوا آلاف الجثث التى تعفنت على ترابها.بشىء من التخيل يمكننى أن أتصور أن لى رصيدا ماليا ضخما فى البنك،وفيلا فى ضاحية راقية بعيدا عن المدينة،وعربة فـاخرة أتنقل بها بين هنا وهناك.يشعرنى حلم اليقظة بيأس مريح مخدر،كما يمكننى بشىء من المبالغـة فى التخيل أن أتصور أن لى معدتين وأربعة أرجل وذيل وثلاثة أجنحة،وأننى حين أموت سوف أدفـن فى قبرين.

فى لقاء جمعنا بنرجس وحسن، وجدتها تنظر اليه كمثل أعلى.أفكارهما متقاربة.أحاديثهما تدور حول السفر والأراضى والعقارات والأجهزة الحديثة والعملة.كلاهما يقاسى من الوحدة والخوف المزمن الأبدى المرضى من الفقر.

لاصداقة بينك وبين حسن، ولاصداقة بين نرجس وسميرة، واللعنة على غفلتنا البلـــهاء عـــن أسرار السعادة، فمن كمال الجهل أن أعتقد فى دوام مايزول فأحرص عليه وأتعذب بلا طائل.

سافر مدحت، وغدا تسافر سميرة، وبعد أسبوع يسافر حسن الى صحرائه البترولية، وأبقى أنا ونرجس وعادل.يزداد اتساع شرخى ويزداد معه تحوصلى حول ذاتى فى غباء عنيد، أعـــيش فى إفرازاتها ولو أدت بى الى الاختناق..وقال نابليون:"لا أحد سواى مسئول عن هزيمتى، فقد كنت أنا أعظم عدو لنفسى".

لم يخفف البحر من وطأة شعورى بالقلق والتذبذب تجاه قرارى الذى نفذته قبـــل أن أتخـــذه.لم أحظ من العرى فى الماء بالصفاء.شعرت بضآلتى الشديدة أمام اتساع الكون، فغصت بعمق حتى لامست القاع.

******

المولود الجديد يترك نفسه لفطرتها فلا يعبأ بشيء..ما الفائدة أن أحب الحياة ولاتحبنى؟..لكى تحبنى رقصت لها من قلبى وأنا أرى ابنى سعيدا بزوجته وأتخيل أحفادى القادمين منهما.رقصت حتى كاد قلبى يتوقف عن النبض،وكان عزائى أنه لايفنى فى الله من لم يعرف لذة الرقص.

المولود الجديد لايعرف الضعف أوالتردد ولا الانهزامية أوالتخاذل.أشرفت بنفسى على تعليـــق لافتات لمرشحين لرئاسة الجمهورية غير حسنى مبارك.حدث هذا صبيحة زفاف عادل وانتقاله الى بيت الزوجية.كنت على ثقة بأن ما أفعله سيغضب أصحاب البلد كما يسميهم الصول مرســـى. لكنى لم أكن أعلم أن الداخلية قد وضعت خطة أمنية محددة لمطاردة أنصار مرشـــحى الرئاســـة المنافسين—ولو ظاهريا—لمبارك، وذلك بتعميم أوامر الى جميع أقسام ومراكز الشرطة فى كل أنحاء مصر—كما علمت من عادل—بملاحقة وتوقيف أنصار المرشحين ومحاصرة تجمعـــاتهم الانتخابيـــة وتلفيق التهم لهم لتهديدهم وإرهابهم. حتى سائقى التاكسى والميكروباصات أجبروا على المشاركة فى الحملة الدعائية لمبارك على حساب وقتهم ورزقهم.

هجم زبانية الداخلية —بأزيائهم العسكرية والمدنية—على المقهى.بعضهم راح يمزق اللافتـــات ويلقى بها على الأرض، والبعض الآخر ينهال ضربا على رواد المقهى عمال على بطال.أمـــسكت بأحدهم وضربته برأسى فى أنفه فسقط مترنحا والدماء تنزف من وجهه.قبضت بيدى على عـــصا كبيرة مدافعا عن نفسى ضد كل من يقترب منى.انسحب بعض الرواد من الساحة،بينما تـــشجع كثير من الشباب على المشاركة فى المعركة.من بينهم فوجئت بتحية الاخوانجية تعاود تعليق بعض اللافتات المنزوعة بإصرار عنيد.صفعها مخبر على وجهها فرفسته بركبته—فى حرفية مدهشة—بعنف أسفل بطنه.انحنى يتلوى من الألم.تكاثر الجمهور على المقهى.البعض للمشاركة فى ضرب الحكومة

والبعض لمحاولة فض المعركة بعد أن توازنت الكفتان .بعد قليل وصل عـــادل وحـــسم الموقـــف لصالحى وهو يصيح بغضب فى وجه قائد الحملة.

أيام قلائل مضت ثم فوجىء عادل بنقله الى الصعيد.

كانت نتيجة الانتخابات أن قاطعها ثلاثة أربا ع المصريين،ولم يفز مبارك الا بستة ملايين صوت من اثنين وثلاثين مقيدا بجداول الانتخابات،وأكثر من سبعين مليونا مقيدين بدفاتر السجل المدنى.

دفع إبنى أول ضريبة لحريتى فى الوجود الحقيقى الفعال الذى أمارسه لأول مرة بهذه القوة وبهذا الإصرار.تألمت بشدة لتعرضه للظلم والقهر دونما ذنب جناه سوى الدفاع عن أبيـــه.تمنيـــت أن أكون أنا دافع هذه الضريبة ولو من دمى.بعد عدة أيام اتصل بى من موقعه الجديد يطمئننى علـــى حاله.أدرك مابى من خلال نبرات صوتى،فقال لى وهو يقهقه ضاحكا:

– أما عليك حتة روسية ياحاج..مناخير الرجل انكسرت بضربة واحدة

شعرت بسعادة طاغية وارتاح بالى،لكن عادل واصل حديثه محذرا:

– خل بالك على نفسك.المرة الجاية لن تجد من يحميك منهم

– ولايهمك.ربنا موجود..وثق أننى لن أرقص لقرود السوء فى دولته مهما حدث لى.

كان المشهد الوحيد الذى ظل عالقا بذاكرتى ، هو مشهد تحية بسيونى وهـــى تـــضرب المخـــبر بركبتها فى محاشمه بقوة رجل متمرس على العنف والقتال.كان وجهها ينطق بالغـــل والرغبـــة فى الانتقام لأبيها وأخيها ونفسها وجماعتها،فتجسد هذا الانتقام فى تلك الضربة الموجعة.قلـــت لهـــا بإعجاب:

–لم أكن أعرف أنك فتوة أيضا ولست أديبة فقط

ضحكت فى حياء أنثوى جميل ولم تعلق فواصلت مداعبتها:

– لو فكرنا فى إنشاء فريق من الشباب لمقاومة رجال المباحث والأمن المركزى ستكونين أنت الكابتن ولاشك

– فات الميعاد

– كيف؟

– وجدت الرجل الذى ظللت أحلم به كى يحمينى.سأتزوج ياعمى..أنا أسعد إنسانة

– وتهجرين الأدب والسياسة..

– سأسخر كل طاقاتى فى خدمة زوجى وهو مناضل عنيد،حتى يحقق ما أتمنى تحقيقه

******

غرقت فى حزنى والعربة تقتحم مشارف القاهرة.سرعة الناس والعربات تشكشك أعصابى.المشى صار هرولة والهرولة عدوا والعدو سباقا فجحيما لايطاق.تحت نظارتها السوداء أخفـــت سمـــيرة عينيها ودموعها.تفارقنى فى يوم ذكرى عيد زواجنا. لم تواتنى الشجاعة لآمر السائق بحزم أن يدير عربته ويعود بنا الى بيتنا وحياتنا بالاسكندرية.

فحص الحارس جواز سفرها وأبعدنى عنها فى لحظة خاطفة.غريب لاأعرفه ولايعرفنى يفرق بينى وبين روحى.قال ان دخول المودعين الى المطار ممنوع اليوم بأمر عسكرى لأسباب أمنيـــة.كـــان السادات عائدا فى هذا اليوم من أمريكا بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد.أصبحت سميرة داخـــل المطار وأصبحت أنا خارجه،والحاجز المنيع بيننا جلف متحجر الفؤاد.

– اسمح لى أن أحمل لها الحقيبة حتى نهاية الصالة ثم أعود

– ممنـــــــــوع

سنوات الحب تغتال فى غمضة عين.هى الدنيا وأعاجيبها.لم أرتب نفسى لهذه الخطفة المباغتة، حتى أننى لم أعانقها أو أقبلها.كان وداعنا بمشاورات الأيدى على البعد،ثم فرق بيننا الزحـــام. تاهـــت الحبيبة عن عينى وهى نورهما وبه تبصران.وقفت ضائعا مشتت الفكر شارد البال.أدرت ظهـــرى للمطار الملعون.حتى لو انتهت فترة الاحتياط فليس بمقدورى أن أسافر معها.اشترطوا على المعار ألا يحضر مرافقه معه طيلة العام الأول للإعارة..وكان الوداع.آه من الهوى وهو الرق فى القلب والغل فى العنق والقيد فى الرجل والأسر فى الروح.

اتجهت الى العربة التى أوصلتنا وكان السائق بانتظارى خارج المطار فى المكان المتفق عليه.لكنى توقفت.كيف أذهب وسميرة مازالت تقف بقدميها الحبيبتين على أرض مصر،وعلى بعد خطـــوات منى،وأمامها بضع ساعات حتى تسافر.عدت نفس الخطوات التى مشيتها لأعاود المحاولـــة مـــع الحارس،لعله يلين فيدعنى أدخل وأنتظر معها حتى موعد إقلاع طائرتها،نتحدث ونتعانق.قررت أن أتراجع ثم تراجعت عن تراجعى.أصابنى التردد بالدوار لكثرة ذهابى وعودتى دون أن أعرف ماذا أفعل أو أستقر على قرار..وعاد بى السائق الى الاسكندرية.

بحثت عن مكان آمن ألجأ اليه حتى تهدأ نفسى ويصفو بالى..بيتى الخرب أم بيت أمى حيث يقيم عادل الحزين ، أم مقهى بلدى ، أم ملهى ليلى، أم صديق قديم ، أم بيت من بيوت الله؟!..

جلست أمام نرجس وجلس والدها بجوارها ، وأمها بجوارى.كنت أشبه بعائد من جنازة شـــيع فيها حبيبا الى قلبه.نظراتهم المواسية تسيح فى شعورى المصطخب بالذنب..ما الـــذى جعلتمـــونى أفعله يانجار ياحسن عامر ياقططى ياسميرة؟..هاهى نرجس تهاجمنى بعينيهـــا الـــشرستين ونـــدائها

الصامت أن كن واثقا من نفسك ودع قلبك يستسلم للحقيقة التى لامهرب منها.استمتع بحريتك بلا زوجة أو ولد.لاتضيع الفرصة بترددك المزرى.إنى أنتظر قرارك.

هرعت الى بيتى وكابوس ثقيل يجثم على روحى.أدير مفتاحى فى قرص الباب ،ويدور معه حديث اللقاء الأول بالحبيبة...

كانت بيدى رواية لكاتبة لبنانية لم أكن قد أكملت قراءها..

- هذه الرواية ستعجبك كثيرا
- هل انتهيت من قراءها ؟
- على وشك الانتهاء منها
- فهل تسمح لى باستعارها بعد أن تنهيها؟

أشرقت أنوار الدنيا تبدد كثافة الظلمات،فقد تبادلت حديثا رقيقا هامسا طائرا محلقا مع معبودتى الساحرة ساهمة النظرات.اليوم أدوس هذه الأرض شامخ الرأس موفور السعادة لا أبغى من الدنيا شيئا.

... فتحت الباب بيد مقهورة وروح منهزمة.أتانى صريره كنواح يشطر القلب ألما وحزنا.تطاردنى نظرات نرجس وكلمات سميرة يوم اللقاء الأول.ما أن خطوت خطوتى الأولى الى الداخل حتى امتقع وجهى وسقط قلبى.اكتست جدران منزلنا الجميل بالحزن والأسى والوحشة والرهبة.عرفت أن غياب جميلتى عنها سوف يعذبنى كثيرا..وقمت للصلاة..عاد الى نفسى المضطربة شىء من الهدوء.بقيت فى غرفة المكتب أدخن سيجارة من سيجارة، وتساءلت متى أذهب الى الفراش لأنام؟..كنا نلتحف فوقه بغطاء واحد ونذوب فى وجدان منصهر،فكيف لى أن أقتحم هذا الحاجز النفسانى الرهيب؟..

وضعت رأسى المكدود على وسادتنا الحزينة عسى أن أنام.لم أكن أحلم بأنى سأستغرق فى النوم الى هذه الدرجة من العمق.انفصلت عن الكون لمدة ساعتين ثم أفقت فجأة بلا كابوس مزعج أو حلم سخيف.لكنها كانت لحظات من الرعب لم أعرفها فى حياتى.احساس يهدد كيانى بالتدمير والفناء.سارعت الى الجرائد والشاى والسجائر، أمارس فوضى الأعزب وعشوائيته.فتحت احدى الجرائد.طالعتنى سورة ربيع أبو العز وهى تتصدر مقالا له يمتدح فيه مسئولا كبيرا بالدولة،لا لوجه الله أو الوطن، وإنما هى الانتهازية الخبيثة التى تختصر له الطريق الى تبوء منصب أكبر فى المؤسسة الصحفية التى يعمل بها. أنا متأكد أنه سيصل الى هدفه وبسرعة،لأنه يعرف ماذايريد،وينطلق نحو هدفه بسرعة الصاروخ غير عابىء بشىء.

******

كنت أحسد ذلك الصحافى صاحب امتياز"طشة الملوخية" على ابتكاره العبقــرى باســتخدام الطعام كجسر للنفاق،وأغلب ظنى أنه كان هو الآخر فى غاية من السعادة بهذا الابتكار الــذى لم يسبقه اليه أحد،رغم احتقاره المؤكد لذاته فى سره.لكن سعادته لم تدم إذ ظهر له رئــيس تحريــر منافق آخر،دعى مع الرئيس مبارك ومجموعة أخرى من الصحفيين المختارين بعنايــة، الى مائــدة الملك عبدالله فى مزرعته الخاصة بالسعودية أثناء ضرب لبنان.أفرد صاحبنا مساحة هائلة من مقاله "السياسى"عن الحرب السادسة بين العرب وإسرائيل،للحديث عن حلاوة طعم الخروف الأوزى ولحم البعرور.ثم لم يلبث أن دعى الى مائدة أخرى فى لبنان بعد انتهاء الحرب،ضمن وفد مختار من الحكومة يتصدره جمال مبارك،فكانت مقالته"السياسية"مديحا وتقريظا فى التبولة اللبنانية الأصــيلة التى تفوقت على نظيرتها السورية ، معبرا عن سعادته بها قائلا:"يادللى يادللى"..آه يابن ال....لو خلق الله للمنافقين أذنابا من أمثالك، لما وجد المؤمنون أرضا يمشون عليها..لم يجرؤ فى مقاله على أن يدافع عن وجهة نظر مبارك التى أعلنها فى بداية الحرب بأن حسن نصر الله مغامر، من حيــث أنه يأكل التبولة على أرضه.والحق أننى لم أتعجب من موقفه أو موقف جمال مبارك الصامت طول الزيارة، خاصة بعد أن علمت أن حكومتنا قد حصلت على موافقة مسبقة من اسرائيل بــضمان عدم اعتراض الطائرة المصرية..تماما كما سبق أن استأذن وزراء الخارجية العرب اسرائيل فى مرور الطائرة التى حملتهم الى بيروت ليعقدوا اجتماعهم لتأييد لبنان، بينما كانت قوات الأمن اللبنانيــة تحميهم من غضبة الشعب ومظاهراته الثائرة على تخاذلهم وتواطئهم بالسكوت والقول.الملفــت للنظر أن المتظاهرين كانوا يحملون صورا لثلاثة أشخاصهم جمال عبد الناصر المصرى وأحمدى نجاد الإيرانى وحسن نصر الله اللبنانى.

●تعقيبات أخيرة:

– شعب يعيش بلا أمل، لامفر من سقوطه فى مستنقع اللامبالاة.

– شعب خنوع يؤله الحاكم لن يستطيع أن يتحرك للتغيير.

– شعب لايحصل على حقوق المواطنة لايمكن أن يشعر بالانتماء لوطنه.

– شعب ترفع الحصانة عن قضاته ويسكت، ليس من حقه أن يحلم بالعدالة.

–شعب يقبل أن ينتخب ممثليه من المستقلين لمجلس الشعب فينضمون بعد نجــاحهم الى الحــزب الحاكم نفاقا وانتهازية ، ثم لايتحرك، إغسل يديك منه.

******

أين أنت الآن يا اسحاق يابن دانيال حتى أكاتبك وما اسم جريدتك التى تعمل بها حتى أقرأ كلمات ترجح كفة الصدق فى حياتنا ولو بمثقال درهمين؟..أعددت عناوين زملاء الجيش وقررت أن أراسلهم جميعا.قلت لهم انه لابديل عن الحرب لحل مشاكلنا وأزماتنا وعقدنا النفسية،مهما كانت نتيجتها.خفت ألا يثقون فى صدقى فمزقت الرسائل.كان فى الكتابة–على أى حال–سلوى للهروب من وحدتى بعد سفر سميرة،ومن التفكير فى مصيرى الغامض مع نرجس.

ذهبت فى الصباح الى العمل برأس مثقلة بالنوم وعزيمة قتلها العجز والإنهاك.وجه عادل البرىء ينطق بإدانتى.حرمته من أغلى دفقات الحنان التى يحتاجها من صدر أمه فى هذا العمر.أعود الى منزلى.تعد لى أمى الغداء.دورة كريهة لم أعد أحتمل تكرارها.خطاب الى زوجتى أستنجد بطيفها.كتاب عن المرأة التى حكمت مصر.مقال عن كافور الإخشيدى بجريدة يومية.هجرت نشاطى النقابى.لم أعد أبذل فوق ما يقتضيه عملى الروتينى من جهد ، لعلنى أدخر حماسى لعمل انتحارى أحلم به فى الصحراء.أهرب من دعوات نرجس الملحة لتناول الغداء أو العشاء معها.أعيش فى غيبوبة حاضرة بين الكلمات المطبوعة حتى أتعب، فأشرد طويلا فى عالم من القنابل والطائرات والجثث المتناثرة والأشلاء الآدمية الطائرة.يصيبنى لغم فأموت وينتهى كل شىء الى ظلام أبدى.الحياة حلوة والحب جميل.عليك بالعود والقانون وأحمد قمر. تستجيب دوما للطرب الشرقى فتنتشى وتهتز أعطافك.يكفى أن تنتفض من داخلك لشىء ما.ماتت زوجة أحمد قمر يوم زيارتى له بعد انقطاع طويل.الحياة حافلة بمصادفات لاتصدق. وقفت بجواره نأخذ العزاء.كان يبكى عليها بحرقة رغم أنه كان يسبها فى مجالسنا القديمة،لأنه فنان ولأنها امرأة محبة غيورة ترى فى فنه غريما لها.

فى اليوم التالى ذهبت إليه للتخفيف عن بلواه فوجدته قد مات.لم يتأخر فى اللحاق بها أكثر من ساعات محدودة.اتجهت الى منزلى فى حالة من الهياج يصعب السيطرة عليها.اشتريت فى طريقى لحما مشويا من ريش الضأن،وعدة زجاجات من البيرة،وخلعت ملابسى وجلدى ولحمى وعظمى ودمى وجلست عريانا آكل بشراهة غير عادية.تجرعت زجاجات البيرة بأكملها،وبقبضة يدى ضربت الكون فى الهواء،ولو كان رجلا لقتلته فى تلك اللحظة.هدأت قليلا وتفرغت للتدخين وسماع آيات من القرآن بعد أن ارتديت ملابس خفيفة،ثم دق جرس التليفون:

- لماذا تقاطعنا؟..هل أغضبك أحد؟..
- مشاغل الحياة ومتاعب الوحدة
- تشكو من الوحدة وأمامك أفضل السبل لتبديدها
- ما أخبار مدحت؟

- تعال حتى نتحدث
- متى؟
- صباح الغد
- وعملى؟
- خذ إجازة يا أخى..

عندما أغلقت السماعة تذكرت المال والنصر والنحراوى ونبيلة واحمد قمر ومدحت ومعاويه بن أبى سفيان وفاروق النجار واسحاق منقريوس وراقصات مكة فى الزمن الغابرومحمد النجار وراقصات القاهرة ليلة النكسة وحسن عامر ومصر التى هى هبة المصريين الكسالى النائمين.

ولسوف أذهب اليها ومعى كل هؤلاء ، ولو أشرقت الشمس من المغرب.

******

لولا أم فؤاد التى أهدتنى فكرة المقهى،لما تمكنت من كسر قيدى الوظيفى الذى ظل قابضا على روحى حتى بعد إحالتى الى المعاش.لولاها لما تحررت من خطر الفراغ وملالة الانتظار..لولا غصون التى أهدتنى قلبها طائعة مختارة،لما تمكنت من كسر قيدى العائلى الذى أنسانى نفسى بعد أن جعل منى قطارا قديما متهالكا يسير على قضيبين متآكلين ويكثر تعطله.لست أدرى لماذا خطرت ببالى غصون يوم استلامى المقهى ثم لم تفارقه.كان قد مر عام أو يزيد على لقائنا بمكة،وقد حصلت منها قبل أن نفترق على رقم هاتفها وأعطيتها رقمى. وعدتنى بالاتصال للسؤال عنى ، لكنها لم تتصل، وأنا نسيت المسألة برمتها..امرأتان حطمتا قيودى فجعلانى أنطلق كالسهم فى سماء الحرية.لم أتردد فى الاتصال بها.لم يكن هناك مايجمع بيننا حتى نتحدث عنه بعد انتهاء الأسئلة عن الصحة والأحوال. الحق أنها لم تغب عن بالى، لأنى لو كنت قد نسيت المسألة برمتها حقا ، لما تذكرتها اليوم بصفة خاصة.كنت أذكرها دائما كلما وردت الى خاطرى لفظة التغيير، سواء بمعناها العام أو بمعناها الشخصى.وكنت أقول لنفسى دائما انه ليس بالضرورة أن يأتى التغيير بما هو أفضل ، المهم أن تتجدد الدماء فى شرايين الحياة.حياة الفرد وحياة المجموع.تلك سنة الكون ، وفى مخالفتها اعتراض فاشل على ناموس الحياة.

لاحظت رغبتها فى استرسال الحديث بيننا فرويت لها ماحدث.كانت ضحكاتها عفوية ناعمة وهى تصيح فى دهشة:

- غير معقول!..مقهى؟؟
- أى والله يادكتورة..مقهى
- يعنى أنت الآن المعلم مراد

- بلحمه وشحمه
- وأين راح المهندس؟
- راح فى ستين داهية

لم تصـــــــــــدق.

- ايه يابشمهندس.من المؤكد انك تهذر
- اذا لم تصدقى تعالى.أنا أدعوك الى فنجان من القهوة..خذى عندك العنوان

لم تساورنى نحوها أدنى مشاعر أبوية وأنا أستمع بكل طاقـــاتى الحـــسية الى ضـــحكاتها تـــداعب أذنى.كانت امرأة بحق.غير انى لم أترك لنفسى حرية التجوال فى هذه المنطقة الخطـــرة المزروعـــة بالألغام.

كنت فرحا بما صنعته بيدى فى حياتى من تغيير استجابة لمتطلبات روحى ، ولكنى لم أنسب تلك الصنعة الى نفسى حتى لا أقع فى خطأ قارون، وإنما نسبتها لتدبير الصانع الأول الذى جعـــل أم فؤاد تشكو لى عن أحوال ابنها،مثلما سألت طالبة من قبل سميرة ان كانت تريد شـــقة خاليـــة، ومثلما أرشد اسحاق المدير العام الىّ حتى أعمل بمؤسسته وأرى الدنيا خارج مصر.

كان فرحى طاغيا وأنا فى انتظار غصون المقدامة الفعالة،التى جاءت بجرأة الى المقهـــى.رأيتـــها تتفحص المكان بعينى طفل مشاغب بحثا عنى.ولما رأتنى لم تستطع مقاومة ضحكها مـــن جديـــد. ضربت كفها الدقيق على كفى الضخم بصبيانية جميلة قبل ان تسحبه من بين أناملى الخبيثة.

-هه؟..ما رأيك؟..صدقت الآن ؟

قالت بتلقائية رائعة:

-والله العظيم انت رجل "جدع"..

لامست أوتار غرورى فسألتها وأنا اعرف الإجابة:

- لماذا؟
- لأنك شجاع مع نفسك.تفعل ماتحب ولاتعبأ بشىء،مادمت لم تضر احدا

هى لاتعلم انها أول تجربة فى حياتى الرخوة أمارس فيها تلك الصفة التى تشير اليها.إذن فما أضيع الستين عاما الماضية عن جدارة واستحقاق!..

وهى تشرب القهوة نظرت بفضول فى عينيها فرأيت فيضا من الحب للحياة المتجددة والإنسان الحى.قالت:

- كل شىء فى هذه الحياة يمكن أن يكون جميلا لو أردناه كذلك
- بالراحة على يادكتورة..كلامك كبير وخطير

- لكنك مثقف عظيم.حواراتى معك فى المدينة المنورة كشفت لى عما تخفيه عن نفسك وعن الآخرين
- أسألك من فضلك أن تبوحى لى بما لا أعرفه عن نفسى
- عندما قابلتك هناك كان اول ما لفت نظرى اليك، ذلك البريق الشديد فى عينيك،الـــذى يدل على معان شديدة الثراء.ثم قرأت على معالم وجهك وملامحه طيبة متناهية لايدركها الا ذوى الفراسة من البشر.واتضح لى أيضا انك حسن النية تجاه الناس والأشياء،كما لو كنت طفلا غريرا،رغم ضخامة جسدك.وبالطبع بانت ثقافتك دون أن تدرى من كلماتك، لأنك لما تكلمت رأيتك ، كما يقول الفلاسفة..لم يبق الا شىء واحد أجدنى مترددة فى التصريح به.
- أستحلفك بكل عزيز لديك أن تقولى ماهو
- ولا تغضب منى ؟
- أبدا..أبدا
- إن بك شىء من الجنون يضغط عليك وتضغط عليه..وأنا أحبه

ما من مخلوق عرفته وعرفنى استطا ع أن يقرأنى بهذا العمق.إنى أعرف هذه المـــرأة الطفلـــة منـــذ ولدت.انها تعرفنى كذلك منذ نفس التاريخ.

- هل كان زوجك كذلك ؟
- كان وقورا..وقورا..وقورا
- وهل لابد أن يترك الانسان نفسه للجنون يسيطر عليه حتى يصبح"جدعا"؟
- انت فعلت ذلك بشرائك المقهى وإدارته وتخليت عن مهنتك.هذا تغيير جنونى جميل لايضر أحدا

ما أن انتهت من نطق آخر حرف فى آخر كلمة قالتها حتى سألتها بشغف شديد:

-غصون..هل تتزوجينى ؟..

******

فاق تدبيرها تصورى.توقيت مغر باستقبال شياطين الأرض جمعاء.البيت خال إلا منـــا.الأبـــوان والخادمة غير متواجدين. تيسرت لها الأسباب فعرفت كيف تقتنص الفرصة.أجالس امرأة مفتاحها التطلع ومأساتها الفشل وكارثتها اليأس من النجاة من مأزق هى التى وضعت نفسها فيه..لم أعرف حتى هذه اللحظة ماذا تريد منى.

- دائما تخذلنى على عكس ما كنت أنتظر منك

- ماذا بيدى أن أفعل ؟
- لم أطلب منك إلا المشاركة المعنوية
- ما رأيك فى الصلح مع العيسوى بك ؟
- العيسوى لايريد من الدنيا غير طلاقى من ابنه
- وأنت ؟؟
- أيهمك معرفة مابنفسى؟

هى شقيقة زوجتى المسافرة وزوجة عديلى المسافر. لايختلف أحدنا عن الآخر حول حقيقة أن كلا منا يريد المال على حساب غيره.الحالتان مختلفتان لكن النذالة واحدة.ياه...كيــف فرطــت فى زوجتى بهذه السهولة؟..كانت رجولتى نائمة لحظة موافقتى لها على السفر. مايدرينى بالذى يحدث لها الآن بعيدا عنى بآلاف الأميال؟ أمن المستبعد أن تتعرض فى غربتــها الى تحرشــات الرجــال وألاعيب ذئابهم المتخصصة فى اصطياد المغتربات؟..مدحت فى الكويت وسميرة فى عمــان. أنــا ونرجس فى بيت فسيح ننفرد فيه بضياعنا ، ويقبع بين جدرانه وحش يتأهب للفتك بنا.

- عرفت كثيرا عن العيسوى من زميل لى بالجيش
- من فضلك ارحمنى من هذا الحديث
- فيم نتحدث إذن؟
- هناك الكثـــــــير

حين التقت شفاهنا، تمنيت أن يدمر الكون زلزال عتى لايبقى ولايذر.حاولت بعزيمــة واهنــة أن أتراجع ولكنى لم أستطع.اشتعلت مشاعرى بنيران الحرب والحب والوحدة والملــل.استــسلمت لخوائى الروحى وجسدى المعذب وعقلى المكدود حتى صدرت من فمها آهة توجــع.توقفــت لحظات الجنون لالتقاط أنفاس سريعة متهدجة، حافلة بسيل كاسح من أحاسيس النشوة المحرمة، دون أن نبارح الأريكة الزرقاء التى جمعتنا.غيامة كثيفة أطبقت على عقلى حتى كدت أغيب عن وعيى. من المؤكد أننى غبت بالفعل. لم تطل فترة الصمت فاندفعنا الى جنوننا من جديد، ولما نبارح أريكتنا الزرقاء. أصبح الكلام مستحيلا، لامدلول له.لم يبق أمامنا إلا أن تــتم اســتجابتنا معــا وبكامل إرادتنا ووعينا الى ذروة الجنون.استلقت على ظهرها فى شــبه غيبوبــة وقــد أســبلت جفنيها.بحثت فى عالم غير موجود عن طبنجة أفرغ رصاصها فى رأسى فلم أجد ، لأننى لم أكن أريد أن أجد.لم تنجح صورة عادل فى زحزحتى عن موقفى وموقعى.شرعت أفك الغــلالات الحريريــة الناعمة التى قتلتنى بها.لو اقتحم أحد علينا خلوتنا الآن، لكان من الأهون علىّ أن نرفــع رايــة الاستسلام لإسرائيل ،وينتحر الشعب كله غرقا فى البحر..تلاشت أمامى كل حدود الزمان التى

يمكن عبورها الى لحظة الانهيار...لكن ما الفارق يا رجل بين أجساد سميرة ونرجس وسائر النساء؟..فخذان بينهما فجوة ملتهبة. بعد لحظات طالت أم قصرت يتساوى مايحدث معهن جميعا بلا استثناء، سواء فى ظلام الليل أو فى وضح النهار.تتحدث عن الأجساد وتغفل ذكر الأرواح.الروح تجعل جسد سميرة غير جسد نرجس غير جسد عزيزة.من هى عزيزة؟..لكن هل أنت متأكد الآن أنه جسد نرجس وليس جسد سميرة؟..تأكد قبل حلول لحظة الفناء فهى قريبة.تفحص جيدا.إنها سميرة.لا.نرجس.لا.سميرة...

سميرة الآن فى قلب الصحراء تجلب لك المال الذى عجزت عن تدبيره يا ع..أفق ، فمن لم يترك مايشتهى وقع فيما يكره.

بأنامل مرتعشة وأنفاس لاهثة قمعها العقل، أعدت الغلالات فى ارتباك الى مواضعها.مرت لحظات قبل أن تفتح نرجس عينيها فى ذهول . لم تكد تنظر الىّ بعينيها المتنمرتين حتى كنت خارج الشقة.

فى الطريق كادت تدهمنى عربة.قفزت بلا هدف الى أوتوبيس مزدحم. لم أشعر بالطمأنينة إلا بعد احتضان الزحام البشرى لجسدى المنتفض. أحببت هؤلاء المتدافعين بعنف داخل العربة المكتظة بهم ، بقدر حبى لسميرة.استنشقت بسعادة روائح زفيرهم وعرقهم ، وتركتهم يدوسون على قدمى ويضغطون على جانبى ، بل تمنيت أن يعصرونى بينهم عصرا.

عند نزولى اشتبكت "دبلة"الزواج فى بروز صغير حاد بجانب الباب أدمى إصبعى وخنقه فازرق وأصابنى بألم شديد. كل مافعلته أننى تنفست بعمق وقد انزاح عن صدرى حمل ثقيل.

لم أذهب الى منزل أسرتى.كنت بحاجة الى الاختلاء عاريا بنفسى.فتحت الباب.وجدت خطابا مغلقا بلا طابع بريد ولا أختام.لم أكن قادرا على استيعاب ماحدث. استفحل عمق شرخى ، وبات مخرجى من هذا العبث الكريه مسألة حياة أو موت.فتحت المظروف.وجدت الرسالة موقعة باسم جارى بالمنزل.سارعت اليه مستفسرا عما قرأته.قال ان العسكرى سيعود بعد ساعة.انتظرته.كان معه استدعاء رسمى للعودة الى وحدتى العسكرية. لعله الخلاص قادم ، والمرء يثاب أحيانا رغم أنفه.تلاشت مخاوفى من صراحة هيكل حين قال إننا لو عبرنا سنفقد ثلث الجيش على ما أذكر.غالبا سأكون من الشهداء وسيفقدنى عادل وتلبس سميرة السواد.

خلال ساعات يلتقى من كان يفكر فى الهجرة بمن قرر بيع الفول والطعمية.أفسد الاستدعاء مخططاتهم جميعا. هم الآن بحاجة الى قوة فولاذية تنتزعهم من أحلامهم ، وما من شك فى أن الصحراء كفيلة بذلك. لكن أين هذا القائد الذى يستطيع أن يحقق بهم المعجزة؟!..أنا قادم سواء وجد هذا الرجل أم لم يوجد.

******

علمت من ابنتى هالة أن زوجها قد دفع بها دفعا الى قبول العمل فى دولة عربية بحاجة الى تخصصها العلمى النادر لقاء راتب كبير.هالة لم تكن متحمسة لذلك لأكثر من سبب، فهى لا تأمن على ابنيها الصغيرين مع زوجها لأنه ضيق الصدر بالأطفال، كما أن معاشرته قد كشفت عن قدر كبير من طمعه فى مالها.سألتنى لما لايسافر هو وأبقى أنا لرعاية الطفلين ، فشروط الوظيفة تنطبق عليه هو الآخر، وإن كان لابد من السفر فلماذا لا نسافر جميعا معا؟..مثلما تدين تدان.مافعلته بسميرة يتكرر مع هالة وفى صورة أسوأ. فالرجل يدفعها الى ذلك عن سبق إصرار وترصد، وفى ذلك مايخالف وضعى وموقفى تجاه سميرة آنذاك.

ساعة الغروب لاحظت غصون علامات الحزن فى عينى. لاقصت لى وغنت وقالت لى نكاتا جنسية أضحكتنى ضحكا حقيقيا.سألتها متعجبا:

- من أين اتيت بهذه النكت يابت؟
- النساء ياحاج وما أدراك ما النساء

لم يفارقنى الحزن.تفننت فى إغرائى حتى تخرجنى من حالتى،وقد كان...وهى فى ذروة نشوتها قالت لى بلهجة كلها إصرار:

- أريد أن أكون حبيبتك وعشيقتك وابنتك وعاهرتك المفضلة
- ومن أين لى بعبقرية تستطيع الجمع بين كل هذه المتناقضات ؟
- أنت قادر على ذلك لو أردت

لاتلومن إلا نفسك.أنت تعلم أيها الشيخ أن فى أنثاها طفلة رغم علمها وثقافتها..عاهرتك المفضلة؟!!..يخرب بيتك..أنا لم أضاجع عاهرة فى حياتى.تأذت أذناى من هذه الكلمة رغم أننى واصلت الطريق حتى نهايته معها ، فلما اغتسلت وعادت كررت على مسامعى نفس العبارة.تذكرت مثلا شعبيا يقول:"اللى يمشى ورا العيال مايخلاش من..."، وأجدنى متحرجا من ذكر الكلمة الأخيرة لأنها متعلقة بمؤخرة الرجل.لم يكن بيدى إلا أن أؤمن على طلبها بالموافقة، ولكنى بقيت حزينا على هالة، فرحت الى المقهى أبحث عن السلوى.

كانت شلة أدباء تتبادل جريدة معارضة يتصدر صفحتها الأولى صورة امرأة بسيطة فى جلباب شعبى تتسلق سلما يفضى اللا الباب الخلفى لمقر لجنة انتخابية.تحدت أساطين الأمن المركزى وامكنت من الإدلاء بصوتها لمن تريد.اللجنة محاصرة بعشرات الجنود والضباط من الأمن المركزى لمنع أنصار الإخوان المسلمين من الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات الجارية.هذه الصورة نشرت على مواقع الانترنت فى العالم كله لما توحى به من معان انسانية رائعة.قال نوفل ساخرا:

–تسبون فى أمريكا بينما سفيرها ريتشارد طونى يطوف بمحافظاتنا ويقدم لها العون والدعم.

قالت تحية ساخطة:

–لاحول ولاقوة الا بالله

وقال حلمى سليم:

–ألم تعلم أن محافظ الغربية قد استقبله فى مولد السيد البدوى بالأناشيد الدينية ومنها "طلع البدر علينا" ..؟

واصل عبد القادر:

–كان ريتشارد منتشيا نشوة بونابرت حين ذهب للمشاركة فى المولد النبوى، لكن واحدا من مشايخ الصوفيين فى طنطا"عكنن"عليه مزاجه بخطبة ملتهبة عن ضرورة الجهاد ضد الذين يحتلون بلاد المسلمين ويقتلون شعوبهم.مع هدير التصفيق للشيخ أصبح المحافظ فى ربع هدومه، أما السفير فقد أصابه الفزع وسارع بمغادرة المولد.

قالت تحية:

–صدق رسول الله حين قال:"تأتى على الناس سنوات خادعات يؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين ويصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويسود فيها الرويبضة.قالوا وما الرويبضة يارسول الله.قال:الرجل التافه يتولى أمر الأمة."!

أضاف حديثم الهمّ الى همى وأدركت أن ذاكرة الدنيا لاتموت أبدا وأن ثأرها وانتقامها أمر محتوم.كما حز فى نفسى كثيرا أنها كانت المرة الأخيرة التى نرى فيها تحية والتى ستزف الى زوجها خلال أيام قلائل. كنت أخشى أن يعقب غيابها عن الندوة غياب عبد القادر هو الآخر، بعد أن لفقوا لأبيه تهمة الاتجار فى مواد الحصص التموينية ببقالته الصغيرة.فى القسم قال له ضابط المباحث:

–نحن نعرف أنك لاتتاجر فى الحصص التموينية، ولكنها مجرد قرصة أذن بسيطة حتى تنصح ابنك بالابتعاد عن حركة "كفاية"وأنصارها، ولكن فى المرة القادمة لن تستطيع تحمل عقابنا.

******

يقول مجدى مهنا أحد رواد كتيبة الكتاب الأحرار فى مصر إن هناك حاجة غلط..فعندما تتوحد مطالب الأحزاب السياسية مع هيئات المجتمع المدنى..مع القضاة..مع أساتذة الجامعات..مع الصحفيين..مع حركة كفاية..مع جماعة الإخوان المسلمين التى تقول الحكومة انها محظورة،فهذايعنى أن هناك حاجة غلط فى الدولة والنظام السياسى الذى لايستجيب لهذه المطالب

ويسد أذنيه عنها.الدولة بدأت تتفكك وتتحلل بفعل الفساد وبفعل اختلاف الأهواء والمصالح وبفعل انسداد شرايين الحياة السياسية"..

أما أنا فلن أقول شيئا..المهم أن تصبروا على مواصلة القراءة.

******

فى مواجهة البحرمباشرة أعدت لى أم فؤاد مجلسى المفضل عند أبعد زاوية فى الكافتريا وأكثرها التصاقا بالبحر.أعطيتها قطعة من الحشيش وقلت لها بآلية:

-لفى لنا سيجارتين يام فؤاد

فى لمح البصر أدت ما تكاسلت أنا عن أدائه.أشعل كا منا سيجارته وشرد فى عالمه.كان الصمت فى معظم الأحوال هو مايجمع بيننا.صداقة فذة قوامها صمت مطمئن.هل هناك فى الدنيا ما هو أجمل من ذلك؟..

-مالك ياحاج النهارده؟

أحزانى على سميرة طغت على هالة.لست أدرى لماذا تثور الزوجة حين يقترن زوجها بزوجة أخرى ، وهى تعلم أن فى ثورتها رفضا وتحديا للشريعة الاسلامية التى تجيز للرجل أن يتزوج من أربع لا من اثنتين فقط.هو إذن إسلام بالإسم مادامت للغيرة اليد العليا على الدين.للخالق حكمة رائعة فى تعدد الزوجات، فرجل مهفوف فى دماغه مثلى سيرتكب الزنا لو لم يتزوج.الذى يفهم الحكمة لايعترض ، بل يبارك ويؤيد ويمتثل.الشباب العربى-كما رأيت بعينى- يرقصون ليلة زواج آبائهم للمرة الثانية أو الثالثة.

كان فى صوت الموج مخرج لى من تشتت مسامعى بين راديو مفتوح على مقرىء يتلو آيات قرآنية بصوت جميل، وآخر على أغنية ماجنة لنانسى عجرم.قالت أم فؤاد:

- إياك أن تخسرها.ضاعف من عطفك وحنانك عليها فهى أم أولادك.
- والله هذا ما أفعله
- أنت لاتفعل شيئا.خطفت الدكتورة عقلك وانتهينا.أنا أعرفكم جيدا أيها الرجال

وضعت أمامى بقية القطعة.قمت بلف سيجارتين أخريين لحين أن تعد لنا القهوة.ونحن ندخن قلت لها:

- ان قلبى يتمزق لأجل سميرة ولكنى لاأعرف ماذا أفعل لها حتى تتواءم مع واقعى الجديد.

سألتنى باهتمام وجدية:

- قل لى بصراحة.هل حاولت غصون أن تباعد بينك وبين سميرة بأى شكل؟

- بالعكس إنها توصينى بها وبأولادى خيرا.لم يصدر منهاشــىء مــن ذلــك لابالتــصريح ولابالتلميح..انها امرأةجميلة بحق

شخرت أم فؤاد شخرة اسكندرانية عميقة منغمة وهى تقول:

- ياعم انت رجل مسعد.قم رح الجامع وصلّ لك ركعتين شكر لله على ما أنت فيه من نعمة يحسدك عليها الرجال.

لم أستهن برأيها ، فبعد قليل ذهبت الى الجامع.توضأت ودخلت.لم يكن الشيخ خليل موجودا. ما أن انتهيت من الصلاة حتى دخل.دعانى الى غرفته بالمسجد.أعد لنا الشاى الأسود الثقيل علــى "سبرتاية"صغيرة.سألنى عن عادل وهالة.قلت له ان عادل أوحشنى بشدة وأنه ســيأتى قريبــا فى اجازة انتظر قدومها بلهفة طفل ينتظر عودة أبيه.رويت له ماكان من أمر هالة فقال:

- الرجال قوامون على النساء بمافضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم
- لذلك فإن شيطانا يوسوس لى بأن أذهب اليه وأفقأ له عينيه
- أرى أن الصواب ألا تتدخل فى حياتهما
- أنا لا احب الرجال الأنذال الذين يريدون أن يعيشوا من عرق نسائهن، لكن الكارثــةأننى كنت نذلا مثله فى يوم من الأيام
- ما الذى جرى لك يامراد؟..هل أفقدتك الصبية صوابك؟..
- حتى الآن لا
- لو حدث سألتمس لك العذر ياعريس الهنا
- تصور بنت المجنونة تقول لى انها تريد أن تكون لى...
- ماذا تكون؟

كان قد تبين لى بعد أن أمعنت التفكير فى عبارتها أنها صاحبة حق فيما تطلب..تراجعت مسرعا:

- لا..لاشىء
- أيا كان الأمر فعليك بكف الأذى عنها واحتماله منها والحلم عند طيشها وغضبها
- يـــــــاه!!..كل هذا ؟!..
- نعم ، لأنها امرأة ، ولأنه طلب سيدنا الرسول
- عليه الصلاة والسلام..اسمح لى بالانصراف
- إلى أين؟
- سأعود المقهى ، ثم الى شلة الأنس

******

مازلت أكتب مذكراتى عن أسود أيام مصر.لكنى لن أتكلم بعد الآن الى أجل غير مـــسمى. لقد مللت نفسى التى ألقى بها الى هذا العالم الفوضوى،وأصبحت مهيأ للاستشهاد.

سأترك الحديث لغيرى يتكلم عنى وعنكم وعن وطننا الجريح ، سواء بنفسه أو حسب تصورى لما يمكن أن يكون حديثه..إما أن أعود بلا شرخ وإما لا أعود. ولو قدرت لى العـــودة فـــسوف يكون لكل حادث حديث.

******

●سمـــــــــــيرة:

فى جوف الليل السكن الملتهب يتضخم هدير جهاز التكييف.يحيل نومى الى كـــابوس متماســـك الحلقات من اغتراب وألم وحرمان.وحدة موحشة بجوار زميلة بدينة يعيث شـــخيرها فى أرجـــاء الغرفة بطمانينة راسخة وكأنها نائمة فى حضن زوجها.جدير هو بالتهنئة علـــى قـــراره الحكـــيم بالتخلص منها الى الأبد.كثيرا ما كان ينتابنى نفس احساسها بأنها امرأة مطلقة تمضى أيامها بـــلا رجل.للرجل فى غيابه مذاق خاص وقيمة كبرى حينما تجتمع المغتربات فى المساء. الرجل اليوم هو الحاضر الغائب والأسطورة المشتهاه.القوة العاتية فى قبضتيه.السطوة الحاوية فى ذراعيه.الحكمة فى عقله والمال فى جيبه والحب فى قلبه والمتعة كل المتعة فى جـــسده.الرجـــل طمأنينـــة الجـــدران الأربعة.اللذة عينها هى الاستكانة بـــين أحـــضانه والخـــضوع لاســـتبداده المرغـــوب.عربيـــد محبوب.متقلب مهووس.الرجل الخلق والإبداع والابتكار والقوة والتفنن.الحب والعذاب.الرجل الرحمة والعطاء.المانح المانع.الرجل نبع الحياة.يسرى فى دمائهن كل لحظة.فى الـــصحو والمنـــام.فى فصول التلميذات فى تصحيح الكراسات.فى تناول الغداء والعشاء.أما فى الليل فلا يعنى الوجـــود كله سوى كلمة واحدة هى الرجل.تدور الموسيقا الراقصة وتهتز الأرداف شبه العارية طربا عصبيا ماجنا.تنطلق الصهللة معربدة فى الفضاء الصحراوى الرهيب.يصبح العالم كله ملكا للمرأة تفعل به ما تشاء.الحديث عن الملابس الداخلية وأوضاع ممارسة الحب المختلفة.تتكاثف سحب الدخان فى أرجاء غرفة تلم شتاتا من الجنسيات والمتناقضات.الجريئة والخجولة والمتدينة والماجنة والصموتة والمرحة والمنطوية على نفسها،ولا حديث إلا عن الرجل.تسقط كل الأقنعة ويروح الـــتحفظ الى حال سبيله.اليوم جلسة تحضير أرواح الأزواج الآتية أسماؤهم..اليوم مقارنة بين استدارة المؤخرات ودرجات بروزها ومقاييس الوسط والصدر.صرخات عابثة لنكتة بذيئة،تقتحمها صرخة أخرى:

- حرام عليكن..أريد أن أصلى العشاء
- اعقلى يا امرأةوافعلى ماتشائين بعيدا عنا

اليوم نرسم الشيء العظيم الذى حرمنا من سحره وجماله منذ زمن طويل.مسابقة فنية لرسمه مجسدا كما ينبغى أن يرسم.للفائزة الأولى جائزة من عطر باريسى.للفائزة الثانيةرافعة صدر حديثة لاتحجب منه إلاالحلمتين.أما التى تستطيع أن تبعث فيه الحياة فلها الجنة..اليوم نحصى الدولارات ونتابع سعر التحويل الى الجنيه المصرى البائس.

- ابن الكلب سرق فلوسى وسابنى مرمية فى الصحراء
- من خيبتك وخيبة أهلك ياعبيطة
- لعله نائم الآن فى حضن خادمتك
- إخرسى يابنت ال...
- لاداعى للغضب ياجماعة لأنه عديم الفائدة والمعنى هنا

نحن للنسيان فقط.نشترى اليوم ثلاجة.أساور من ذهب وفيديو.

- إحرصى على الادخار يا امرأة، فالأكل الفاخر لايهم الآن
- بخيلة.معفنة.أنا لا اطيق هذا التقشف الكريه
- رحم الله أيام طبق الفول بزيت التموين الوسخ وفحل البصل يابنت المقشفة..

وأنت الأخرى أبوك لواء؟..طظ..ما الذى جاء بك الى هنا إذن ياروح امك؟..أبى عامل باليومية وأنا جميلة وأنت تغارين منى..لاداعى للعوجان الكاذب.كلنا هنا سواء فى الخيبة..و..

- لاداعى ياجماعة..وحدن الله
- خلينا فى حصة الإحصا..كم يوم مضى وكم تبقى حتى نعود

نتيجة الحائط المقدسة.تذاكر السفر.شركات الطيران العربية.من الأفضل أن تصطادى واحدا منهم.الذهب يتدفق تحت عقالاتهم.جاءهم بلا تعب.سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء.عربة ثمنها مائة ألف.مؤخر الصداق مائة ألف أخرى، ولابأس من إجراء العملية الجراحية بالقاهرة ، فهى بسيطة وغير مؤلمة. حتى هتك الرحم لم يعد صعب العلاج.

-سيطلبك من الخلف ياموكوسة..معظمهم كذلك

كل شيء يهون أمام الدولار.كان ينام كالحمار فى كل مرة من شدة الإفراط فى الطعام والشراب.الدموع تسح من عينيه وأنفه وهو يلتهم فخذ الخروف بيديه ومنخاره وأسنانه وأذنيه.ربنا أعلم بحالى.لم تدم زيجتنا اكثر من شهر فكتب لى الله النجاة من قذارته.

-ولهفت منه كم؟؟...

بدموع مرسلة من الأحشاء أبكى.جحيم لم أكن أستحقه.سامحك الله يامراد.كيف تركتنى ألقى بنفسى الى هذا المصير؟..حتى شريكة غرفتى لاأستطيع اختيارها.لم أكن أعرف أن للمال والجنس

هذه السطوة عند معظم النساء..خطاباتك المتلاحقة لاتكفينى ولاترويني.أخشى أن تكون سعيدا بغيابى دائرا على حل شعرك، فأنا أسمع أن كل الرجال كذلك.عيونهم فارغة لاتعرف الشبع.لقد أصبحت أحسد نرجس على فراشها الخالى من ضجيج المكيف الهرم.انى أفتقد عادل بجنون.أنجبته ولفظته.أى شيء فى هذه الدنيا لايبرر تلك القسوة. لم ينعم بدفء صدرى وحنانه.لم أكد أتعرف على ملامح وجهه الدقيق الجميل حتى تركته.غلطة عمرى أن أبدأ حياته بالفراق. ستبقى بصمات غيابى عنه محفورة فى أعماق نفسى الجريحة.من يأخذ مالى ويعيدنى اليه؟..من يأخذ روحى ويعيده الىّ؟..لن أغفر لك تخاذلك وتذبذبك يامراد.أين أنت الآن ماذا تفعل أيها الرجل المتردد أبدا؟..كان يمكنك أن تمنعنى بالقوة من السفر.تنهرنى.تهجرنى.تضربنى.تقتلنى..ولكن لاتتركنى هكذا.

●نرجس:

كيف أصدق اننى فعلت بنفسى مافعلت.؟..وأترك أصابعه تعبث بصدرى منتظرة منه المزيد!..أى عار يانرجس..هه؟.. زوج شقيقتك؟!.. لايعقل أحد ماحدث!..لم يكن حلما أو أمنية.كان التحام جسدين فى عناق نارى لم أعرفه مع مدحت.عناق أذاب أشجانى ويأسى.أهذا هو الحب؟..أنا لم أحب"مدحت"ولم أحب"مراد".الذى أحببته هو ارتقاء الدرجات بسرعة البرق.أن أجد نفسى جالسة مستريحة متربعة على قمة هذا المجتمع الظالم الخالى من الرحمة.لايفل الحديد إلا الحديد.سوف أذهب يوما الى هذا العيسوى لأحيطه علما بأن ابنه العليل عديم التجربة لايصلح كرجل.أنا سمانة دائخة فى خريف غائم.لا أعرف كيف أغفر لنفسى الانصهار بين ذراعى مراد.ثم يهرب منى..الكلب..هنيئا لك بزوجتك السمينة الأرداف تبتلعك كل ليلة بين فخذيها.ستعيش وتموت فقيرا مثل أبى . توجز الحياة عند أمثالكما فى الراتب الشهرى والترقية والعلاوة الدورية التافهة وتسديد الديون وتعليم الأطفال .حياة حضيضية ما أغنانى عنها أنا التى تنشد المجد والقوة والذرى الأعالى. معيدة فقيرة بكلية الآداب فى بلد فقير منهك ، لاقيمة فيه لآداب أو فنون..ماقيمتها فى هذه الحياة؟..

ذهبت بى كتبى وقراءاتى الى فيلسوف يقول:

"انكم تنظرون الى مافوقكم عندما تتشوفون الى الاعتلاء، أما أنا فقد علوت حتى أصبحت أتطلع الى ماتحت قدمى.فهل فيكم من يمكنه أن يضحك وهو واقف على الذرى؟..إن من يحوم فوق أعالى الجبال يستهزىء بجميع مآسى الحياة ، بل يستهزىء بالحياة نفسها"..أقول انه المال يا زرادشت.المال يا نيتشة.المال يامدحت ياغبى.

●مدحت:

- قررنا تخفيض راتبك خمسين دينارا
- لماذا ؟
- لانقاش فى قراراتنا
- ولو لم أوافق ؟
-غيرك من المصريين مستعد لتقاضى هذا الأجر مع تقبيل الأيادى
- لاداعى للإهانة..هناك عقد بيننا وعليكم الالتزام به
-يبدو أنك نسيت أنك مازلت فى أشهر الاختبار يادكتور
- ومن هذا الذى قيمنى وقرر كفاءتى كطبيب ؟
- ليس هذا من شأنك..ماذا قلت؟

هنا القاهرة..بيان عسكرى رقم ٧...

نجحت قواتنا المسلحة فى عبور قناة السويس على طول الجبهة ، وتم الاستيلاء على معظم الشاطىء الشرقى للقناة.وتواصل قواتنا حاليا قتالها مع العدو بنجاح..

فعلتها يا سادات سلمت يدك. عرفت كيف تموه على العدو بتسريح دفعات متلاحقة من الجنود وبإرسال دفعات أخرى من الضباط لتأدية فريضة الحج أو العمرة ونشرت ذلك بالجرائد عن عمد..أخيرا يامدحت ، وربما لأول مرة فى حياتك تستطيع أن تتخذ قرارا.آن الأوان كى تنتصر لإرادتك.عقبتك الوحيدة هى حبك لنرجس.نقطة ضعفك ووجيعتك الكبرى.تمرد على قلبك تكن رجلا.لابديل ولا جدال.

- من المؤكد أنك عدت بخفى حنين
- ألا يكفيك أننى عدت بكرامتى ؟
- يافرحتى..على أى حال كنت واثقة من عودتك
- أصبحت حياتنا معا لاتحتمل

الذى قيمنى شاب مغتر.تلقى العلم فى بلادى ولم يمارس الطب يوما واحدا. وظيفته الفعلية هى مدير مستشفى أبيه .أذهلنى أن أطباء كبار من مختلف الجنسيات ينافقونه ويولونه المزيد من الاحترام.كنت أحسب أن الأوروبيين أكثر احتراما لأنفسهم منا نحن أبناء الشرق المتخلف. تبين لى أن المال ليس له دين ولا وطن ولاجنسية. خيرت بين الكرامة والذل فاخترت الأولى، لكن نرجس لاترتضى لى إلا بالثانى.

- أنت إذن تخيريننى بين العودة أو الانفصال
- لم أقل هذا..أنت لا يمكنك أن تفهمنى

علاقة غير متجانسة.الحب مقابل المال، والمال مقابل الحب.اختصار عظيم لصفقة فاشلة..فلا هى حصلت على المال والجاه ولا أنا سعدت بحبها.لو كانت تحبنى حقيقة لاختلفت الأمور كـــثيرا ، فالأطباء قالوا ان مرضى زائل لامحالة بعد رحلة قصيرة هادئة مع العلاج النفسانى.لكنها لاترغب فى الانتظار.تريد كل شيء وفى الحال.هل الحب هو الجـــنس أم أن أحـــدهما ضـــرورة متممـــة للآخر..عارض أبى زواجى منها قبل أن تكتشف علتى. لو حكيت له عن خيبة أملى سيظن أنـــنى أسترحمه طالبا العفو والسماح،ومعهما شقة فى إحدى عماراته أستعيد بها هيبتى المفقودة أمامهـــا وأمام أسرتها التى تؤوينى.

- أرجوك يا أبى.أنا احبها
- احذف هذه الكلمة من قاموس حياتك لتكون رجلا. قلت لك هذا مرارا
- لا أستطيع
- أنت عاجز بدون عونى عن أى شيء
- سأعيش مع أسرتها مؤقتا
- سوف تندم على غبائك بعصيانك لى

يحدد لى مسار حياتى كما يريده هو.لست أريد بعثتك ولا مستشفاك ولا فيلاتك ولا الزوجـــة التى تختارها لى.لست أريد منك شيئا.

هنا القاهرة..بيان عسكــــــــرى رقم ١٤..

تستمر قواتنا المسلحة فى التدفق الى سيناء عبر الجسور القوية فوق القناة ، ولقـــد أصـــبحت الضفة الشرقية فى أيدى قواتنا المسلحة تماما..وقلت لنرجس:

- أنت طـــــــــــــالق

جاءنى أبى متهللا والسرور يطفح من وجهه بعد أن باغه النبأ. ابتعدت عنه باشمئزاز وقلت له:

- أنا لا أريد منك شيئـــــا

...وانطلقت هائما فى الكون الفسيح.

●حسن عـــــــامر:

بعد خمسة وأربعين عاما من الكدح يكون مصيرى غرفة الإنعاش.لاتخدع نفسك فما هو بكدح.إنه سعار جامح لمضاعفة ما تملك ضعفا بعد ضعف.خمسة وأربعون عاما ولم تتزوج بعد.كـــم امـــرأة عبرت حياتك القاحلة حتى اليوم؟..ولا واحدة!..عبد أنت للنجاح، والنجاح بمقياسك هو عـــدد الأصفار عن يمين الرقم الصحيح فى دفترك البنكى.أما المرأة فهى خطر مرعب يهدد عدد تلـــك الأصفار بالنقصان.عظيم.أعطيت العرق والجهد والوحدة والغربة وأخـــذت الأصـــفار فمـــاذا

بعد؟..أنت لاتعرف الى من ستؤول بعد أن وضعتها فى مبنى حجرى يسمى البنك.اختزلت حياتك بطولها وعرضها فى بضعة أوراق محتجزة داخل مبنى من الطوب.لو كان هذا هو تفسيرك للسعادة فأنت صفر لايعلى عليه..غيرك أصبحوا أرقاما صحيحة رغم قلة أصفارهم.قالت أمك:

- مراد يعيش حياته ، أما أنت فمسكين
- بتلك الملاليم التى يتقاضاها مرة كل شهر؟!..
- بها يأكل ويشرب ويتنزه على البحر ويقرأ القصص ويستمع الى الموسيقا، وفى الليل يحتضن زوجته وطفله قبل أن ينام هانئ البال لايشغله بالدنيا شيء .

أنا ميت.أنا لاشيء، حتى لو خرجت حيا من غرفة الإنعاش.مريض مجهول فى غرفة ساكنة سكون القبور، تزج له المحاليل فى دمه حتى يعيش..طبيب.ممرضة. نظرات جليدية تخلو من الإشفاق والتعاطف.لاحب على هذه الأرض الصحراوية القاحلة.لاأخ ولا صديق ولا حبيبة.هى الوحدة القاسية الموحشة.لو كان لى إبن يقف الى جانبى ويتمنى لى الشفاء.لو كانت لى زوجة تبكى خوفا من ترملها.لو كانت غرفة الإنعاش مصرية.لو كنت فى مصر..آه..وتحسد أخاك ياخائب!..علام تحسده وهو الآن فى قلب سيناء وقد تشطره قنبلة الى شطرين.خطابه اليك يحمل كلمات صادقة خالية من الغرض:

"أخى حسن .أخشى أن يسرقك الزمن دون أن تدرى.عد الينا ومارس حياتك كالآخرين.تحرر من عقدة الخوف من الفقر ولاتدعها تدمر حياتك فلقد تجاوزتها من زمان.الحياة مراحل،وبعد العسر يأتى اليسر.كنا فقراء معدمين فيسر الله لنا الحال، كل كما قدر له من الرزق.لاينبغى لمرحلة ولت وانتهت أن تشدك الى الخلف.أنا اعرف أنك خائف منذ طفولتنا التعسة حتى الآن.إنى مثلك أذكرها جيدا ، ولكنها لم تحل بينى وبين ممارسة الحياة كما يتيسر لى.صحيح أن خطواتى قصيرة تكتنفها العثرات ، لكنى أحيا وأجتهد..أنت تطير ولكنك لاتحط على أرض الحياة.أنا أخطأت فأرسلت زوجتى بعيدا فى طلب المال، وبقيت أنا وحدى أشعر بالعار لولا أن شاء الله أن تنشب الحرب من جديد.لم أعد أذكر تلك الليالى التى كنا ننام فيها ونحن طفلين بلا عشاء.إن كنت تعتقد أن اجترار تلك الأيام الصعبة هو حافزك الحقيقى للعمل، فاعلم أن لكل شيء نهاية."..

- أعمل ليل نهار يادكتور
- لماذا يا مستر حسن؟هل تريد أن تيتم أطفالك مبكرا؟
- لست متزوجا
- نصيحة أخ أكبر:استرح وإلاستموت فى النوبة القادمة

يارب أعد إلىّ أخى سالما وانصرنى على نفسى.أغرتنى قوة أصفارى يوما فسخرت منـــه.نفــذت كلماتى السامة إلى أعماق كبريائه حين استسلم لسفر زوجته على أمل أن يلحق بهـــا.اكتفيـــت بالتشفى من تذبذبه أمام نفسه.عريته وتركته يرتجف فى صقيع عزلته.لم أشجعه يوما بعون مادى أو حتى معنوى.كأننى كنت منتظرا أن يتوسل الىّ طالبا الرحمة،حتى أقرر جلالتى التعطف عليه ببعض الأوراق الصفرية.لعلنى مازلت أعتقد أن كل النفوس ذليلة أمام المال.أنا لم أفهم الدنيا بعد.أفهـــم فقط فى المقاولات والمبانى والمعمار،فهنيئا لى بهذا اللاشىء الذى تحولت اليه.

●محمد النجــــــار:

هنا القاهرة..مازالت قواتنا مشتبكة بعنف مع عناصر قوات العدو التى تسللت الى الضفة الغربية للقناة عبر البحيرات المرة..هذا وقد أفاد الطيار الاسرائيلى الأسير بأن إسرائيل قد وصلتها مؤخرا خمسة وعشرون طائرة"فانتوم"بطياريها الأمريكان.

هنا الاسكندرية وورقتى التى لاتحارب.ضرب مصنعى بالسويس.لم يعد هناك طـــلاء أســـود أو أبيض . زال كل شىء.حتى مراد قاهر السواد أصبح مهددا بالزوال بين لحظة وأخرى.يبدو أنـــه أدرك نواياى بفطرته.استكثرت عليه أن يعرف سر تبييض الطلاء ولا أعرفه ،وأن يـــشاركنى فى فرق الربح لمجرد عثوره على معادلة كيمائية نقلها من كتاب أو مجلة علمية.الآن لامفر من البداية من تحت الصفر.لكنى للأسف مازلت بحاجة اليه.تمنيت أن يكون أخى فاروق مكانه فهو كيمـــائى مثله، لكنه لايثق بى ، بل ولايكاد يشعر بوجودى على قيد الحياة.يشغل نفسه بأمور البلد فى غباء شديد،وكأنه المصلح السياسى الأعظم.ها هو مصيره السجن بسبب نكتـــة، ثم الاختفـــاء بعـــد خروجه دون أن يعرف له أحد طريقا.إنى أتعجب من هذه المخلوقات الغريبة.واحد همه الحريـــة والآخر همه الحرب.عوائق معطلة للحركة.لا الحرية وحدها تجلب المال ولا الحرب يجلبـــه.المـــال يجلب فى الحرب والسلم،وقد يكون فى الحرب أكثر.التجارة ممكنة فى ظل الاحتلال.لـــو صـــار حاكمنا فرنسى فهذا لايعنينى فى شىء.لذلك لابد من استعادة مراد–إن عاد– بأية وســـيلة، ثم فى الوقت المناسب أقول له:"مع السلامة يا أخ.دورك انتهى.العقد الذى تتمسك به يمكنك أن تبلـــه وتشرب ماءه وعندك المحاكم فأنا لها."..المهم ألا تصيبك الآن شظية أو ينفجر فيك لغما.

******

الليلة ليلة سميرة طبقا للشرع.لكنها غاضبة شاحبة محتجة.احتياجى شديد الى جرعة مـــن المـــرح أدغدغ بها أعصابى استعدادا لمواجهة ليلية صعبة ، ككل الليالى معها منذ زواجى من غصون.

فوجئت بعامل البار الصامت دائما كأبى الهول يضحك ويقهقه وأنا مقبل على الشلة الجالـــسة أمامه.الجميع ينصتون وهم يضحكون.رفعت عبد الفتاح يقرأ عليهم آخر قصيدة نشرت لأحمـــد

فؤاد نجم على مواقع الأنترنت قبل أن تنشرها جريدة الدستور.كانت خطوبة جمال مبـــارك هـــى موضوع القصيدة.جلست بينهم أشاركهم الاستماع ورفعت يقرأ:

مبروك ياعريسنا...يابو شنة ورنة

ياواخدنا وراثة...أطلب واتمنى

واخرج من جنه...أدخل على جنة

مش فارقة معانا...ولا هاريه بدنّا

ولا تاعبة قلوبنا...ولا فاقعه بيضاّنا

ياعريس الدوله...افرح واتهنى

ماحناش كارهينك...لكن هارشينك

حتكمل دينك... وتطلّع دينّا

ما أن انتبه رفعت لوجودى حتى صاح مهللا:

– أهو..عريسنا وصل

قلت له مداعبا فى خبث:

– أفهم من هذا أن القصيدة تخصنى

أجاب بنفاق تلقائى:

– ومن قال انها لغيرك؟

– آه يا جبان

طبق الورقة الى أربعة وقدمها لى:

– تفضل..هدية منى لك

عاود عبد الله السعيد احتجاجه على الحديث فى السياسة، فقال رفعت متعجبا:

–سبحان الله..نقول ثور يقولوا احلبوه

وسألت فاديه السبع عبد الله:

– أنت تصر كل يوم على عدم الحديث فى السياسة ورغم ذلك لانتكلم إلا فيها..مم تخـــاف على وجه التحديد؟

كانت فادية مشحونة بالثقة لنجاح مسرحيتها الأخيرة التى قامت فيها بـــدور رئيـــسى لأول مرة،فأحسن الجمهور استقبالها.

صاح رفعت:

–خايف على البغبغانات طبعا يامدام..الحمد لله ما عندنا حاجة نخاف عليها الا الستر.

وقلت لسميرة:

– تحمليني قليلا..ربما تكون أزمة وتزول

– تحملتك أكثر من ربع قرن ياناكر الجميل

قبلتها فى جبينها وأخذتها فى حضنى فلانت ونعمت وأتقنت الأداء كأنها تتحدى ضرتها الصغيرة،وقلت الحمد لله فقد زالت الغمة وخضعت سميرة للأمر الواقع كما حسبت.لكنها لم تلبث بعد زمن قصير أن استعادت كبريائها وعادت الى عنادها القديم.لم يكن ذلك بغريب عليها أو عليّ.فأنا أعلم أن ضعفها فى قوتها ، وقوتها فى ضعفها.إنى أرثى لسوء حظها بى ومعى.لو لم تكن سيئة الحظ لنجحت أنا مع محيى أو محمد النجار أو حسام عبد الهادى. لو حدث ذلك لكنت الآن مشغولا بين الماكينات والسفر الى الخارج وإعداد الدراسات،والانتقال بأسرتى من السكن الشتوى الى السكن الصيفى، والذهاب بهم فى رحلات هنا وهناك أنفق فيها المال بغير حساب.ساعتها لم تكن غصون–أو غيرها– لتقلب حياتى رأسا على عقب أو لتحتل حيزا من فكرى.

ما كان من أمرى مع محيى والنجار قد سبق أن جاء فى مذكرات الشرخ.أما ماحدث مع حسام عبد الهادى فقد كان مؤلما للغاية لأنه ذهب بآخر آمالى فى عالم الهندسة.

******

كان فى تلك الليلة قلقا للغاية كما أدركت بإحساسى.غير أنه كان يحاول إخفاء قلقه بضحكات خفيفة بين الحين والآخر.كان يحتفى بوفد كورى فى فندق مينا هاوس أوبروى.أعطى ظهره لفريق الراقصات الأجنبى شبه العاريات ، واللاتى كانت تقودهن "لويزا" الساحرة ، شديدة الفتنة، والأكثر عريا منهن جميعا.شربت كثيرا مع الكوريين وانفرجت أساريرى ورفعت الكلفة تماما بينى وبين حسام. رحت أعاكسه بأن أصف له مؤخرة لويزا المستديرة البيضاء والتى لابد أن تكون شديدة النعومة كالسندس..رغم أنه رئيس مجلس إدارة مؤسسة ضخمة مكونة من مجموعة كبيرة من الشركات ، إلا أننى رأيته فى هذه اللحظات طفلا وديعا.كلما ازددت فى وقاحتى ازداد خجلا وحياء، وكأننى صاحب العمل أتسلى بإحراج موظف عندى، حتى زغدنى سام–المدير العام– فى جنبى بإصبعه لأكف عن الاستهبال.رقصت من موقعى مع لويزا وأنا أشير اليها بيدى وهى تلوح لى بيدها والجميع يصفقون ويقهقهون.

فى صباح اليوم التالى وبعد انتهاء الاجتماع الأخير مع الوفد الكورى قبل سفره، كشف لنا حسام عن سر قلقه.اعترف بأنه أخطأ حين استمع الى نصائح مستشاريه من الوزراء والسفراء السابقين.قال بالحرف الواحد:

- منهم لله..رحت فى داهية من تحت راسهم

كان فى بداية الأمر يعتمد على ماله الخاص فضلا عن القروض البنكية لإنجاز مشروعاته.لكنهم ألحوا عليه كثيرا حتى أقنعوه فى النهاية بحيلهم الشيطانية، أن يوظف أموال المساهمين من الجمهور العام فى شركاته.لا أحد يعرف تماما ما الذى حدث بعد ذلك.هل ضاعت الأموال بالتضارب فى البورصة، أم لوقوع خسائر فادحة فى بعض الشركات لم تعفه من سداد الأرباح الشهرية للمودعين؟..أنا أستبعد أنه استولى على المال وهرب،فقد كان رجلا فاضلا بكل المقاييس.ترك كل شيء فجأة وهرب الى أمريكا واستولت الحكومة على مؤسسته. الغريب فى الأمر أن أقرب الأقربين لديه لم يكن على علم بقراره بالسفر حتى الليلة الأخيرة.جمعنا وراح يوزع المسئوليات على الحاضرين وكأن شيئا غير عادى لن يحدث.راح يشكو من فساد الوزراء ورؤساء المؤسسات الحكومية ولجنة الصناعة فى مجلس الشعب.الجميع يرتشون بفجر قبل أن يقضوا له مصالحه المشروعة.قال وعيناه محمرتان:

-ياخسارة يابلدنا..يا خسارة

كان سامى ، وهو أكثر المقربين اليه ، قد صرح لى ذات يوم أن أمنية المهندس حسام عبد الهادى أن يعرف فى مصر باسم"طلعت حرب الثانى"..لاهو بقى طلعت حرب ولا أنا بقيت شيئا.ظلت أعوامى تنسحب من تحت قدمى فإذا بها قد بلغت الستين.

******

فى المقهى فوجئت بعبد القادر حسن مشتبكا فى شجار لفظى عنيف مع نوفل حسنى.قال له بصوت مزلزل:

-أنت جبان ومنافق وخائن ولا مكان لك بيننا

العجيب أن نوفل لم ينفعل وإنما قابل الإساءة بابتسامة صفراء باهتة مما أثار عبد القادر بشدة فضربه بقبضة يده فى وجهه وأسال الدم من لسانه وأسنانه.حاول حلمى سليم الفصل بينهما ولكنه لم يستطع أمام هياج عبد القادر.لولا تدخلى لتفاقمت المشكلة وتعددت أطرافها.

كانت المعركة قد تفجرت حين قال نوفل:

- أن يحكمنا جمال مبارك خير ألف مرة من أن يحكمنا الاخوان المسلمين

ولما حاول عبد القادر محاورته بالمنطق قاطعه نوفل قائلا فى سخرية:

- خلك فى عبد الناصر"بتاعك" والله ما انت فاهم حاجه

انتحيت جانبا بعبد القادر بعد أن انتهيت من فض المعركة.معنى استمرار حضوره الى الندوة وبهذه القوة، أنه لم يعبأ بالإنذار الذى وجه الى أبيه من رجال المباحث، أو أن أباه نفسه هو الذى لم يعبأ بالإنذار وتركه يمارس حقه فى الحياة كما يريد.كنت بشوق الى فهم المسألة فسألته:

– ألا تخاف على والدك من الأذى؟

– كيف أخاف وهو الذى يحثنى على الثورة؟

– وإذا قبضوا عليه مرة أخرى؟

– لاتخف..أبى باع الدكان فأراح واستراح

– لو شاءوا لاخترعوا له مصيبة أفدح

– لست أعتقد فى ذلك ، والأرجح أنهم سيتفرغون لى.

******

●محـــــيى:

..وكان فى الأرض جوع غير الجوع الأول الذى كان فى أيام ابراهيم، فذهب إسحاق الى ملـــك الفلسطينيين وظهر له الرب وقال له لاتنزل الى مصر، فنزلت جولدا مائير الى الزيتيـــة وقـــدمت لوكالات الأنباء صورة صحفية تعلن للعالم:"نحن هنا فى قلب مصر"، فيقول السادات بـــضحكته الرنانة انها مسرحية،ويطلق بعض آآته الماكرة–التى يكون أثناء ترديدها مشغولا بـــالتفكير فيمـــا سيقوله–انه لايستطيع أن يحارب أمريكا، ويوقع قرارا عسكريا بتصفية الثغرة،ثم يذهب الى أسوان منتظرا قدوم وزير الخارجية الأمريكى اليهودى كيسنجر.أضحك من قلبى حين يصفه الـــسادات بالصديق الشريف الصريح، لأننى واثق تماما انه يعلم أن هذا الرجل عدو،وخائن،وكذاب،لكنـــها السياسة،فإما المفاوضات لفك الاشتباك، وإما الاستعداد لمواجهة أمريكا فى صورة اسرائيل.

جاءتنى أنباء نكسة يونيه فى غرفة ضيقة بفندق روسى، فأصبت بقرحة فى المعدة .تجيئنى اليـــوم أنباء الثغرة وأنا مكلف بحراسة معسكر يعج بعشرات الأسرى من الاسرائيليين.لو كنـــت قـــد تسرعت بالاستقالة من الجيش لما عشت هذا اليوم الذى انتشلنى من اليأس، فما قيمة مـــشروع صناعى صغير الى جانب هذه اللحظة المتوهجة ببريق المجد ونور الانتـــصار.لقـــد فـــروا أمامنـــا كالجرذان المذعورة حين سلبناهم سلاح الجبناء:ذلك الحصن الذى كانوا يحتمون به.استولينا عليه لابقنبلة ذرية أو هيدروجينية، وإنما بالأجساد والأرواح البشرية.أدركت عبقريـــة الـــسادات أن الإنسان وحده هو سيد الكون، ورغم كل ماحدث فإننى لاأشعر اليوم بخوف أو توتر.لو أطبـــق الجيشان الثانى والثالث على القوات الاسرائيلية المتسللة، لانتهت قصة هذه الثغرة الـــتى أسماهـــا العساكر الاسرائيليون"وادى الموت".كنا نصطادهم يوميا بالعشرات فيصرخون ويولولون كمـــا

النساء،وكما صرخ مذيع النكسة الشهير:"أمريكا ياعرب"،فاليوم أيضا:أمريكا يــاعرب.كــثيرا مايتسم التاريخ بالوساخة.ما أحوجنى اليوم الى سهرة صاخبة مع مراد..مازلت أذكــر ســهرتنا الانتحارية اليائسة ليلة أول يناير١٩٦٨ ..ما أحوجنا الى الفرحة حتى نتحرر معا من اضــطراب العصب الحائر للمعدة.نتحدث عن مشروع جديد.عن فكرة علمية معاصرة يمكن استغلالها.مراد طاقة انسانية هائلة تستطيع أن تحقق المعجزات لو عرف تماما ماذا يريد.ليته يدرك أن نقص المــال لايختلف كثيرا عن زيادته أحيانا. لو قنع بحياته البسيطة ولم يستمع الى آراء الآخرين ونــصائحهم الخائبة لعاش ملكا متوجا.

فى حديث صحافى لاحق يقول الرئيس:"آآآآآء..لقد تكلمت مع عمر الشريف عنما قابلنى فى أمريكا عن مشروع فيلم عن نصر أكتوبر. أريد حشدا كبيرا من المــثلين علــى غــرار فــيلم آآآءآآء..أطول يوم فى التاريخ، فالأفلام التى ظهرت حتى الآن لم تعبر عن المعركة تعبيرا حقيقيــا وكافيا..آءآء"..وأكاد أنفجر غيظا لأننا لم نصور معاركنا الرائعة على الطبيعة.لماذا لم يوضــع فى الحسبان أننا قد ننتصر؟..لماذا كتب علينا ألا نرى سوى أفلام هزيمتنــا وضــربنا وتــشريدنا فى الصحراء ، ولانرى بطولاتنا وفرار اليهود أمام جنودنا؟..حاولت مرارا أن أتصل بوحدة مــراد العسكرية ولكنى لم أوفق.لو استشهد صديق العمر فسوف أطوى صفحة مشروعاتى الى الأبد،فأنا لا أحب أن أعمل مع أحد غيره.كم أحببت طيبته وحسن نواياه.

- وبعد أن ننجح وتكسب الآلاف..ماذا تفعل؟
- أعوض سميرة عن صبرها معى
- كيف؟
- أشترى لها عربة وننتقل الى مسكن أجمل وأصحبها معى فى نزهات خلوية بعيدة،ونــسافر كثيرا ونتفرج على العالم ونحب الدنيا أكثر.
- ساعتها ستنسى أيام المشى على الكورنيش وأكل كيزان الذرة المشوية
- أبدا.لقد كانت أياما جميلة.. ولم لا نأكل الذرة على الرصيف وأمامنا العربة؟

مراد فيلسوف دون أن يدرى.عاشق للحياة.لن أمل من البحث عنه،فأنا بدونــه نــاقص غــير مكتمل..ولسوف أعثر عليه بإذن الله.

******

●نرجــــــس :

عاد حسن عامر فى غيبة مراد وسميرة ومدحت.وجدنى وحدى بلارجل.لايفهم معنى وحدتى.بكر فى عالم النساء.ما الذى جاء به الآن وأين ياترى أودع خزائنه المتخمة بالمال؟..يقول انــه ماعــاد

يرهق نفسه فى العمل.سيكتفى بالتجارة فى مصر.تراءى له شبح الموت فى غربته ففر منه الى وطنه ليعيش.يسألنى عن تفاصيل كثيرة تخص حياتى.فى عينيه جوع كامن وهم وسذاجة.فـيم أفنيـت عمرك يارجل ومتى يستمتع شبابك بما جمعت؟..نرجس هى المرأة الوحيدة القادرة على تعويضك عما فاتك من حياة،وأنت الرجل القادر على إحيائها من جديد.لكن كيف تقع المعجزة؟.

- آخر ما كنت اتصوره أن يقع بينكما الطلاق بعد كل هذا الحب
- لم يكن حبا وإلا ما انفصلنا.الموت فقط هو الذى يفرق بين الأحبة، وأحيانا لايستطيع.

سميرة تعانى أوجاع الغربة ومراد يحارب اليهود ومدحت يحصى النجوم وأنا أتفرج على خيـبتى، والراديو يذيع الأغانى الحماسية ،والحياة طعمها لاذع،وحسن مـشغول بـأمرى مـع مـدحت الغائب..أين اختفى هذا التعس؟!..

- سألت عنه فعلمت أنه يقيم بأحد البنسيونات..ماالحكاية؟
- لا أعرف ولا أريد أن أعرف عنه شيئا
- ألا من فرصة لوساطة خير؟
- ولا حتى للحديث عنه

نظر الى متأملا فى حيرة طفل:

- سيظل عالم المرأة مغلقا على فهمى
- لو بذلت جهدا لفهمت الكثير..ولكن قل لى ماهى مشروعاتك للمستقبل؟
- ما رأيك لو فكرت معى فى هذا الشأن كصديقة؟
- أفهم من هذا...

قاطعنى كغريق يتعلق بقشة:

- نعم أنا أعرض عليك صداقتى

كل الرجال ، حتى السذج منهم يطمعون فى جسد المطلقة..

-وأنا أقبلها بكل سرور

ينطبق على هذا الرجل مثل شعبى بذىء عن الرجل الذى لم ير امرأة عارية فى حياته،فلما رأى أمه انهبل!..ربما تكون الدنيا قد بعثت الى بهذا الرجل جاهزا مجهزا حتى تريني وجهها ، بعد أن أرهقتنى من طول رؤية مؤخرتها.من حقى عليها أن تحقق آمالى دفعة واحدة على يديه.المال والرجل.الرخاء والقوة.المتعة والسعادة.إنى أفتقد ابتسامة الرضا منذ يوم مولدى.من السذاجة أن أعتقد فى سذاجة إنسان استطاع أن يجمع ثروة كبرى فى زمن قياسى.أما ما حدث بينى وبين أخيه فلم أعد أذكـره إلا كحلم كابوسى مزعج،والأحلام مهما كانت غرابتها ، مآلها دائما الى النسيان.

يذكرنى كل من مدحت ومراد بأيامى التعسة.يجمع بينهما التردد والعجز والعجز عن الفعـــل والرضا بالفقر،رغم أنهما يتمنيان التحرر منه، كلّ على قدر ارادته المهتزة.الهدف عنـــدهما غـــير واضح.لايعرف أحدهما ماذا يريد من الدنيا على وجه محدد.رغم ذلك فمراد يتميز على مـــدحت بنوع من الإقدام والجرأة الفائقة فى بعض الأحيان وإن قلّت.كاد الوغد يسلبنى مقاومتى.بل أنـــا التى لم تقاوم، لأننى لم أكن أرغب فى المقاومة.كنت أرغب فى ارتكاب فعل انتحارى يعيـــدنى الى نفسى.لحظات غامضة تستعصى على الفهم والتفسير حالت دون انتحارى الثانى بـــين أحـــضان مراد..عقب المحاولة الأولى هرع اليه مدحت يستنجد به كفاقد للأهلية منعدم الحيلة.همّ يبكـــى وهمّ يضحك.حسن قد لايعلم شيئا عن هذه الفاجعة أو أنه يعلم ويتكتم.كان مشغولا بـــدنانيره ودولاراته ، حين جاء المنقذ ليجردنى من ملابسى ثم يهرب فزعا.حسنا فعل هذا الجبان فلم ينـــل منى شيئا.عليه الآن أن يواجه نفسه بخرافة مضحكة تقول انه يحب سميرة.عليها أن تدرك أنه كان بمقدورى أن أنتزعه من هذا الوهم،فلا حب ولا عادل ولا حياة هانئة قانعة مستقرة.هذه أسلحة العجزة.القوة هى دعامة الحياة ، والمال هو دعامة القوة.لو فقدت عزيمتى هذه المرة فسوف تكون محاولتى الثالثة للموت هى الأخيرة.لن أتردد..القوة أو الموت.

- أفكر جديا فى الاتجاه الى بناء عمارات فاخرة للتمليك
- فى مدى أيام من عودتك عرفت من أين تؤكل الكتف
- بقى لى أن اعرف من أين يؤكل القلب
- دع هذه المهمة لصديقتك الجديدة

أشعر أحيانا أن فى سلوكى شيئا من الدعارة.مدحت العيسوى.مراد عامر.حسن عامر.رجال ثلاثة أتنقل بينهم فى يسر ولكنى لا أقترب من الهدف.ذريعتى التى أخدر بها نفـــسى أنـــنى لم أرتكـــب الخطيئة.كنت على شفا حفرتها.صحيح.لكنى لم أسقط..حتى لو سقطت يوما ، فلـــن أســـقط إلا واقفة.

******

●سميـــــــرة:

بيدى كنز.خطاب من مراد.حبيبى على قيد الحياة وقلبه ينبض بفرحة الانتصار العظـــيم.كلماتـــه أراها واضحة قاطعة محددة.نعم لقد أخطأنا معا.لكن التصحيح مازال بيدنا...

"ستعودين يا حبيبتى لنعمل قدر طاقتنا ونتعامل مع الدنيا ببساطة وطمأنينة ورضا.نحن فى أســـوأ أحوالنا لانعد من الفقراء.آه لو حكيت لك عما رأيت وعشت من هـــول يـــاسميرة.ســـتعرفين كماعرفت وتتعلمين كما تعلمت، أن المال أسوأ سيد وأحسن خادم.ستصدقين العبارة المستهلكة

التى يرددها الناس،إما عن اقتناع وإما بحكم التعود على قولها دون الغوص فى أعماقها:الـــسعادة ليست كلها فى المال..يجب أن يتدرب كل منا بمفرده ويدرب الآخر على حمد الله."

...يدهشنى هذا الرجل.أكاد أجن شوقا لجسده وروحه فمتى تمر الشهور؟..

- بعد الانفتاح أصبح البقاء هنا للكسالى فقط
- لاتصدقى كلام جرائدنا.لقد اعتدنا ابتلاع الأكاذيب

وتقول مغتربة أخرى:

- أسس زوجى مكتبا للاستيراد والتصدير وبدأ المال يتدفق عليه.أنا خائفة
- احذرى أن تعودى فتجديه قد أصيب بالجنون
- الجنون لايهمنى.المهم ألا يتزوج من سكرتيرته أو من جارتى اللعوب
- كلهم ذئاب.يأكلوننا لحما ويرموننا عظما

وأقول أنا باعتزاز:

- فيما عدا زوجى فأنا واثقة به حتى الموت
- أتمنى أن أصدقك لكنى لا أستطيع

نرجس لم تبعث لك بخطاب واحد منذ سفرك.تلقين عليها بـــاللوم وأنـــت الأخـــرى لم تكتـــبين لها.انحصرت حياتك فى لحظة ترقب وصول خطاب من زوجك.يهتز معنى الأخوة فى زمن الحرب والغربة وتشتت الأسرة وإغراء المال وأزمة الاسكان وانفجار الأمية وارتفاع الأســـعار وكبـــت الحريات ودكتاتورية الحكام.أنا أحب أختى، لكن المهم عندى هو مراد.

******

●العيســـــــــوى:

لا أخجل أبدا أن أعترف لنفســـــــــى...

أنا قلب حجرى.أنا نقد وبنوك.بطش وقوة.سيادة واستعلاء.أملك سلاحا عصريا.أغمده حين أريد فى قلب الخصم.أفقد ابنى.أفقد أهلى.غير مهم.لكن المال أهم.

- لست مسئولا عن غبائه.رحبت بعودته الينا فرفض.ماذا بيدى أن أفعل؟
- لقد زرعت فى قلبه كراهيتنا جميعا
- لا أحب سماع هذا الكلام الفاضى.ابنك يا سيدتى غبى.لايريـــد أن يفهـــم الـــدنيا علـــى حقيقتها.
- أنت تريده أن يفهمها كما تفهمها أنت.لكن أين هو؟.إعرف لى مكانه وأنا أذهب لأتوسل اليه أن يعود

– إن عاد من تلقاء نفسه فأهلا وسهلا، وإن لم يعد ففى ستين داهية

– ما رأيت فى حياتى أو سمعت عن رجل فى مثل قسوتك.إنى أفضل الموت على الحياة معك

معينى من القوة لاينضب.البلد تحارب.فلتحارب.إذن فلأتبرع بنصف مليون جنيه للمجهود الحربى.أعير بعض عربات النقل من أسطولى الكبير الى القوات المسلحة.أفعل ما يطلب منى فى الحدود التى أرسمها.أليست هذه وطنية كالتى يتشدق بها كل أفاق فى مصر؟..أدفع لربيع ليكتب عنى فى الجرائد ما أمليه عليه.لكل رجل سعر.طلب المسكن فآويته،وآلاف الدولارات فأعطيته.حتى عضوية النادى الارستقراطى الكبير حصلت له عليها.كلها مسائل محسوبة بدقة.سمعتى وإسمى وسماعة تليفونى مفاتيح سحرية تفتح لى أقفال خزائن الدنيا.

شىء ضئيل اسمه اسحاق دانيال يزحف هذه الأيام على سطح حياتى.يحاربنى فى شخص ربيع.لعنة كاذبة تحوم فى الأفق اسمها حرية الرأى.أى حرية لهؤلاء الرعاع تجعل مثل هذه الدودة الحقيرة تتسلل الى جحرى العميق الآمن.هناك قوة تسانده ولاشك.مجرد صحفى مغمور لاحول له ولاقوة يهاجم العيسوى بك الوطنى الغيور،ويتهمه بالفساد وينشر أدلته على مايقول.بسيطة.إعلان مدفوع الأجر السخى فى صفحة كاملة أو حتى على صفحتين بنفس الجريدة:"العيسوى يهنىء رجال القوات المسلحة والشعب المصرى وقائده الملهم بالعبور العظيم".

– ضربة معلم ياباشا

– وأنتما فى الجيش، ألم يتعلم منك هذا الولد شيئا؟

– ولن يتعلم حتى يموت

– يجب ألا نتجاهل القوة التى يختفى من ورائها

– أحباؤك أقوى من أعدائك ياباشا

– هذا كلام غير مفيد.إبعث فى استدعائه وسأعطيه ما يطلب

– حتى كم ؟

– قدّر أنت سعره وأنا سأضاعفه

أعرف ماسيحدث:رئيس التحرير يستدعى اسحاق بعد أن قبض ثمن الإعلان وخلافه.يأمره بالكف عن الكتابة عنى. يمتثل الكلب ليعيش، أو يرفض ليموت.

******

●من الملف رقم(٨):

رصدت المجموعة البحثية للحركة المصرية من أجل التغيير "كفاية" حالة الفساد الحاكم فى مصر خلال ربع القرن الماضى التى عاشها الوطن فى ظل نظام مبارك وحزبه وحكوماته المتعاقبة.أشرف على ملف البحث المفكر المعروف دكتور عبد الوهاب المسيرى.

الملف لايقتصر على فساد رموز النظام من أفراد النخبة الحاكمة والقريبين منها فحسب، وإنما يحتوى على نماذج ودرجات أخرى من حيث الكيف والكم،جعلت الحياة فى مصر مرهونة بالقدرة على التكيف مع الفساد الحاكم فى مختلف تجلياها.يسميها الكاتب الساخر أحمد رجب:"حكومة فسادستان" ،ويصفها بأنها الحكومة التى لاترد على تقارير جهاز المحاسبات الحكومى والكاشف الرسمى عن عورات الفساد أو ما ظهر منه فقط.

يخصص الملف بحثا خاصا حول فساد الأسرة الحاكمة بداية من نجلى الرئيس الى زوجته اليه هو شخصيا..فيما يخص نجلى الرئيس يشير الملف الى أن كلا من علاء وجمال مبارك يشاركان بحصص مجانية تبلغ ٥٠% فى رأسمال كبرى الشركات التجارية والصناعية بمصر.كان من نتيجة ذلك أن هددت هذه الشركات بالإفلاس والانهيار،وتم طرد عدد كبير من العاملين بها مما أسهم فى ارتفاع نسبة البطالة وزيادة معدلات الكساد.وعلى الرغم من أن حصتهما مجانية فإنهما يرفضان سماع أى حجج أو أعذار،فلا بديل عن دفع نصيبيهما سواء أكان شركاؤهما رابحين أو خاسرين.فتح الأخوان مبارك خزائن البنوك على مصراعيها لشركائهما يغترفون منها ما يشاءون،بلا أى ضمانات ودون أى مساءلة من النيابة.كما تم اختزال السوق المصرية فى ستين شريكا من شركائهما من رجال الأعمال..فيما تمت تصفية الباقين إما عن طريق تلفيق قهم لهم ووضعهم فى السجن،أو بجعل الضرائب والجمارك والشرطة تقلب حياقم الى جحيم.

ويشير الملف الى قرار تخفيض الجنيه المصرى بنسبة٥٣% مرة واحدة،مع تسريب المعلومات قبلها بأيام الى الشركاء والأحبة ونصحهم بتغيير كل ما يمتلكونه من مال سائل الى دولارات، بحيث تزداد ثروة كل منهم بمقدار٥٣% فى لحظة واحدة عند إعلان قرار تخفيض الجنيه.ولقد تم ما تم مع تحصيل عمولة تبلغ نصف مكاسب هذه العملية التى تسببت فى رفع الأسعار بشكل جنونى لا يمكن السيطرة عليه.ويختتم التقرير حديثه عن نجلى الرئيس قائلا:"كل واحد بيدفع فى البلد دى بيحكى،وخصوصا لما يدفع للكبار".

وينتقل التقرير بعد ذلك الى زوجة الرئيس موضحا أنها رئيسة لمئات الجمعيات الخيرية،منها الحقيقى ومنها الوهمى.الغرض منها غير خيرى بالمرة،فعلى سبيل المثال جمعيات سوزان لحماية الطفل لاتحمى أى طفل، لأنه فى عهد زوجها يتم تعذيبه واغتصابه جهارا نهارا فى أقسام الشرطة،مشيرا إلى انها–بحكم كونها قرينة الرئيس–تتلقى تبرعات من كل دول العالم، تبلغ فى

المتوسط خمسة ملايين دولار فى العام لكل جمعية ترأسها،وهذا يعنى أنها تتلقى سنويا مايقرب من خمسين مليون دولار من التبرعات..وكانت هى التى وقفت وراء استصدار قرار عام١٩٩٢ يحظر على الجمعيات الأهلية تلقى أى تبرعات من الخارج.."عليهم غفور رحيم وعلينا شديد العقاب"!.

وفيما يخص رئيس الجمهورية أشار الملف الى أنه منذ أن تولى مبارك السلطة عام ١٩٨١ استصدر أو جدد من مجلس الشعب قرارا دوريا له قوة القانون، بتفويضه فى التعاقد على الأسلحة التى قد تحتاجها مصر،دون الرجوع الى المجلس.هذا الإجراء لامثيل له فى أى دولة أخرى بالعالم،وهو قمة الفساد بعينه،فمبارك ينصب من نفسه تاجرا وحيدا للسلاح فى مصر،ويقرر وحده نوعية وكمية السلاح الذى تحتاجه،وكذلك يقرر الجهات التى يتعاقد معها والأسعار التى يتعاقد بها..كل ذلك دون حسيب أو رقيب.

أما عن فساد الوزراء،فيؤكد الملف أن هناك من الوزراء من يستغل نفوذه للاستيلاء على أراضى وممتلكات الغير،مثل بطرس غالى وابراهيم سليمان..وهناك من يتاجر وينتهك هو وولداه فى شرف وأعراض مرؤوسيه وغيرهن من النساء.وهناك من نصب على الشعب وباع له تراب الصحراء وتلقوا عمولات ورشاوى بمئات الملايين،ومن يتاجر هو وولداه فى المخدرات، ومن يهرب ويتاجر فى الآثار وغيرها من الممنوعات، ومن عبث وتلاعب بالبورصة وكسب المليارات من أموال صغار المستثمرين،والغريب أن مبارك لايفعل شيئا لمحاسبتهم.

ويرصد الملف أنه فى أواخر التسعينات تعاون وزير داخلية سابق مع بعض المفسدين فى تكوين ثروات ضخمة له ولأسرته كأول وزير يتعامل بالبيع والشراء مع أفراد معتقلين ،وعلى سبيل المثال شراء هذا الوزير من"المعايرجى" المعتقل لدى الداخلية محلا بمليون ومائة وخمسين ألف جنيه،كما استولى الوزير وأحد أبناؤه على أبراج"نبيل مشرقى"وهو موجود بالسجن،كما قام ببيع فيلا لسجين آخرفى قضية من قضايا الفساد فى الصناعة وهو"الحباك"بمبلغ ستمائة ألف جنيه أثناء وجوده بالسجن.وفى الاسماعيلية بمنطقة "أبو سلطان" قام محافظ الاسماعيلية السابق بتوزيع مساحات شاسعة من أراضى الدولة على الوزراء وكبار المسئولين.وفى شركة خدمات البترول الجوية قام"أمير رياض"رئيس مجلس الإدارة بإصدار أوامره بإعداد طائرة حمولة خمسين فردا تجهز بأحدث أطقم"السرفيس"المستوردة لزوم السادة الركاب،ودفعت تكلفتها من المال العام المتروك فى يده ، كما لو كان ملكية خاصة، ولم يكن للغرض من الطائرة علاقة بدواعى العمل،وإنما لحمل وزير البترول وأسرته والسيد نائب رئيس مجلس الوزراء وأسرته هو الآخر،وخادمتين،لقضاء المصيف فى مرسى مطروح،والمثير للدهشة أن زوجة الوزير نسيت حقيبتها،وعلى الفور أصدر

أوامره بإقلاع طائرة أخرى حمولة اثنين وخمسين راكبا لحمل الحقيبـــة فقـــط وتوصيلهالمرســـى مطروح،وقد أقلعت الطائرتان فى نفس اليوم خاليتين.

ويكشف كتاب"توظيف الفساد"للكاتب"بدر عقل" أنه تم وضع المـــدعى العـــام الاشـــتراكى السابق "عبد القادر أحمد على" فى موقع الاهام بعد أن زادت ثروته من نصف مليـــون جنيـــه الى مايربو على ثلاثة ملايين جنيه بشكل مفاجىء. وقد أثار التحقيق معه اهامات وشـــبهات حـــول خمس وعشرين شخصية سياسية، من بينهم سبعة رؤساء وزارة سابقين،وإثنا عشر عضوا بمجلس الشعب، وعدد من المحافظين السابقين،وأشار الى تورط هؤلاء باستغلال نفـــوذهم وســـلطاهم فى انحرافات شركات توظيف الأموال،كما أشـــار الى اشـــتراك عـــدد منـــهم فى نـــشاط هـــذه الشركات،كمساهمين بأسمائهم أو بأسماء أقارهم من أبناء وأخوة،ومن بين هؤلاء"كمـــال حـــسن على"الذى عين رئيسا للحكومة فى ١٦ يوليو عام١٩٨٤ ،حيث قـــدم خدمـــة العمـــر لتلـــك الشركات بالإطاحة بالدكتور مصطفى السعيد وزير الاقتصاد فى حكومته من أجل عيـــون تجـــار العملة الذين أصبحوا فيما بعد أصحاب شركات توظيف الأموال.كمـــا يوجـــد مـــن بينـــهم المهندس"عثمان احمد عثمان" نقيب المهندسين ورئيس لجنة التنمية الشعبية بالحزب الوطنى،والذى كان يعد بمثابة الأب الروحى لبعض هذه الشركات،وشريك المحاسب"أشرف السعد" بـــأربعين فى المائة من مصنع للملابس.كما ضمت القائمة كلا من محافظ الجيزة"عبد الحميد حسن" الذى ترك منصبه ليعمل فى شركة الريان،ووزير الداخلية الأسبق"النبوى اسماعيل"–زوج المطربـــة فايـــدة كامل–ومحافظ الشرقية"أمين ميتكيس".وقد قيل–نقلا عن أصحاب شركة الريان–أن أحدهم قال –"نحن دولة داخل الدولة ،والجميع يقبض منا"

وكان عائد الودائع يتحدد حسب أهمية المود ع وموقعه على خريطـــة الـــسلطة،حتى أن العائـــد السنوى وصل فى بعض الأحيان الى نسبة مائة فى المائة!!..

والله يا إخوتى الأعزاء بنى وطنى، انى اتصور الآن–دون أن أكون مسطولا– سيدنا عمر بـــن الخطاب وقد جمع هؤلاء الكلاب من كل صنف ولون وأوقفهم جميعا فى طوابير منتظمـــة،ثم راح يطيح برؤوسهم فى الهواء بلا رحمة.

******

●مدحـــــــــــت:

أبى والثغرة وطليقتى ومفاوضات الكيلو١٠١ وجسدىالعليل المرهق وعشرات الأطباء خـــبراء وجهلاء يختلفون حول احتمال شفائى من عنتى وحسن العائد والعمارة التى بناها فـــوق الطـــابق الأول والوحيد لبيت أصهارى السابقين والاتفاق الذى تم بينه وبينهم فامتلكت نـــرجس شـــقة

بموجبه وأيام الطفولة السعيدة وأحلام الشباب الخضراء والمستقبل الباهر والطريـــق المرصـــوف والدنيا والآخرة وخريطة مصر كما تبدو من تحت الطائرة وأناس يستمرئون الظلـــم ويمجـــدون الظالم والله لايحب المنافقين ولا الظالمين وأنا فكرت فى الهرب الى أقصى شمال العالم بحثا عـــن دفء القلب فى الصقيع والجليد ووحشة الحياة بلا روح ولكنى فضلت الموت هنا وقرأت فـــضائح أبى منشورة بالجرائد تشير الى أنه لص عتيد وانتهازى لانظير له أما مراد فلم أعرف عنه شـــيئا منـــذ استدعائه ولم أحاول أن اعرف ويهجم علىّ شبح من الخلف فيلوى ذراعى الأيسر ويقيد حركتى فأنتفض من نومتى الجرباء فى "بنسيون"حقير لكن به دفء وعائلة وحب ومـــشاجرات ورقـــص وغناء وكم أتمنى أن أضحك من كل شيء عرفته منذ ولدت حتى لا أعجب حين يأتينى نبأ تقـــدم مليونير يهودى ليطلب يد نرجس وبعد انقضاء وطره يشترى العمارة ويطردها وأهرع الى قصيدة الأطلال وتقاسيم العود والرقص على أنغام البوزوكى وما رواه لى مراد عن قانون أحمـــد قمـــر والسيجارة المحشوة تنام مشتعلة بين خنصره وبنصره وهو يعزف وشقيقه الممثل الـــشهير الـــذى احترف السخرية من السادات وهو فى منفى بلاد الثائر الليبى صاحب الكتاب الأخضر وأنـــا لم أعد أنا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقد يكون فى اختفائى موت أو فى موتى اختفاء بحيث لا أعلم ولا يعلم أحد غيرى شيئا عنى منذ الآن فقد ماتت أمى حزنا على غيابى وغيظا وانفجارا من تسلط أبى اللص الكبير وكم أحببت هذه المخلوقة الطيبة التى كانت تلتقى سرا بنرجس بنت نفيسة وتنصحها بالصبر والانتظار وما أغربها من نهاية فأنا الآن بغـــير أب ولا أم ولا زوجـــة ولا صديق وإنما مجرد كيان انسانى هائم فى أرض الله الواسعة.

******

●اسحاق دانيال منقريوس:

سوهاج فى../../١٩٧٦

أخى الحبيب مراد عامر..لأول مرة منذ تسريحنا الثانى أتمكن من قضاء إجـــازة بـــين أهلـــى فى الصعيد.يستهلك عملى بالمجلة القاهرية كل وقتى وطاقتى.لاتتصور كم كانت فرحتى بخطابك الذى ظل محتجزا هنا لأكثر من عامين.أصيل أنت.لم تنسنى بمجرد عودتـــك بـــسلامة الله.إنى آســـف لإصابتك الغريبة فى فمك.. الشظية"نشنت" عليه لست أدرى كيف أو لماذا.طمئنى على نتيجـــة عملية التجميل.احمد الله أنك عدت الى ذويك سالما بغير عاهة تعوق حركتك فى الحياة.أعتـــرف بتقصيرى الشديد فى حقك.عامان كاملان حافلان بالأحداث ولم أفكر فى الكتابة اليك أو الى أى أحد من رفاق الخنادق والسلاح.الطبيعى فى هذه الحياة أن يلتقى الناس ليفترقوا وينسوا بعـــضهم البعض.أى طينة من الجحود عجن منها الإنسان.حتى لو التمست لى العذر بعد أن تعرف حكايتى

فإننى لن أغفر لنفسى ذنب نسيانك.لقد أذاقنى العيسوى وربيع صنوف الويل جميعا.عرضا علىّ آلاف الجنيهات لأسكت ، وكنت–يعلم الرب–بحاجة الى بضع مئات لمواجهة نفقات أسرتى الصابرة التى بذلت أكثر ما بوسعهاحتى أتعلم ، وأنت تلمس بالتأكيد فحش الغلاء الذى لم يعد يحتمل فى هذه الأيام.فصلت بسببهما وتعرضت للجوع فى جحيم القاهرة اللاإنسانى.كان بإمكانى الصمت ضمانا للرزق،لولا أشلاء سالم عطية التى تناثرت أمامى على الرمال،ورأس مختار مرسى التى طارت فى الهواء.تشردت على مدى هذين العاملين وتنقلت من جريدة الى مجلة الى جريدة أخرى،وهما يضعان لى الألغام فى كل مكان أذهب اليه.حتى فتح الله علينا بعودة الأحزاب فتنوعت جرائد المعارضة وإن لم تكن معارضة بالمعنى الحقيقى. تعجبنى أعمال السادات فيما عدا جحيم الانفتاح الذى اخترعه،والذى أخشى أنيقضى علينا نحن الموظفين البؤساء الذين لايملكون غير ضمائرهم ورواتبهم الشهرية.

اطمئن يامراد.لن أسكت مهما حدث، فبلادنا ليست تكية لجناة ثمار النصر بلا جهد أو عرق أو دماء،ينهبون فيها كما يشاءون.أما هذا الخائن الذى أكل معنا يوما من العدس الأميرى والخبز المحروق،فسوف يأتى يوم بإذن الرب يدفع فيه ثمن جرائمه من أولاده أو من صحته. هو اليوم رئيس تحرير مجلة كبرى تدعمها الحكومة ، وأنا محرر عادى فى جريدة شبه معارضة،وإن لم تختلف كثيرا فى توجهاتها عن توجهات النظام الحاكم.هو اليوم يسكن فى شقة فاخرة تطل على النيل ، وأنا أعيش فى غرفة متواضعة فى بناية من أقدم بنايات القاهرة وأكثرها تهالكا.لكن مايدريك كيف يكون الحال غدا،أو من الذى سيضحك أخيرا.أرجو أن تتواصل ما بيننا من مكاتبات فأنا أشعر بحاجة شديدة للاتصال بك،ولسوف نلتقى يوما،فالمسافة من القاهرة الى الاسكندرية قصيرة جدا على الأحباب.مبروك يامراد.لديك الآن عادل وهالة.كفاك يا أخى مساهمة فى زيادة تعداد سكان مصر المتزاحمين حول واديها التعس،وختاما أرجوك أن تبلغ تحياتى ومحبتى الى أفراد أسرتك كافة،ودمت لصديقك المخلص اسحاق منقريوس..عنوانى بالقاهرة صندوق بريد رقم٧٣٦٧ .

******

●من الملف رقم(٩)

والله يا إخوانى قد احترت عما أكتب وعمن أكتب..عن ابراهيم نافع وسمير رجب رئيسا تحرير الجريدتين القوميتين الشهيرتين، اللذان جمعا الملايين من جرائدهما ومجلاتهما الخاسرة حسبما جاء فى تقارير عديدة للصحافى مصطفى بكرى عنهما.هل أكتب عن صفقة بيع محلات عمر افندى

المشبوهة برخص التراب؟..عن الأسمدة المسرطنة التى أدخلها الى مصر مستشار وزيــر الزراعــة بموافقته..عن بطلى الفساد فى التلفزيون سواء رئيس قطاع الأخبار أو رئــيس مدينــة الانتــاج الإعلامى وقد عثر بمكاتبهما على ساعات ذهبية وقطع من الحشيش وزجاجات العطر المــستورد وملابس النساء الداخلية،كما عثر ببيوقمما على ملايين الدولارات والجنيهات..عن عبارة الموت الشهيرة..عن رئيس إحدى لجان مجلس الشعب الذى نهب أحد البنوك..عن الوزير الذى أوشك على ردم جزء من النيل مجاملة لمليارديرعربى،أم عن أحمد عز ملك الحديد والحــزب وصــاحب الأربعين مليار جنيه التى جمعها فى بضعة سنوات..؟؟..

مللت من البحث فاضطورت الى الاختصار المخــل حــتى أخفــف مــن حــدة غــيظكم وكمدكم..وعلى من يرغب فى الاطلاع على المزيد من هذه الملفات أن يرجع الى تقرير الدكتور حمدى عبد العظيم الخبير الاقتصادى بأكاديمية السادات، والذى قال فيه إن٢٦مليار دولار قــد هرّبت من مصر عام ١٩٩٨ فقط، منها تحويلات بنكية ومنها شهادات إيداع دولية.وقد كشفت الإحصاءات الصادرة عن هيئة النيابة الإدارية عن أن عدد قضايا الفساد داخل أجهزة الحكومــة التى وردت اليها فى العام الماضى فقط قد بلغت٧٢ألفا و٥٦٣قضية تشكل جرائم جنائية أبرزها اختلاس المال العام والاستيلاء عليه أو الرشوة والتزوير.

الفساد يسرى فى كل القطاعات السياسيةوالاقتصادية والزراعية وقطاع النقل والمواصــلات وقطاع الإسكان والمقــاولات وقطــاع الاتــصالات والهواتــف المحمولــة والثابتــة،وقطاع الداخلية،وتوزيع المعونة الأمريكية،والنظام التعليمى والنظام الصحى وقطاع الــصحافة وقطــاع الأعمال والخصخصة وهلم جرا..

الملف ضخم ومخيف،لكنه متاح عندى لكل من يريد الاطلاع عليه كاملا.لا أخفــى عــنكم أيهاالسادة أننى أكاد أجن لتفشى الفساد فى البلاد حتى غرقت فيه لأذنيها ان كان لها أذنان.لجأت الى علوم النفس والاجتماع والاقتصاد لأفهم شيئا عن أصل هذه الظاهرة وفصلها.استغرق ذلك منى جهدا كبيرا، وهو موضوع ليس مكانه هنا،غير أننى أستطيع أن أقدم لكم خلاصة شــديدة الاختصار توضح لنا من هو الشخص الفاسد.إنه فى عرف علماء النفس شخصية مضادة للمجتمع تتعامل معه بعدوانية وكراهية،وهو فى عرف علماء الاقتصاد إنسان ذو آثار ضارة علــى مجمــل مايقدم للمواطن من خدمات، وهو عائق بطبعه المفسد لعملية التقدم والتنمية.أما الاجتمــاعيون فيرون أنه إنسان مخل بالمعايير الأخلاقية والسلوكية مدمر لها، وذلك يرجــع الى ســوء تنــشئته الاجتماعية وإلى خلل فى بنائه الأخلاقى ونموه الخلقى، والخلاصة من الآخر فإن الرجل الفاســد المفسد ماهو إلا بنى آدم ابن كلب وسخ.

وأخيرا فإنى أصارحكم القول بأننى قد بدأت أفقد حماسى لقراءة الصحف المعارضة والمستقلة ، مثلما سبق أن فقدت حماسى من قبل لقراءة الصحف القومية.إن هذه الجرائد تتحدث يوميا عــن الفساد والاستبداد والتبعية ومؤامرة التوريث والبطالة والغلاء والقمع الوحــشى للمتظــاهرين المعارضين وتعذيبهم..كل يوم أقرأ نفس الكلام حتى تشبعت به أنسجتى وخلاياى ولم أعد أطيــق نفسى،فكل هذه الكوارث باقية على حالها،بل ومعظمها يتفاقم ويزداد خطورة دون أمل فى حل أو إصلاح أو تغيير.

أما الذى قضى على البقية الباقية من حلمى بالمساهمة فى فعل أى شىء فى اتجاه التغــيير، فهــو انفضاض ندوة الأدباء بمقهاى.اختفى نوفل حسنى بعد العلقة التى أكلها من عبد القادر.من قبلــه اختفت تحية بعد زواجها.كان أملى ان بصنع كل من عبد القادر وحلمى نواة لمجموعة جديدة من الكتاب يواصلون الحوار الحيوى حول مصير البلاد على أرض مقهاى.لكن عبد القادر انتقل الى مكتب الجريدة بالقاهرة ليكون معاصرا للأحداث الساخنة هناك.لم يتبق إلا حلمى سليم مخــرج التمثيليات بإذاعة الاسكندرية.كان يجلس وحيدا مكتئبا حين سحبت كرسيا وجلست بجواره.

- أين مسلسلات الاسكندرية التى كانت ترج الدنيا من قبل؟
- للأسف كل المسلسلات المذاعة معادة،فلم تعد هناك ميزانية للمسلسلات
- لماذا؟
- الملايين التى أنفقت على مدينة الإعلام وغيرها تحت دعوى الريادة الإعلامية، تــسببت فى إفلاس الإذاعة
- وماذا تعمل الآن؟
- لاشىء..أتقاضى مرتبى دون عمل

..لم يبق لى فى النهاية إلا شلة البار..شلة النسيان والغياب عن عمد.

******

●فاروق النجــــــار:

الاسكندرية فى../٦/١٩٧٧

صديقى العزيز مراد..ما كنت أظن يوما أن تهون صداقتنا عندك الى هذا الحد.اعتقلونى فى المــرة الأولى بسبب نكتة سياسية فكانت إرادة الله ألا أشهد بعينى مذبحة سيناء،وأنا كما تعلم شخصية انتحارية، فلم يكن من السهل أن أعود حيا من هناك.انتظرت طويلا بعد خروجى من السجن أن تبحث عنى أو أن تسأل على الأقل واحدا من أصدقائنا عن حالى. لكنك- ويــا أســفى علــى الصداقة- كنت تلتقى بأخى الجبان محمد وتعمل معه رغم علمك بجشعه ونذالته وانتهازيته.مــن

المؤكد أنك لم تحصل منه على جنيه يوحد الله،ومن المؤكد أيضا أنه لن يتوانى عن محاولة استغفالك حتى يحصل منك على مايريد بلا مقابل.ماعلينا..ثم اعتقلت مرة أخرى فى ١٩يناير الماضى أثنـــاء مظاهرات الاحتجاج العنيفة على رفع الأسعار،والتى وصفها السادات بانتفاضة الحرامية.خرجت من المعتقل ولم تسأل عنى.لكن مالى أحزن على صديق كان ، ولا أحزن على أخ لم يكن.العجيب فى الأمر أننى لم أشترك بالفعل فى هذه المظاهرات.كنت أتفرج فقط على مايحدث.تمنيت أن ألقـــى بنفسى وسط الجموع الهادرة أشاطرها غضبها المشروع وأهتف معها مطالبا بالرحمة بالفقراء،لكنى تذكرت الزنزانة وحشراتها الحقيرة ورائحة البول والبراز فتراجعت،ولكن هـــل تعلـــم كيـــف اعتقلونى؟..كنت فى زيارة صديق على نفس شاكلتى وكانوا يبحثون عنه.داهموا شقته وقـــال لى الضابط بعد أن اطلع على بطاقتى وتذكرنى:

–أهلا..وأنت أيضا هنا؟..وفرت علينا الوقت والجهد

فصلت من العمل وأبت علىّ نفسى أن ألجأ الى أخى الذى يعرف كل شيء عن ظروفى.رغم هذا كله فإننى ألجأ اليك اليوم.أسألك قرضا ماليا أواجه به أيامى المقبلة لحين أن أجـــد عملا،وإليـــك عنوانى:شارع... رقم ٥٢ بجوار مقهى الحرية.

المخلص:فاروق النجار

******

●حسن عـــــــــامر:

اتفاق تعاقدى

طرف أول:السيد/حسن عامر ابراهيم

طرف ثان:السيدة/نفيسة عبد العزيز المهيلمى

يقر الطرفان المذكوران أعلاه بالاتفاق التام والنهائى على البنود الآتية:

بند أول: يقوم الطرف الأول باستغلال العقار رقم..الكائن بشارع...ملك الطرف الثانى لإقامـــة ستة طوابق يحتوى كل طابق منهم على ثلاث شقق تتكون كل منها من غرف أربع ذات تشطيب ممتاز.

بند ثان:يقوم الطرف الأول بالإنفاق الكامل على الخامات وعمليات الهندسة والبناء والتـــشطيب دون أى التزام مادى من الطرف الثانى.

بند ثالث:عند الانتهاء من البناء والتشطيب الكامل توزع ملكية الشقق والجراج مناصـــفة بـــين الطرفين ويكون كل طرف حرا فى استغلال ما يخصه سواء لنفسه أو ببيعه للغير.

بند رابع:فى حالة حدوث خلاف يكون التقاضى أمام محكمة الاسكندرية.

******

●نرجـــــــــــس:

- فيم تعارضين؟..أنا لا أفهمك
- لن أسكن معهم فى هذه العمارة
- أول مرة أسمع فيها عن زوجة لاتريد السكن بجوار أهلها

-وهل يعجز حسن عامر بجلالة قدره عن تدبير سكن خاص له ولزوجته؟!

- أنت عنيدة يانرجس

-أريدك بعيدا عن مشاكل أسرتى.ألا تفهم ماذا يعنى ذلك؟

- أفهم ياحبيبتى

واشترى لى حسن الفيلا...أنا الآن فوق الجمـــــــــــــــيع.....

- فيلا رائعة..أحبك ياحسن
- هى ربحى من مشروع عمارتكم..مارأيك؟
- أين كنت من زمان يارجل؟
- أمهلنى القدر حتى يأتى اليوم الذى أجدك فيه بانتظارى
- لم يبق إلا عربتى الخاصة
- ستكون مفاتيحها بين يديك خلال أيام قليلة

******

هأنا قد عدت لأتكلم عن نفسى وعن غيرى بحرية.أتكلم من أرض الواقع دون تصور أو تخيل أو تخمين.."وفى السماء رزقكم وما توعدون"..فيم الطمع يابنى آدم؟..زوجة طيبة وطفلين جمـــيلين وشقة فاخرة جديدة لم تدفع فيها قرشا،وعمل شريف ترتزق منه، وصحة ثور، وشرخ لم يعد لـــه وجود،وسؤال لم تعد ترتجف فزعا لسماعه بين الناس فى زمن الانفتاح:

- كم عملت حتى الآن ؟

اندمل جرحك والتأم شرخك بثأرك لابراهيم النحراوى وسالم عطية ومختار مرسى.عملية التجميل أعادت الى وجهك معالمه الأصلية.لماذا جاءت الإصابة فى فمك بالذات؟..سؤال أنـــت تعـــرف إجابته ولا تجرؤ على البوح بها لنفسك.كان وجهك شبيها بوجوه ممثلـــى الرعـــب والإجـــرام

ومصاصى الدماء.لو بقيت على حالتك لما استطعت تقبيل زوجتك.كان منظرك يثير التقزز خاصة أثناء تناول الطعام.ضريبة تافهة كان ينبغى أن تدفعها ثمنا لما فعلت،ولتعد الى ممارسة عريك المحبب،وحيدا فى غرفتك تتأمل النجوم وتنعم بأحلى لحظات الصفاء.قالت سميرة:

- معجزة أن يتزوج حسن من نرجس
- هى القسمة والنصيب
- أما زال مدحت مختفيا؟
- أسمع أحيانا انه هاجر وآخرون يقولون انه مات أو انتحر
- مسكين!

لا أعرف حتى الآن كيف أمحو من صفحات حياتى تلك اللحظات الرهيبة التى جمعت بينى وبين نرجس.مازلت أخاف هذه المرأة.لايمكن أن تكون شقيقة سميرة.أنا واثق انها لم تحب"حسن"كما لم تحب"مدحت".عندما التقينا أول مرة بعد عودتى كان استقبالها لى طبيعيا وكان شيئا لم يكن.تغير حسن كثيرا بعد زواجه منها.تكررت زياراته الودودة لى.يحاول خلق صداقة جديدة.عجيبة هذه الحياة.لعله قانون السعادة الطائش الذى يعجز الخلق عن تفسير شطحاته الجامحة.زارنى محيى وعرض علىّ استئناف العمل معه.قلت له:

- سأعمل مع أخى فى المقاولات
- غير معقول
- صدقنى..وسبحان مغير الأحوال
- إنى سعيد بما أسمع

بعد أيام قليلة نشر الخبر الآتى فى صفحة الحوادث بإحدى الجرائد اليومية:

"بينما كان مقاول المعمار حسن عامر يشرف بنفسه على بناء الطابق الأخير بإحدى عماراته الضحمة بالاسكندرية،فاجأته نوبة قلبية.اصطدمت قدمه اليمنى بقطعة من الخشب، فاختل توازنه وسقط من أعلى البناية الشاهقة فأسلم الروح على الفور"..

لم تتسلم نرجس مفاتيح العربة الجديدة.بكت بحرقة أذهلتنى.هل أحبت حسن؟..لم تعد الإجابة سهلة هذه المرة.الزمن هو المحك.الأيام القادمة هى البرهان.مات أخى التعس وترك كل ما جمعه من مال.لم يخلفه ولد ولا بنت.اتشحت نرجس بالسواد.أشعت الفتنة الغامضة من وجهها فى صورة أخرى.هل تصبر طويلا على ترملها بعد أن آلت اليها معظم ثروته أم ستبحث عن حسن آخر؟..فى وجهها سحر غامض مخيف يفح بنذر الشؤم والكدر.

- البقية فى حياتك

- حياتك الباقية..أشكر لك حضورك يا اسحاق
- أنت أخى وهذا واجب ونحن صعايدة

كان فراقه صعبا أليما موجعا.لكنه الموت، نهاية النهايات.قلت لإسحاق ان الحياة لاتستحق منا كل هذا القلق والعناء فوافقنى.رغم لك أخذنا نتحدث بانفعال وقلق وتوتر وحيوية عن العيسوى وربيع وأمثالهما،وعن الذين أسسوا شركات انفتاحية وهمية وسرقوا ملايين الدولارات ثم هربوا من مصر،وعن الذين سهلوا لهم السرقة والذين سهلوا لهم الهروب.كما تحدثنا عن لحظة مصافحة السادات لزعماء اسرائيل فى مطار بن جوريون.رويت له حكاية مدحت الذى لم يعرف أحد أين اختفى.قادتنا أقدامنا الى الشاطىء.تعبنا من طول المشى.جلسنا على الرصيف نرقب الغروب،ونتأمل فى خليط الألوان المعجزة التى يصنعها نزول قرص الشمس فيما وراء الأفق، مداعبة سطح الماء فى غزل رقيق.مرت أمامنا حسناء يحيط صديقها بخصرها فى وله شديد.وضعنا تفاصيل جسدها تحت مجهر المتعة الخالية من المسئولية وقال السادات للصحافى الغربى:

-أنا والله مابيهمنى..مسدسى فى جيبى والأعمار بيد الله

كان الصحفى قد سأله عما إذا كان خائفا من تهديدات العرب الرافضين لمبادرته للسلام مع اسرائيل.خضنا فى تفاصيل وصفية دقيقة له وهو يشعل "البايب".يأخذ منها أنفاسا متعاقبة ويتحدث عن الحاجز النفسى بين العرب واسرائيل.يصمت لفترة يقول خلالها:آء.آء.آء. ثم يتكلم.تنطفىء جذوة الطباق-كما لوكان بينه وبينها اتفاق- فيعاود إشعالها وهو يتكلم.يضع ساقا فوق ساق فيتجلى حذاؤه الأنيق ذو الرقبة الطويلة.ضحكنا حتى دمعت عيوننا-رغم شبح الموت-من حركاته الظريفة.قال اسحاق ان بيوت الأناقة العالمية قد وضعت السادات بين قائمة أكثر الرجال أناقة فى العالم،فتذكرت إصراره فى طفولته على قول"كسفريت"بدلا من"كبريت" لبقال القرية كما قال عن نفسه فى مذكراته،و"هات يابنى قلم الإمضا"..كان خفيف الظل مثلما كان داهية بحق،لكنه أحب مظاهر العظمة لدرجة الجنون.

- لولا السادات لما التأم شرخى.أنا مدين بكرامتى لهذا الرجل
- المسائل ياعزيزى لاتؤخذ بمثل هذه البساطة.لاتنس أن هناك من يصفونه بالخيانة بعد صلحه مع اسرائيل.

ونعود الى منزل الأحزان.يطل علينا الموت من جديد.تذكرت الشظية الحارقة التى أطارت نصف فمى.عاد اسحاق الى جريدته على أمل الانتصار على سارقى النصر لصوص أكتوبر أو كما أسماهم:فئران السفينة،رغم إدراكه لسطوتهم وتشعب جذورهم وصعوبة النفاذ اليهم.فكرت أن أكتب خطابا الى رئيس الجمهورية أقترح عليه أن يعدم اثنين أو ثلاثة من كبارهم فى ميدان عام.لن

يصله الخطاب.وإن وصله فلن يصلنى منه رد.إنه لايعرفنى بدليل أن جميع الطرق تغلق لساعات طويلة قبل أن يمر موكبه فى شوارع بلده وشعبه وناسه،حتى تمر عربته ذات الزجاج المصفح المغلق والستائر الداكنة المسدلة عليه،فكيف يرانى وكيف أراه؟..هو لايرانى وأنا لا أراه.لن يتكرر أبدا فى تاريخ مصر مشهد يماثل مشهد جمال عبد الناصر العملاق وهو واقف بطوله وعرضه فى منتصف عربته المكشوفة وهى تتهادى فى حب بين حشود الجماهير المفتونة بعشقه.

الحكاية وما فيها انها حياة تسير بصميمها وقشورها بلا توقف ، حتى لو تمهلت عند نرجس بين جدران أربعة فاخرة المحتويات تسكنها الوحدة الموحشة وحصادها قبض الريح.حتى لو تمهلت عند عزيز قوم ذل فراح يستجدى المال من صديق نذل.مهما تمهلت فإنها لابد أن تعاود السير.لعلها تمهلت طويلا أمام ذلك المشهد الرهيب المروع والسادات بمسك بمنظاره المعظم ليشاهد تفاصيل العرض العسكرى الجبار"لأولادى" فى الاحتفال بذكرى نصر أكتوبر.ينطلق عليه سيل من الرصاص يمزق رقبته وجسده.القلعة الحصينة التى يحتمى بها لا تحميه.يطل علينا الموت من جديد ثم ننساه كالمعتاد.باسم الدين قتل الرجل وطويت صفحته فى لمح البصر.أيها العالم المجنون أنت عسير على الفهم.كلمات تقال فى كل مكان وزمان تنتهى دائما الى الدم.الشيوعية.الإرهاب الدينى.الأراضى المحتلة.نظرية الأمن الاسرائيلى.القضية الفلسطينية.الرأسمالية المستغلة.الوحدة الوطنية..متى ينتهى هذا القاموس الممل من الألفاظ فننفض دماءه عن كاهلنا؟..قال مفكر كبير:

–لقد خسرته مصر بل خسره العالم

وقال آخر:

–كان لابد أن تكون هذه نهايته، فما زال فى مصر رجال

أصيب بجنون العظمة فسجن رموز مصر كلها فى معتقل واحد وضع فيه الماركسيين مع الإخوان المسلمين والناصريين والمسيحيين والليبراليين.هللت له أبواق النفاق والسلب والنهب والانتهازية،فانتزعته من مكانه العالمى وألقت به الى أسفل المقاعد المتناثرة بأصحابها فى فزع من إطلاق الرصاص..وقال يسوع:"احذروا من الكتبة الذين يرغبون المشى بالطيالسة ويحبون التحيات فى الأسواق والمجالس الأولى فى المجامع، والمتكآت الأولى فى الولائم..هؤلاء يأخذون دينونة أعظم."

لم ولن تتوقف الحياة.مازال اسحاق يحارب ومازال العيسوى يسرق وربيع يكتب مهللا لإنجازاته فى خدمة مصرهما الحبيبة،وما زالت اسرائيل تماطل وتساوم فى عملية السلام..ولأول مرة أعاود اكتشاف عينى حبيبتى على ضوء ما انعكست به الحياة على نفسى،لأجدهما خضراوان حالمتان، توحيان بالأمل.

******

حين سألتها"هل تتزوجينى" أمعنت النظر فى عينيها فرأيتهما سوداوان ناعستان تلمعان بـذكاء متوقد لايشوبه كبر أو غرور.فيهما دهشة طفل وسكينة عارف.فيهما طيبة وبساطة ومرح وشقاوة وتسليم.كل نقائض الدنيا تكاملت فى عينيها.قرأت فيهما كثيرا مما قاله برتراند راسل وما قالته أم فؤاد وما تعلمته من القرآن والإنجيل.الحيوية بعينها تتدفق منهما فى انسياب هادىء منعش، يبعث الأمل فى الحياة ويحيلها الى بهجة لاينقطع مددها.رأيت فيهما ربيع عمرى يبعث من جديد..دونهما الموت هاتان العينان الجميلتان، فحياتى أصبحت رهنا برؤيتهما تنظران الىّ باشتياق ومحبة واحترام ورغبة.قال لى وهى تكتم ضحكاتها بوضع يدها على فمها الصغير:

- ألم أقل إنك مجنون؟!..
- بل سأجن بالفعل لو لم تقبلى
- ألا تعطينى وتعطى نفسك فرصة للتفكير؟

واتفقنا على لقاء فلقاء فلقاء...

فى كل مرة كانت تأسرنى بعذوبتها وتلقائيتها فى الحديث.أفضت الىّ بكل ما تصارع فى عقلها من فكر،وبكل ما انطوت عليه جوانحها من مشاعر وأحاسيس.ياإلهى..كم هى جميلة هذه المخلوقة الصادقة حتى النخاع.من أين أتت بهذه الثقة العظيمة فى شخصى حتى تبوح لى بأدق أسرار حياتها؟..سألت نفسى هل تخاطبنى كأب أم صديق أم حبيب.خجلت أن أكون أقل صراحة منها أو ثقة بها ففكرت أن أطرح عليها تساؤلى هذا بعد أن تعددت اللقاءات وازداد التقارب.شجعنى على ذلك أن سيطر علىّ شعور قوى طاغ كدت ألمسه بيدى وأنا استمع اليها بأنها امرأة من نفس عمرى.تفكر مثلى.تستنتج مثلى.حتى البحر الذى أعشقه ، تعشقه مثلى.تحب ما أحب وترفض ما أرفض. تعجبت كيف تمكنت بهذه البساطة من إضافة ثلاثين عاما الى عمرها لتصبح مثلى فى الستين كعقل إنسانى.لم أكن لأصدق أبدا أن هناك امرأة فى الثلاثين تجمع بين حكمة الشيوخ وفورة الشباب فى آن، لولا أن نظرت فى عينى غصون.سألتها بنفس صدقها وإخلاصها وصراحتها:

- هل تنظرين الىّ كأب أم صديق أم حبيب؟
- السؤال مركب والإجابة أكثر تركيبا
- فلنجعلها نسبا مئوية حتى نسهل الأمر
- فكرة جيدة
- لنبدأ بالأب

قالت دون ان تفكر:

- الأب صفر بالمائة
- غير معقول..هذه مبالغة
- ليست مبالغة لسببين
- ما هما؟
- الأول يرجع اليك والثانى إلىّ
- فما الأول؟
- الأول أننى أرى فيك شابا،بل طفلا فى بعض الأحيان، فقلبك شاب وروحك شابة ،وفكرك شاب،حتى فى ملبسك فأنت شاب
- الله يخليكى..رفعت معنوياتى الى قمم الفضاء
- أنا أتكلم بصدق عن مشاعرى تجاهك فى هذه النقطة بالذات
- إذن فأنت لاتنظرين الى فارق السن بيننا
- على الإطلاق
- ألا أذكرك أبدا بوالدك وهو فى مثل عمرى تقريبا ؟

لو كنت أعلم أن هذا السؤال سيفجر أحزانها ويشقيها لما سألته.تركتها تتحدث فى انطلاقة عفوية لم أشأ أن أقاطعها ولو مرة واحدة لأستفسر عن أى شيء.قالت:

-أما الذى يرجع إلىّ فهو أنك لاتذكرنى بأبى على الاطلاق،لأنك نقيضه بالتمام والكمال.انه رجل قاس عنيد غليظ الطباع صعب المعاشرة.كان يضرب أمى بوحشية وأنا طفلة ، فيظل جسدى ينتفض رعبا منه.أبكى بغزارة ولا أجرؤ أن يصدر عن بكائى صوت حتى لايسمعنى فيضربنى أنا الأخرى.تحملته أمى كثيرا حتى نفد صبرها فتمردت عليه.قرر الانتقام منها فى أبنائه وبناته!!..أصبح يضن علينا بماله فلا ينفق إلا الفتات من مكسبه الوفير.يقاطعنا لأتفه الأسباب ، فيغلق عليه باب غرفته لأسابيع أحيانا ولأشهر أحيانا أخرى.لانرى وجهه إلاأثناء دخوله المطبخ و الحمام أو خروجه منهما.يصيح زاعقا بأعلى صوته-متعللا بأى علة-فيسمعه كل الجيران وهو يسب زوجته وأولاده سبّا موجعا.كان جبروته فوق الوصف ، وظل كذلك طول العمر حتى أصيب بشلل مفاجيء.تحول العنف الى رقة وتحولت القسوة الى لين ونعومة، لا عن اعتراف بخطئه أو ندم على ما كان منه، وإنما استجداء لخدمتنا له والسهر عليه.أمى الأصيلة نسيت وغفرت وسامحت فسهرت عليه ورعته ومرضته إرضاء لله فقط.أنا متأكدة من ذلك.إخوتى وأخواتى لم

بعبأوا به إطلاقا،وأعتقد– والله أعلم – أنهم ينتظرون موته بفروغ صبر حتى يرثوا ممتلكاته وآلافه المؤلفة التى ضن بها عليهم فى حياته، لينعموا بها بعد مماته، دون أن يذكروه بخير.

لم أتمكن من مواصلة الانتظار فسألتها بلهفة طفل:

– وأنت؟

– كنت وما زلت أشفق عليه من قلبى

ما أجملها وأعذبها يوم رأيتها فى الحرم وهى تسير به،متكئا عليها بثقله الضخم وهى تحمله بقـــوة وثبات،وعلى فمها ابتسامة عطوف حنون تفيض بالإنسانية.مخلوقة رائعة.فى كل دقيقة أمـــضيها معها أزداد حبا لها واحتراما وتقديرا.قالت:

– لهذا فإن نسبتك عندى كأب تساوى صفرا كبيرا

– أعدك أن أكون لك الأب البديل حتى يزداد حبك لى

– عندك..لم نتكلم بعد عن نسبة الحبيب..دعنا نتكلم عن نسبة الصديق

– صدقينى.إنى اتمنى أن أقوم الآن وأحضنك وأقبلك أمام كل رواد هذا الكازينو

– نسبة الصديق خمسين بالمائة

– إذن فنسبة الحبيب خمسون فقط

– هذا صحيح.ما رأيك؟..هل أعجبتك رؤيتى لك؟

– أنت مشكلة..دعينى أفكر

كنت قد اصطحبتها الى كازينو الشاطىء بناء على إلحاح منها لشدة رغبتها فى رؤية أم فؤاد التى تعلم كم أحبها، والمحب يحب حبيب المحبوب.تمنت أن ترى هذه المرأة المجربة التى شجعتنى علـــى تغيير مجرى حياتى مائة وثمانين درجة بإهدائها فكرة المقهى الىّ، ثم بمباركتها لفكرة زواجنا الـــتى طرحتها عليها بمجرد أن داعبت خيالى ، وكأنها أمى أستشيرها فى أمورى المصيرية وأستمع اليهـــا بتقدير واحترام.

– هل أنت على استعداد للجلوس مع معلمة تشخر وتدخن الحشيش؟

– أنت تفعل نفس الشىء، وأنا على أتم استعداد ، بل وفى أشد الاشتياق لمعرفتها

– لن يكون بينكما موضوع مشترك يمكن أن يجمع بينكما فى حوار

– ألا يكفى أن تكون أنت موضوعنا؟!

رحت أرقب المشهد فى ذهول..وكأنها تعرفها من قبلى، وضعت جسمها الصغير داخل صدر أم فؤاد العريض الذى احتواها فى عناق يقطر مودة خالصة،وقبلات تفيض بالصدق والمحبة.ضـــربت كفا على كف لحيرتى من هذه العفريتة الصغيرة المقدامة على الناس والحياة بحب وشجاعة.بادلتها

أم فؤاد مشاعرها بمشاعر أجمل وأشمل ، وكأنها تحتضن ابنة لها قد غابت عنها طويلا.ما أروع حياتى الجديدة المترعة بالحب.

- منورة المطرح يادكتورة..احنا زارنا النبى النهارده
- بوجودك يا طانط..ربنا يبارك فيكى

كتمت ضحكة عفوية كادت تصدر منى لسماع كلمة"طانط"التى يبدو أنها أعجبت أم فؤاد

- والنبى طالعة من بقك زى السكر..قولى لى يا ام فؤاد ياختى

نظرت الى البحر نظرة العاشقة المفتونة لمعشوقها وقد فقدت نفسها فيه..قالت فجأة:

- لازم أنزل البحر
- معقول؟
- لم لا ؟.اشتر لى "مايوه" يا مراد وحياة من زرناه معا..لو لم أنزل البحر سأجن فهل هذا يرضيك؟

كان لها ما أرادت ، فمعشوقها هو معشوقى، والذى لم يعشق البحر لايعرف كيف يعشق الحياة.كان الموج هادئا لايسمع له صوت.استنجدت بأسراره لعلى أرسو على بر.البنت صغيرة ولذيذة وشهية وذكية وشقية وجسمها جميل متناسق والحياة معها تطيل العمر.أن أكون صديقا لها ورجلا وحبيبا وشريكا فماذا يضير الدنيا من ذلك؟..لكنك متزوج،وابنك وابنتك متزوجان،وزوجتك سيدة فاضلة لم تؤذيك فى شيء وقد أدت رسالتها تجاه أسرتها على خير وجه.هل يعنى انتهاء دورها فى الحياة أن تهمل وتترك وتنسى؟..المهندس مراد عامر لايمكنه أن يفعل ذلك ولو على رقبته.المشكلة أن هذا المهندس قد قتل أو مات يوم بلغت الستين،وحل محله المعلم مراد.ما أروع أن احيا حياة جديدة مع امرأة صغيرة خفيفة الروح تقول لى انها حين تجلس أمامى وحدى من دون العالم، فإنها تكون على سجيتها وفطرتها،وبكامل كيانها وفكرها وإحساسها،فلا تفكر ولا تحذر ولا تتدبر فيما تقول كما تفعل مع الآخرين.معذرة ياسميرة.لك الحق فى أن تتهميني بالأنانية والجحود.قد أكون مخطئا فى نظرك ولابد أن أكون كذلك..لكن ذريعتى أننى لن أفعل شيئا يغضب الله،وفضلا عن ذلك فإننى لم أعد أنا، وليت الدنيا كلها تفهم ذلك.لقد مللت حياتى السابقة بشدة وهذا أمر لاذنب لى فيه.الله خلقنى هكذا.لو بقيت معك سأموت وهذا لايرضيك ولا أقبله، ولا ذنب لك فيه أنت الأخرى.هو أمر كائن واقع ملموس محسوس مؤكد.كان لابد من التغيير فهو بديل الموت،وكيف أطالب بالتغيير السياسى فى وطنى بينما أعجز عن التغيير فى حياتى؟..بحكم الزمن الخبيث أنا لم أعد أنا وكذلك أنت لم تعودى

أنت.تحول كل منا الى كائن آخر، فأصبحنا كائنين مختلفين لايلتقيان كما التقيا من قبل..وكيف أقول للزمان قف وأنا أعلم أنه لن يعبأ بى؟...

"لاتسأليني كيف ضاع الحب منا فى الطريق/يأتى الينا الحب لاندرى لماذا جاء/قد يمضى ويتركنا رمادا من حريق/فالحب أمواج وشطآن وأعشاب/ورائحة تفوح من الغريق/ماذا يفيد لو قضينا العمر أصناما يحاصرنا مكان/لم لا نقول أمام كل الناس ضل الراهبان/لم لا نقول حبيبتى قد مات فينا العاشقان/العطر عطرك والمكان هو المكان/شيء تكسر بيننا/لا أنت أنت ولا الزمان هو الزمان"...

- كفاك شرودا وهات ماعندك
- لو استبدلنا الرجل بالحبيب فهل تتغير النسبة؟
- لاتتغير لأنى معجبة بعقلك وقلبك وجسدك جميعا
- بنسب أيضا؟
- لا..هذا صعب ، بل غير معقول ،فالمطلق لايقاس بنسبى والنسبى لايقاس بمطلق

******

●قصاصات قديمة منسية لم تسجل فى مذكرات الشرخ :

*قصـــــــــــاصة:

احتدم الجدل بين اسماعيل القططى طالب الهندسة الفاشل وبين بلطجى ينافسه على حب فتاة .قال لى القططى فى بداية علاقتنا أنه يحبنى كما يحب وحيده وقرة عينه اسماعيل ،وصدقته كعادتى.كان يربت على ظهرى وصدرى بمحبة مدهشة.تجمع أهل الحى وعجزوا عن فض المشاجرة.استل البلطجى سكينا من جيبه وغرسه فى صدر منافسه على مرأى من الجميع.قلت من قبل انى لن أدع القططى يفلت من عقابى.جاء العقاب من شديد العقاب..ويعود عبد الناصر من المطار منهكا فيموت ولايتوقف قتال الفلسطينيين مع الأردنيين أو الفلسطينيين مع الفلسطينيين.قال لى خبير ألمانى بالشركة:"أنتم يا عرب تنتزعون منا الضحك على خيبتكم واختلافكم المستمر، لذا فلن تحل قضيتكم ولن تقوم لكم قائمة الى الأبد".كان حلم عبد الناصر كبيرا بدوائره المصرية والعربية والاسلامية والأفريقية.رغم حسن نواياه فقد غرق فى حلمه وأغرق معه شعبا أحبه كما لم يحب زعيما له من قبل..ويطالب صحفى اسرائيلى بصنع تمثال له من ذهب ووضعه فى قلب تل أبيب عرفانا وتقديرا لإهدائه إياهم سيناء فى ست ساعات.كان أول حاكم مصرى ينبض قلبه بأوجاع شعبه،لكنه أدخله ثلاثة حروب خاسرة..ينهار صرح الحب العظيم ويبيت البنيان الاجتماعى مهددا بالزوال من بعد حلم أخضر بالاستقرار والعدالة والحرية ذات الجناحين..ويتحالف

المتربصون بكرسى الرئاسة ضد السادات الذى جمعهم فى عربة واحدة وتخلص منهم فى ساعات قليلة وأطلق عليهم لقب"مراكز القوى"..ويجتاح الزوال بأمواجه الصاخبة المعربدة حقبة من تاريخنا المنهك بالعذاب،ولا يفارق مشهد المنصة مخيلتى أبدا..يستحيل الزمان من كيان هلامى زاحف الى كابوس مادى يتجسد فيه شقاء الانسان وقسوته وغروره وجهله بمغزى الحياة، ويستنيم هدوء غامض على أرض الوادى،وكأن الدنيا لاشأن لها بما يقع فيها.

*قصاصة أخرى:

يبكى مبارك أثناء تسلمه مقاليد الحكم بينما تزهو عجلة الحياة بدورانها الأبدى،غير عابئة بمن راح ومن جاء.أمامك أيها الرئيس الجديد درب طويل.أولى خطواته هى التخلى عن الزعامة والاكتفاء بالرئاسة حتى تتجاوز أخطاء الزعيمين السابقين، فتوفر لشعبك حرية الطعام وحرية الكلام..وقف مبارك أمام مجلس الشعب يتعهد بطهارة اليد وبألا تزيد مدة حكمه عن فترة أو فترتين،وبأن يرعى مصالح الشعب ويقوده نحو الديموقراطية،فهل يصدق ياترى؟..ولقد صاح العيسوى قائلا:

–ضاع كل شىء!!

بعثت ببرقية تهنئة الى أخى اسحاق أهنئه فيها بنجاح حملته وانتصاره.اتفقنا على أن نلتقى يوما ما. أهلا يا أستاذ ربيع..صودرت أموال صاحبك.بداية طيبة للتطهير المرتقب الذى وعدنا به وصدقناه . سوف يسقط اسمك ياربيع فى بالوعة النسيان وتزول يا زول.

*قصاصة ثالثة:

منذ العبور أصبحت فى حل من صفريتى المعشوقة،وأصبح من حقى وواجبى أن أكف عن التأرجح حول يمين الصفر ويساره بمسافتين متساويتين، فالحياة تمور من حولى بالمتغيرات،وهناك فعل حقيقى ومؤثر قد حدث.فعل جعل من التئام الشرخ ومن يقينى الصفرى نقيضان لايتفقان.لكنى مازلت أرى أهل الزراعة لايزرعون وأهل الصناعة لايصنعون.أهل الكلام فقط مازالوا يتكلمون.ليتكم تعلمون يا اخوتى الأعزاء أن الصفرية التى أعيشها ليست داء،وإنما هى دواء يسكن ألمى من مرض مزمن أصابنى منذ ثلاثين عاما هو مرض الشعور بالظلم.أنا أعرف ما الذى سيحدث..بعد زمن قليل يبدأ الفتور والنسيان..ويبحث الناس عن الخبز والزيت والسكر والوظيفة والمسكن، بينما السفينة تبحر بهم الى شاطىء الموت.

******

●من الملف رقم(١٠):

أنظر الى نتيجة الحائط المعلقة أمامى والتى تشير الى ابريل من العام الحالى٢٠٠٦ وقد تحولت الى بانوراما سحرية.فى إحدى زوايا المشهد أرى قضاة مصر وهم يتجمعون أمام ناديهم مطالبين بسن

قانون للسلطة القضائية يحفظ لهم استقلالهم ويحميهم من تغول السلطة التنفيذية.وفى زاوية أخرى من الصورة نفسها أشاهد حشودا هائلة من قوات الأمن المركزى ينهالون بالعصى والهراوات المكهربة على من جاء من رموز هذا المجتمع مؤيدا ومؤازرا للقضاة فى وقفتهم.فى مكان بارز بالصورة أرى أحد القضاة وقد طرحه رجال الأمن على الأرض وانهالوا عليه ضربا بالعصى وركلا بالأحذية وسبا وقذفا..وقد ظهر هذا القاضى فيمابعد على شاشة فضائية يحكى قصته والدموع تنهمر من عينيه ، مستدعية الى الذاكرة مأساة مشابهة سبق أن تعرض لها الفقيه الدستورى الدكتور عبد الرازق السنهورى قبل أكثر من خمسين عاما.رغم مرور كل هذه السنوات فجوهر الحكم لم يتغير. فى الزاوية المقابلة أرى مشهدا نمطيا متكررا عنوانه"الفتنة الطائفية" وأبطاله المسلمون والمسيحيون،وأحداثه تقع مرة فى الاسكندرية ومرة فى البحيرة ومرات فى الخانكه والدرب الأحمر،فى تأكيد مستمر على أن النسيج الاجتماعى المصرى بات مهددا فى صميمه فاقدا لحصانته.وإذا وضعنا مايعلنه بدو سيناء من احتجاج علنى على سوء المعاملة الأمنية للآلاف من أبنائهم وآبائهم وأمهاتهم الذين اعتقلوا وانتهكت أعراضهم بعد تفجيرات طابا وشرم الشيخ فى العامين الماضيين،وما يبديه أهالى النوبة من شعور بالغبن والتهميش، يمكننى القول بأن بنية المجتمع المصرى أصبحت فى خطر حقيقى.

مشهد آخر أرى فيه جموعا من الطلاب وأساتذة الجامعات يطالبون برفع الوصاية الأمنية عنهم والكف عن ملاحقتهم واعتقالهم وإلغاء لائحة٧٩ المقيدة لنشاطهم والعودة الى لائحة٧٦ والكف عن التدخلات الأمنية فى اختيار أعضاء نوادى هيئة التدريس الخاصة بهم..مراكز صنع أجيال المستقبل تعانى الكبت والاحتقان.لم يكن مستغربا أن يلقى ذلك بظلال سوداء على العملية التعليمية فتخرج جامعاتنا من المنافسة حتى على المركز رقم ٥٠٠ من بين جامعات العالم.

لقطة أخرى لمئات الآلاف من الإخوان المسلمين يطالبون بحرية العمل السياسى أسوة بالليبراليين واليساريين وغيرهم،محذرين من إمكانية العمل السرى فى أقبية مظلمة تحت الأرض،إذا ما استمر الانسداد فى شرايين العمل السياسى العلنى...وتظهر فى الصورة مظاهرات الصحافيين احتجاجا على محاكمة زملائهم الذين يكشفون الفساد ويعرون مؤخرته فى جرأة بالغة. وفى الخلفية العامة للمشهد أرى ملايين الفقراء ممن كانوا يسمون حتى عهد قريب بالطبقة الوسطى.أشاهدهم وقد زحف الفقر عليهم حتى بات الواحد منهم يصارع دوامة الحياة اليومية باحثا عن لقمة عيش عزّ وجودها فى وقت يسمعون فيه منذ ربع قرن أحاديث وتصريحات لاحصر لها عن تنمية وهمية، غزا الشيب رؤوسهم دون أن يروا ثمارا لها.

ويحيط بإطار الصورة العامة قانون للطوارىء مشهر منذ ربع قرن فى وجـــه رمـــوز التغـــيير السياسى والاجتماعى، غاضا الطرف عن ظاهرة اشتهرت باسم"البلطجة"التى يحتكم أفرادها الى قانون الغاب.ساعدهم على ذلك انحسار دور الدولة من جهة،وتشجيع بعض رموز الحزب الحاكم من جهة أخرى.

هذه المشاهد المضطربة،وهذه الصورة المهزوزة،وتلك الألوان القاتمة توحى بأن انتشال دولـــة كبيرة بحجم مصر من وحل حاضرها أصبح حلما صعب المنال،لايزال تحقيقه يواجه عقبات جمة، تجعل من كل ماسبق لقطة تذكارية شاملة لصورة من صور الماضى الذى كتبت عنـــه مـــذكراتى القديمة منذ مايقرب من أربعين عاما.....هاهو عام٢٠٠٦ يقترب من نهايته وكل شىء فى مـــصر على ماكان عليه.ما زال النظام يواصل ألاعيبه المفضوحة والتى كان آخرها تعديل التعديل الذى تم من قبل للمادة٧٦ من الدستور.يصفه حمدين صباحى رئيس تحرير جريدة الكرامة بأنه تعـــديل "ديكوديمو"أى ديكورى ديموقراطى لأنه يمهد عن طريق ترزية القوانين الأفـــاقين لكـــى تكـــون الانتخابات الرئاسية القادمة مجرد إعادة عرض لمسرحية الانتخابات الرئاسية الـــسابقة.. ولقـــد أراحنا الدكتورصلاح صادق أستاذ القانون بأن أوجز المسألة فى عبارة عبقرية وهى أن التعـــديل الأول كان للتمديد والثانى للتوريث..أما الشاعر سيد حجاب فقد فسر الأمر برمته بقوله:"نحـــن نعيش حالة انقلاب، فلا السلطة قادرة على الحكم، ولا الشعب قادر على انتزاع الـــسلطة مـــن أيدى الفاسدين.

● آخر نكتة فى آخر ملف:

رفع مواطن مصرى عادى متضرر من بيع القطاع العام دعوى ضد رئيس الجمهورية يطالبه فيها برد قيمة بيع شركات الشعب الى الشعب.نشر الخبر الصحافية سحر زكى المحـــررة فى جريـــدة الدستور.بعد النشر تقدم محام مغمور لم يقع عليه ضرر من جراء نشر الخبر،بدعوى ضد الصحافية سحر ،ورئيس تحرير الجريدة ابراهيم عيسى،والمواطن العادى صاحب الدعوى الأصلية بتهمة نشر أكاذيب تسىء الى الرئيس وتنشر الفزع بين المواطنين!!...صدر قرار بمحاكمة الثلاثة.النكتـــة أن الجميع يعلمون صحة خبر الدعوى من جهة،وعدم مسئولية رئيس التحرير من جهة أخـــرى.فى المحكمة احتشدت الجماهير المؤيدة لابراهيم عيسى بما يمثله ويرمز اليه من معنى–مثلما احتـــشدوا من قبل لزميله وائل الأبراشى– وكانوا يحملون أعلام مصر.مزقها الـــضباط والجنـــود ومنعـــوا المواطنين من حملها. .وقال ابراهيم عيسى ان الله لن يترك أناسا يعملون فى سبيله دفاعا عن الحرية فى مواجهة من يريدون مواطنى هذا البلد عبيدا لرئيسهم وحزبه وإبنه من دون الله.الذين يدافعون عن الأمة وحقها فى القوت والرزق دونما سرقات ونهب وتبديد لثروة البلد واعتداء على المـــال

العام بيت مال الأمة،والذين يقاتلون ضد استبداد الحكم الذى جعل كل شىء رهن إشارة إصبع رئيس وتحت أمر رمشة من عين حاكم،كأنه قادر على أن يقول للشىء فى هــذا الــوطن كــن فيكون..كأنما يقتص من حق الله،يقتل هذا ويسجن هذا ويدبر مكيدة لذلك ويعــصف بهــؤلاء ويضرب هذا دونما أن يرده قانون،فهو مفصل على هواه،ولايردعه دستور فهو موضوع تحــت قدميه.هذا النظام الذى جعل الحاكم سرمديا أبديا لايمشى ولايمضى إلا بالفناء وقدر القضاء.يتربع ربع قرن ويزيد دون إرادة الأمة التى زيفوا بيعتها.

******

هف..هف..هف..أنا الآن أشعر بارتياح نسبى بعد أن أفرغت أمــامكم كــل مابــصدرى.الآن أصبحتم شركائى فى المسئولية،فلو سالت الدماء أنهارا على أرض وادينا الجميل،لن يستطيع أحد أن يتنصل عن مسئوليته المباشرة أو غير المباشرة عما حدث، وعما يحدث ، وعما سيحدث..لكن ارتياحى لن يكون مطلقا فأصبح فى حل من أمرى،إلا إذا أكدتم لى اننى انسان متشائم ،شــكوكه وظنونه ليست فى محلها ، بحكم أنها هوميات مسطول عائش فى الخيــال..أو إذا أكــدتم لى أنهــا صحيحة أو محتملة أو مؤكدة، فأحيانا تصدر الحكمة من أفواه المساطيل.

لم يبق أمامى إلا أن أذهب لأتطهر بماء البحر وأغتسل من كل ما علق بذهنى وجسدى وروحى على مدى أربعين عاما من أوساخ.كافتريا أم فؤاد هى المكان الوحيد الذى لابــديل لــه علــى الأرض،والذى يمكنه أن ينفض الموضوع بهمومه عن كاهلى،حيث الله والطبيعة والاتساع اللانهائى وسكينة الروح وطمأنينة الفؤاد.

سبحت بعيدا عن الشاطىء حتى لايرانى أحد.خلعت المايوه وعلقته حول رقبتى وذبت فى المــاء وتلاشيت.تكلمت الى الله بصوت مسموع كله خشوع وتوسل وتذلل، ألا يتــرك مــصر نهبــا للصراع والفوضى.غنيت لأم كلثوم"حبيبى يسعد أوقاته على الجمال سلطان".لم أكتف بالغنــاء وإنما كنت أردد الجمل الموسيقية الفاصلة بين الكلمات بإتقان شديد، فالموسيقا فى دمــى، وأذنى تعشق النغم الشرقى، وكل ذرة فى جسدى ترقص لها..ثم صرخت فجأة وأنا أعرف أن أحدا لــن يسمعنى:

-ربنا ياخدكم يا اولاد الكلب

وأعود الى الغناء ثانية.."بعد الحبيب ولو انه يطول وانت ياقلبى كلك أمانى"..يارب ارحمنا برحمتك ياجميل يامن تحب الجمال والسلام والمحبة بين مخلوقاتك،فأنت الحب والمحبة والحبيب والمحبوب...

نسيت المايوه فى رقبتى حتى اقتربت من الشاطىء حين لمحتنى أم فؤاد وأنا أنزله من رقبتى وأعاود ارتدائه.عندما خرجت قالت لى:

–ياراجل يا شايب بطّل المسخرة دى..إفرض انه ضاع منك فى البحر

قلت لها مداعبا:

–لن تشعرى أبدا بالمتعة التى أشعر بها الا إذا جربت بنفسك

شخرت لى وقالت وهى تنفث دخان سيجارتها:

– انت يخلى لك بلاد

كان وقت صلاة العصر قد اقترب، فرأيت أن أصليه مع الشيخ خليل فى المسجد، لأستكمل شعورى بالخفة والطيران والشفافية..الليلة ليلة غصون ليلة حب وحياة وبهجة وتقرب الى صاحب النعم بالاعتراف من نعمه وشكره عليها. فى الطريق الى المسجد تذكرت الشيخ عبد ربه التائه الذى سأله نجيب محفوظ:

- متى تنصلح حال البلد ؟
- عندما يؤمن أهلها أن عاقبة الجبن أسوأ من عاقبة السلامة
- وكيف تنتهى المحنة التى نعانيها ؟
- إن خرجنا سالمين فهى الرحمة، وإن خرجنا هالكين فهو العدل.

●●●●

سعيد سالم

الاسكندرية فى ٢٠٠٦/٩/١١–مسودة أولى

الاسكندرية فى ٢٠٠٦/١١/١٨ –كتابة ثانية

تعريف بالكاتب "سعيد سالم"

E mail:saidsalem57@hotmail.com>saidsalem62@yahoo.com

– من مواليد الاسكندرية ١٩٤٣

– عضو اتحاد كتاب مصر و عضو اتحاد الكتاب العرب و عضو هيئة الفنون و الآداب و عضو أتيليه الفنانين و الكتاب بالاسكندرية و عضو لجنة النصوص الدرامية بالادارة المركزية لاذاعة و تليفزيون الاسكندرية .

– حاصل على ماجيستير الهندسة الكيميائية من جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ .

– رئيس قطاع سابق بشركة الورق الأهلية بالاسكندرية و يعمل حاليا كمهندس استشارى.

مصطفى كامل / الاسكندرية .– شقة ١٠ –– عنوان المنزل : ٥ شارع على باشا ذو الفقار

– تليفون منزل : ٥٤٦٢٨٦٩ (٠٣) . – محمول ٤٣٩٠٢٥٩ / ٠١٢

الروايات المنشورة :

– "**بوابة مورو**" جماعة أدباء الاسكندرية –"**جلامبو**" جماعة أدباء الاسكندرية ١٩٧٦ "**آلهة من طين**" (طبعة أولى) —"**عمالقة أكتوبر**" هيئة الكتاب ، مصر ١٩٧٩ "**عاليها** –هيئة الكتاب ، مصر ١٩٨٥ / (طبعة ثانية) دار الجليل ، دمشق ١٩٨٦ "**الشرخ**" دار –**أسفلها**" (طبعة أولى) مطبوعات وزارة الثقافة ، دمشق/سوريا ١٩٨٥ "**عاليها** – "**الأزمنة**" روايات الهلال ١٩٩٢ –طلاس ، دمشق/سوريا ١٩٨٨" "**الفلوس**" دار المستقبل ، مصر –**واطيها**" (طبعة ثانية) دار المستقبل مصر ١٩٩٢ "**الكيلو** – "**عاليها أسفلها**" (طبعة ثالثة) هيئة الكتاب ، مصر ١٩٩٥ –١٩٩٣ **١٠١ الوجه و القناع**" طبعة خاصة ١٩٩٧ و طبعة عن هيئة الكتاب ١٩٩٩.– "**حالة مستعصية"** دار الهلال ٢٠٠٢ – " **كف مريم"** مطبوعات اتحاد الكتاب ٢٠٠١.–"الشىء الآخر".دار ومطابع المستقبل ٢٠٠٤–المقلب–مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة(تحت النشر)–الحب والزمن.(تحت النشر)

مجموعات قصصية منشورة :

"**رجل** –"**قبلة الملكة**" مطبوعات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٨٧ "**الموظفون**" مطبوعات اتحاد الكتاب العرب –**مختلف**" هيئة الكتاب ، مصر ١٩٩٥ "**الجائزة**" دار قايتباى للطباعة و النشر ، مصر ١٩٩٤ – "**الممنوع و** –١٩٩١ **المسموح** " مختارات فصول.مصر ٢٠٠٢.- "**أقـــاصيص مـن السـويـــد**"**الهيئة المصرية العامة للكتاب٢٠٠٥- "قانون الحب**"سلسلة الكتاب الذهبى.مصر ٢٠٠٦ .

*مجموعات قصصية تحت النشر :*١ **هــوى** – ٢ **رحيـــق الـــروح الخمسين**

القصص القصيرة منشورة بالجرائد و المجلات الآتية :

– الثقافة – الهلال – مايو – حواء – أكتوبر – المساء – الجمهورية – الأخبار –الأهرام الاسكندرية – أمواج – عالم القصة – القصة – روز اليوسف – آخر ساعة – ابدا ع –الكاتب – الكتاب العربى – الأسبوع الأدبى – الثورة – الموقف الأدبى – تشرين – البحث – الأيام – – الدستور – الشرق الأوسط – الحرس الوطنى – المجلة – الفيصل – العربى – الأنباء –البيان الكويت .– العربى – الناشر – صباح الخير – اليوم السابع –الرأى

المسرح :

الدكتور مخالف (مسرحية كوميدية –**الجبلاية** (مسرحية كوميدية من ٣ فصول) من ٣ فصول) .

نماذج من الدراما الاذاعية :

زارع – بوابة مورو – سباق الوهم – العائد –حجر النار الدكتور – رجال من بحرى – رحلة الصعود و الهبوط –الأمل عيون الليل – مفتاح – أحلام الناس الطيبين –مخالف

. و غيرها ، و هى مسلسلات اذاعية شهرية فى ٣٠ حلقة باذاعتى الاسكندرية و **...السر** القاهرة ، فضلا عن العديد من السهرات الكوميدية و **اعداد برنامج عالم القصة أسبوعيا** .

فى النقد الأدبى :

مجموعة مقالات نقدية عن أعمال بعض الكتاب العرب نشرت بمجلات و جرائد مختلفة .

أهم الجوائز :

١- الجائزة الأولى عن رواية "**الأزمنة**" فى مسابقة **احسان عبدالقدوس** للرواية ١٩٩٠ .

٢- **جائزة الدولة التشجيعية** فى القصة لعام ١٩٩٤ عن مجموعة (**الموظفون**) الصادرة عام ١٩٩١ عن مطبوعات اتحاد العرب بدمشق .

٣- **جائزة اتحاد كتاب مصر فى** الرواية لعام ٢٠٠١ عن رواية **"كف مريم".**